

الأوضاع الحصارية في بلاد الشام

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد



الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد عصر الحروب الصليبية

تأليف
دكتور محمود محمد الحويزي

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب بسوهاج - جامعة أسيوط

١٩٧٩



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج ٠ م ٠ ع

الإهداء

الى روحى اُمى وابى فى اكرم

جوار وفاء وعرفانا ..

محمود

مقدمة

من الحقائق المسلم بها في دراسة تاريخ العصور الوسطى ، ان الانتصارات الكبيرة التي أحرزها الصليبيون في الشرق الأدنى ، حينما وصلوا اليه أول مرة أواخر القرن الحادي عشر للميلاد ، لم يكن مردها قوة خارقة ، بقدر ما كان ضعف القوى الإسلامية في المنطقة (١) . وهناك أسباب عديدة أدت الى ضعف المسلمين ووجههم في منطقة الشرق الأدنى في ذلك الدور . فالسلاجقة وهم اصحاب النفوذ في بلاد الشام عندئذ ، كانوا منقسمين على أنفسهم ، يتقاتلون فيما بينهم من أجل الظفر بعرش السلطنة ، وشغلتهم أهواؤهم الشخصية عن ادراك أبعاد الخطر الأجنبي ، مما سهل للصليبيين احراز النصر في حروبهم الأولى (٢) .

والواقع ان السلاجقة بعد وفاة السلطان ملك شاه عام ١٠٩٢ م اصابهم التدهار والانهيار ، بسبب الحرب الداخلية التي نشبت بين أبنائه . ويشير البعض الى ان الحروب الصليبية لو تقدمت عن موعدها عشر سنوات ، لما تحقق لها ما اصابته من نجاح ، لأنها ربما اصطدمت عندئذ بامبراطورية عربية تركية موحدة تحت زعامة ملك شاه (٣) .

وكان تفاقم الخلاف بين السنة والشيعة ايضا ، من الأسباب الرئيسية لضعف المسلمين في ذلك الدور ، مما أدى الى ايجاد الفرقة بين المسلمين بعضهم وبعض ، وازدادت حدة الخلاف بين الخلافة العباسية السنية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة ، ومن الطبيعي أن ينعكس الخلاف بالشام في صورة صدام عنيف بين الخلافتين ، لأن بلاد الشام بحكم موقعها الجغرافي تعتبر حلقة الوصل بين مصر والعراق ؛ وقد واكب ضعف الخلافة

-
- (١) سعيد عاشور : شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية ، ص ١٥ .
 (٢) عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ١٠٢ .
 (٣) راسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٢٠ ،
 الباز العريش : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، المقدمة .

العباسية في بغداد انحسار نفوذها في كثير من البلاد ومن جملتها الشام (١) .
فانتهاز الفاطميون الفرصة ومدوا نفوذهم الى الشام ، وظلوا حتى مجيء
الصليبيين يضمون أيديهم على الأجزاء الجنوبية والساحلية من بلاد
الشام (٢) .

ولم يقف الأمر على التنافس الشديد بين السنة والشيعة ، بل أن الأمراء
المحليين استغلوا ضعف السلطة المركزية في كل من بغداد والقاهرة ، وأسسوا
امارات لهم في أنحاء مختلفة من الشام ، ومكنوا لانفسهم فيها ، مثل بنو طي
في ما وراء نهر الأردن ، وبنو عمار في طرابلس ، وبنو الجراح في غزة والرملة ،
وبنو منقذ في شيراز ، وبنو مرداس في حلب ، وابن ملاعب في حمص ، وابن
أبي عقيل في صور (٣) .

والحركة الصليبية دفعتها بواعث حقيقية ، انبعثت من صميم المجتمع
الأوربي الغربي ، والقول بأن الإباطرة البيزنطيين بسبب تعرضهم لضغط
الأتراك السلاجقة ، استنجدوا بالبابوية ، أمر لم يكن ليلقى اهتماما إذا لم
يكن للغرب أسباب قوية جعلته يتحرك استجابة لدعوة الإمبراطورية
البيزنطية (٤) .

ومهما يكن من أمر ، فإنه ما كادت تنقضي اثني عشرة سنة على وصول
الحملة الصليبية الأولى الى أرض الشام ، حتى كان الصليبيون قد أقاموا
لأنفسهم ثلاث امارات كبرى ، الرها وانطاكية وطرابلس ، فضلا عن وضع
نواة مملكة بيت المقدس الصليبية ، وأدى هذا النجاح الى تدفق الجموع
الصليبية من الغرب الأوربي على بلاد الشام ، بحيث لا يكاد يمر عام دون
وصول جماعة صليبية - كبيرة أو صغيرة - بعضهم أتى في صورة حجاج ،
ولكن يمتشقون الحسام ، ويعتقدون أنهم بمحاربة المسلمين وقتلهم ، إنما
يكتسبون ثوابا مضاعفا .

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) Ziadeh : Urban Life in Syria, P. 76.

محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .

(٣) Ziadeh : op. cit. PP. 76—77

محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧ .

وهكذا ترتب على الحركة الصليبية خلق وضع حضارى جديد في بلاد الشام وخاصة في الجانب الاجتماعى ، بسبب كثرة الاجناس والاصول وما صاحب ذلك من تعدد اللغات ، وتداخل العادات والتقاليد ، والتقاء التيارات الحضارية الوافدة من الغرب المسيحى بما هو سائد في بلاد الشام الاسلامية .

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أقوم بدراسة الأوضاع الحضارية في بلاد الشام ، في القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، وهى الفترة التى تمثل مرحلة الازدهار والنضج بالنسبة للحركة الصليبية ، فقسمت البحث الى عدد من الفصول ، الفصل الأول المجتمع الاسلامى ، والفصل الثانى المجتمع المسيحى ، والفصل الثالث النشاط الاقتصادى ، والرابع الفنون الحربية ، والخامس النشاط الفكرى والتفاعل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين .

واستعنت في هذه الدراسة بعدد كبير من المصادر المعاصرة ، فضلا عن المراجع الحديثة . هذا ولا يخفى على باحث التاريخ - لاسيما في فترة العصور الوسطى - ان دراسة الموضوعات الحضارية ، تختلف اختلافا واضحا عن دراسة الموضوعات السياسية . فالأخيرة بوصفها كانت موضع اهتمام المؤرخين المعاصرين ، رتبوا أحداثها ترتيبا زمنيا ، وتناولوا سردها بالتفصيل وربما أجزوا حينما واستطردوا احيانا في هذا السرد . أما الموضوعات الحضارية ، فلم يعتن بها المؤرخون ، ولم يتناولوها بطريق مباشر ، ومن ثم لا يستطيع الباحث الوصول الى هدفه الا بعد التنقيب عنه في صبر وأناة بالغين ، خاصة اذا كان موضوع البحث يتضمن دراسة شاملة عن النواحي الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والفنية .

وثمة عدد لا بأس به من المصادر العربية استفدت منها فائدة كبيرة ، أهمها ما كتبه ابن الأثير ، وأسامة بن منقذ ، وعماد الدين الأصفهاني ، وابن شداد ، وابن القلانسي ، وأبو شامة ، وابن واصل ، والقلقشندي .

فابن الأثير كتب كتابين هما : « الكامل في التاريخ » وهو الموسوعة التاريخية المعروفة ، و« تاريخ الدولة الاتابكية » الذى قصره ابن الأثير على تاريخ البيت الزنكى . وأهمية هذا المؤرخ أنه ولد عام ٥٥٥ هـ (١١٦٧ م) ، وتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) ، أى أنه عاصر جزءا هاما من حوادث الحروب الصليبية ببلاد الشام ، ولهذا جاء صادقا فيما رواه من حوادث . وجدير بالذكر انه ليس هناك من القرائن والادلة ، ما يثبت أن ابن الأثير كان متعصبا في روايته ، أو متحاملا على فريق دون آخر .

أما أسامة بن منقذ ، فقد اعتمدت على كتابه الشهير «الاعتبار» عندما تناولت دراسة النشاط الفكري والتبادل الاجتماعي بين المسلمين والصليبيين في الفصل الخامس ، بالإضافة الى بعض المواضع الأخرى . وأهمية هذا المصدر ترجع الى أن أسامة بن منقذ تكلم عن الحوادث التي شاهدها بنفسه . فقد ولد أسامة عام ١٠٩٥ م (٤٤٨ هـ) في شيزر ، شمالي حماه من أعمال الشام وتوفي عام ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) في دمشق . وقام الصليبيون بالاستيلاء على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م وهو في الرابعة من عمره ، واستعادها صلاح الدين قبل وفاة أسامة بعام . وطوال حياته ، كان أسامة على صلات مستمرة بالفرجة ، يخاصمهم حيناً ، ويصادقهم أحياناً (١) . ولما ملك صلاح الدين دمشق استدعاه وهو شيخ جاوز الثمانين ، واغرم بشعره ، فقد كان شاعراً أدبياً فارساً ، ألف كثيراً من الكتب الأدبية والتاريخية ، أهمها : كتاب « الاعتبار » وله بالغ الأهمية بين المؤلفات العربية ، لأن مصنفه كتب فيه مذكرات صور فيها تصويراً حياً العصر الذي عاش فيه ، في حالتي المسلم والحرب (٢) .

ومن المصادر التي اعتمدت عليها كتاب « الفتح القسي في الفتح القدسي » للعماد الأصفهاني المتوفى عام ١٢٠١ م (٥٩٧ هـ) . والواقع أن العماد بعد وفاة نور الدين محمود في ١٥ مايو سنة ١١٧٤ م (١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ) اتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي اتصالاً وثيقاً ، وقربه إليه ، ورفع من شأنه ولم يزل كذلك الى أن توفي صلاح الدين . وقد حرص العماد على تسجيل الوقائع الصلاحية في نثره المسجوع ، والمراسل الحربية اليوم الذي يغذى صحف العالم كلها ووكالات الأنباء بالأخبار الحربية ، أشبه ما يكون بالعماد الأصفهاني في تتبعه أخبار صلاح الدين في ميادين القتال والأسرى والقتلى والجرحى (٣) .

وثمة مصدر هام تحدث عن صلاح الدين الأيوبي وحياته وعصره ؛ وهو « الفوائد السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، ألفه القاضي بهاء الدين بن شداد ، الذي ولد بالموصل عام ١١٤٥ م (٥٣٩ هـ) ، واتصل بخدمة صلاح الدين عام ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) ، وولاه قضاء العسكر ، وقربه إليه ، وأغدق عليه

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « أسامة بن منقذ » .

(٢) أحمد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١

(٣) نظير سعداوى : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ، ص ٦٤ .

حبه ، وشهد معه معارك عدة حدثت بينه وبين الصليبيين ، وتوفي بحلب عام ١٢٣٩ م (٦٣٢ هـ) . وترجمته لصالح الدين امتازت بالأسلوب السهل الدقيق ، ومنذ عام ١١٨٨ م يعتبر ابن شداد حجة فيما كتبه عن صلاح الدين الأيوبي ، شأنه في ذلك شأن عماد الدين الأصفهاني .

أما ابن القلانسي ، فيعتبر كتابه « ذيل تاريخ دمشق » من المراجع الأصلية في تاريخ الشرق الأدنى منذ بداية القرن السادس الهجري ، وقد انتهى فيه الى عام ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) ، متخذاً مدينة دمشق محورا للحوادث ، وقد القى ابن القلانسي ضوءاً على كثير من الحقائق الهامة في بداية عهد الصليبيين ببلاد الشام .

أما أبو شامة ، فهو عبد الرحمن بن اسماعيل ، ولد عام ١٢٠٣ م (٥٩٩ هـ) بدمشق ، ومن مؤلفاته في التاريخ : « كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين » ، الذي أرخ فيه لبطلين من أبطال الحروب الصليبية ، وهما نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ، وسار فيه على طريقة السنين (١) وتآلف كتابه الى حد كبير من الاقتباسات المستمدة من ابن القلانسي ، وبهاء الدين بن شداد ، وابن أبي طي ، والقاضي الفاضل ، والعماد الأصفهاني .

وهناك مرجع آخر يعتبر من أهم المراجع وهو كتاب « مفرج الكروب في اخبار بني أيوب » ، مؤلفه جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، الذي ولد مع مولد القرن السابع الهجري ، وتوفي قبيل نهايته (٦٠٤ - ٦٩٧ هـ = ١٢٠٨ م - ٩٨ م) وطنه الأصلي حماه ، ولكنه طوف في بلدان الشرق الأدنى الكبرى ، وأقام في القاهرة سنوات طويلة في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وشهد خلال مقامه في مصر حملة لويس التاسع ، واحتصار الدولة الأيوبية ، وقيام دولة المماليك ، وما عاصر ذلك من غزوات التتار للعراق والشام وسقوط بغداد ، وانتهاء الخلافة العباسية ، ثم انتقالها الى القاهرة؛ ثم اتصل بالسلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) ، وأرسل سفيراً عنه الى منفرد بن فردريك الثاني ملك الصقليتين وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة (٢) .

(١) أحمد بدوي : الحياة العقلية ، ص ٢٧٥ - ص ٢٧٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، ج ١ ، ص ٤ .

على أنه لا يمكن التحدث عن مصادر البحث دون ذكر أسم القلقشندي ،
المتوفى سنة ١٤١٨ م (٨٢١ هـ) . فلا ريب أن كتابه «صبح الأعشى في
صناعة الانشا» ، يعتبر أكبر موسوعة ضمت بين دفتيها الكثير من النظم
الحضارية التي تهم باحث التاريخ في العصور الوسطى . وقد أفادنا هذا
الكتاب في بحث موضوع القبائل العربية ، والطوائف الدينية الإسلامية
ببلاد الشام .

هذا فضلا عن عدد آخر من المراجع العربية الحديثة التي ذكرناها في
قائمة المصادر والمراجع في نهاية الكتاب .

أما عن المصادر والمراجع الأجنبية التي اعتمدت عليها فهي كثيرة ، من
بينها كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس .
Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum.
وهو مؤلف مجهول ، تناول أحداث الحملة الصليبية الأولى حتى سقوط بيت
المقدس في أيدي الصليبيين عام ١٠٩٩ م .

أما وليم الصوري صاحب كتاب
William of Tyre : A history of Deeds done beyond the sea.
فهو المع المؤرخين الصليبيين قاطبة ، ولد في بيت المقدس قبيل عام ١١٣٠ م
وتعلم العربية واليونانية ، واتصل عام ١١٦٢ م بالملك عموري الأول ، ثم
تعين عام ١١٦٧ م كبيرا لشمامسة صور ، والمتتبع لكتابات وليم التاريخية
يجد أنه امتلك أعظم صفتين لكتابة التاريخ في عصره : المعرفة الشخصية
بأصحاب الحوادث بحكم منصبه الرسمي العالي ، وإيمانه الشديد بالحقيقة ،
وبوصفه كان دبلوماسيا ، واسقفا ، ومؤدبا ملكيا ، ورئيسا لديوان انشاء
مملكة بيت المقدس .

ومن المصادر التي أفدت منها مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية
Receuil des Historiens des Croisades (Historiens Occidentaux)

ومن المصادر التي اعانتي في كتابة هذا الكتاب ، كتاب «رحلة ماركوبولو» ،
Marco Polo : Travels وماركوبولو أول الأوروبيين الذين توغلوا في
الصين ، ومؤلفه الذي قص فيه أخبار رحلته التي استغرقت أربعة وعشرين
عاما (١٢٧١ - ١٢٩٥ م) عبر آسيا كلها . وكانت له عناية بما يشاهد
وروح قوية للملاحظة ، لايفوتها تفصيل ما . وقد أفدت من كتاب ماركوبولو

عند الحديث عن طائفة الاسماعيلية ، التي لعبت دورا رئيسيا في احداث الشام ابان الحروب الصليبية .

ومن بين الكتب التي اعتمدت عليها عند الحديث عن النشاط الاقتصادي ببلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كتاب :

Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen age. 2 Vols.

وهو يقع في جزئين ، ويعالج تاريخ التجارة في العصور الوسطى ، وتعرض للتاريخ التجاري لبلاد الشام على عصر الحروب الصليبية . ويعتبر هذا الكتاب مرجعا كبيرا ، يمتاز بحسن عرضه ، ولا غنى عنه لمباحث يتناول دراسة النشاط الاقتصادي في العصور الوسطى .

ومن الكتب الأجنبية التي استفدت منها :

King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, Camb 1932.

وقد تناول هذا الكتاب نشأة طائفة الاسبتارية ونظمها والدور الذي لعبته في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية ، هذا بالاضافة الى أنه تناول احداث الطائفة الشهيرة الاخرى ، وهي الداوية ، التي كانت المنافسة الخطيرة للاسبتارية .

وثمة مراجع أخرى تناولت كافة احداث الحروب الصليبية ببلاد الشام ، فضلا عن الأنظمة الحضرية التي وجدت مواكبة لتلك الحروب . واخص بالذكر منها :

Chalandon : Histoire de la Première Croisade.

ومن المراجع القيمة التي تناولت النظام الاقطاعي في مملكة بيت المقدس كتاب :

La Monte : Feudal Monarchy in the Latin Kingdom.

وعند دراستي للفنون الحربية في الفصل الرابع اعتمدت على عدة كتب منها :

Oman : A History of the Art of War in the Middle Ages.

(2 Vols.)

وثمة كتاب آخر تناول دراسة القلاع الصليبية ببلاد الشام ، افدت منه ايضا وهو :

Fedden : Crusader Castles.

ومن الكتب التي تناولت النشاط الاقتصادي والاجتماعي في العصور
الوسطى كتاب :
Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages.
(2 Vols.)

وهو من المراجع التي خدمت البحث ، اذ تناول مؤلفه طومسون فترة
الحروب الصليبية ببلاد الشام .

وبعد ، فان هذه أهم مصادر ومراجع الكتاب وليست كلها ، وبصرف
الغظر عما اذا كان هذا الكتاب قد أتيت فيه بالجديد من المادة العلمية ، فانه
على قدر طاقتي محاولة متواضعة .

ولا يسعني سوى تقديم خالص شكرى وامتنانى لاستاذى الجليل
الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، لما أمدنى به من توجيه ونصح وإرشاد .

والله ولي التوفيق . ،،،

القاهرة في يوليو ١٩٧٩ م

المؤلف

أولا - العناصر السكانية :

حفلت بلاد الشام خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر بعناصر سكانية عديدة متباينة قلما نجد لها في بلد آخر ، وذلك بسبب موقعها من ناحية وأهميتها الدينية من ناحية ثانية ، فضلا عن الظروف التاريخية التي مرت بها تلك البلاد في ذلك الدور من ناحية ثالثة . ولعلنا لانغالي اذا قلنا ان تلك البلاد عاش فيها مزيج متباين من الاجناس ، مكونا بذلك مجتمعين أساسيين هما : المجتمع الاسلامي والمجتمع المسيحي (١) . ومما لاشك فيه أن المجتمع الاسلامي في الشام كان يمثل السمة الغالبة على العناصر الوطنية صاحبة البلاد الأصلية ، فالبعض منه يرجع الى أصل عربي خالص ، والبعض الآخر انحدر من أصول غير عربية دانت بالاسلام منذ أمد بعيد .

والواقع ان هجرة القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية الى بلاد الشام لم تتوقف عبر العصور القديمة ، وذلك لأسباب عديدة ، منها مزاولة النشاط التجاري ، ومنها الجفاف المتزايد لشبه الجزيرة بين عصر وآخر . وأخيرا ما كان يحدث من حروب بين مختلف قبائل شبه الجزيرة ، الأمر الذي دفع بعضها الى الهجرة الى بلاد الشام في شكل موجات بشرية (٢) . ومن المعروف أن بلاد الشام ما هي الا امتداد لشبه الجزيرة العربية من ناحية الشمال ، ومن ثم حدثت هجرات للقبائل العربية نتيجة انتظام الفصول الاربعة . فالقبائل كانت تقضى فصل الشتاء في الجزيرة العربية لاسيما في نجد ، وفي فصل الربيع كانت القبائل تتحرك الى الشمال بحثا عن المراعى . وفي تقدمها تصل الى حدود الاقاليم المتحضرة مثل الشام (٣) . ومع موجة الفتوحات العربية في صدر الاسلام ، اندفعت القبائل العربية وبطونها الى الشام ، حاملة معها الدماء العربية واللغة العربية والدين الإسلامي الى تلك البلاد .

وقد انقسم العرب في بلاد الشام الى حضر وبدو ، والحضر هم أهالي

Rapport : Histoire de la Palestine. p. 87. (١)

François Nau : Les Arabes Chrétiens. pp. 7--10. (٢)

Nau : op. cit. pp. 31--32. (٣)

المدن والقرى الشامية ، واشتغلوا بالنشاط الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة . ومن أهم القبائل العربية التي استقرت في بلاد الشام ، ويهمنها ذكرها خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر :

١ - بنو كلاب :

رحل عدد كبير من تلك القبيلة الى الشام زمن الفتوحات الاسلامية ، وربما قبل ذلك ، ثم تدفقت اعداد منهم الى الشام ببداية عهد الخلافة العباسية ، الى أن كان تحركهم الكبير من ارض نجد في أوائل القرن الرابع الهجري ، حيث شاركوا في أحداث الشام (١) ، حتى نجحوا في إقامة إمارة لهم في حلب ، بزعامة صالح بن مرداس أمير بنى كلاب عام ٤١٤ هـ ، الذي استطاع انتزاعها من أيدي حكامها الفاطميين (٢) . ومن حسن حظ بنى مرداس ، ان صادفت جهودهم في حلب فترة ركود مرت بها الامبراطورية البيزنطية ، بعد وفاة امبراطورها الشهير باسيل الثاني عام ١٠٢٥ م وولاية سلسلة من الباطرة الضعاف ، لم تمتد همتهم لسيطرتهم شمال الشام (٣) . وعلى الرغم من أن امراء بنى مرداس ، بذلوا جهدا كبيرا من أجل الحفاظ على نفوذهم في حلب ، فانهم عجزوا ، لأنهم كانوا مهددين من ناحية الفاطميين ، كما كان لضعفهم اثر كبير في عدم استقرار الامور في ولايتهم ، وعلى الاخص منذ بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، وقد عجلت هذه الحالة بزوال حكم المرداسيين في حلب بعد أن ظلوا يحكمونها ما يقرب من سنتين عاما (٤) . هذا ولم يتيسر للفاطميين القضاء على سلطة بنى مرداس على الرغم من محاولاتهم المتكررة . وفي أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) تعرضت حلب لهجوم السلاجقة وبعض امراء العرب ، فسار اليها مسلم بن قريش بن بدران العقيلي صاحب الموصل ،

(١) بيشوف : تاريخ حلب ، ص ٢٧ - ص ٢٨ ،

محمد الشيخ : الامارات العربية في الشام ، ص ٨ .

(٢) المقرئ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ١ ، ص ٣٥٤ ،

ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ،

جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في الشام ، ص ٥٥ .

(٣) Gibb: The Caliphate and the Arab States. p. 91. (٣)

(٤) جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٥٧ .

واستولى عليها من المرداسيين عام ١٠٧٩ م (٤٧٣ هـ) ثم أرسل الى ملك شاه سلطان السلاجقة ليقره عليها ، فأجاب السلطان طلبه ، وبذلك قضى على المرداسيين (١) . ومما عرف عن المرداسيين أنهم يتكلمون التركية ، ويركبون الأكاديش ، وهم رجال حروب . من أشد القبائل العربية بأسا ، ولو انقادوا لأمير واحد لم يبق لاحد من العرب بهم طاقة (٢) .

٢ - بنو طيء :

أضحت القبائل العربية ابتداء من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) سادة الموقف ببلاد الشام ، واستمرت صاحبة النفوذ حتى قيام الدولة الفاطمية فى مصر ؛ ومن مصر انطلقت الدولة الفاطمية لتتبع أقدامها فى الشام ، فاصطدمت بالقبائل العربية هناك . وفى القرن الرابع الهجرى حدث تغيير فى أماكن استقرار القبائل العربية . منها انتقال بنو طيء المقيمين فى حمص الى فلسطين جنوب الشام . فى الاقليم الواقع شرق نهر الاردن والاطراف الغربية لصحراء الشام (٢) .

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى ، حاول بنو طيء تكوين دولة فى فلسطين مستقلة عن الخلافة الفاطمية ، فثار زعيمهم ممرج بن دغفل بن الجراح بالرملة عام ٩٩٨ م (٣٨٨ هـ) ، ولكن الفاطميين اخضعوا تورته وغنوا عنه . وفى عام ١٠٠٩ م (٤٠٠ هـ) زحف حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح الى الرملة . واستولى عليها بعد أن قتل واليها من قبل الفاطميين (٤) . غير أن الفاطميين لم يتوانوا عن قتال بنى الجراح ، فأرسلوا جيشا عام ١٠١٣ م (٤٠٤ هـ) استطاع ايقاع الهزيمة بالطائيين . ومنذ ذلك الوقت ، ضعف شأن بنى الجراح ، وتمكن الفاطميون من استرداد سيطرتهم على البقاع الجنوبية من الشام (٥) .

(١) المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ ، ج ٤ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢

(٣) Lammens : La Syrie Précis Historique, Vol. II

PP. 9—16 and Gibb : op. cit. P. 89

(٤) جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٤٦ - ص ٤٧ .

(٥) نفس المرجع السابق والصفحة

ومن طيء انحدر آل ربيعة ، وهم بنو ربيعة بن حازم بن علي بن منرج ابن دغفل بن الجراح . وكان ظهور ربيعة في عهد الاتابك عماد الدين زنكي (١١٢٧ - ١١٤٦ م) صاحب الموصل ، وصارت له الزعامة على عرب الشام في عهد طغتكين السلجوقي صاحب دمشق . ووفد على السلطان نور الدين محمود فأكرمه وشاد بذكره (١) . وفي أيام الدولة الأيوبية ، ثم من بعدها دولة المماليك البحرية ، حاز البعض من آل ربيعة على مكانة وأبهة ، وصار لهم عند السلاطين «حرمة كبيرة وصيت عظيم» (٢) . وقد انقسم آل ربيعة الى ثلاثة افخاذ ، لكل منها امير يتزعمها ، والفخذ الأول (آل فضل) وديارهم ممتدة من حمص الى قلعة جعبر والرحبة في جانب الفرات ؛ والفخذ الثاني من آل ربيعة (آل مرا) ومنازلهم حرران ؛ أما الفخذ الثالث من آل ربيعة (آل علي) وديارهم غوطة دمشق (٣) .

٣ - بنو كلب :

يرجع نسب تلك القبيلة الى كلب بن وبرة بن ثعلبة بن حلوان بن عمران ابن الحافي بن قضاعة ، وكانوا قبل الاسلام ينزلون دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام (٤) . وقبيلة كلب من القبائل التي أدت الى اضطراب الأوضاع السياسية بالشام في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، بغرض تحقيق استقلال ذاتي لها . فاستقرت في وسط الشام (٥) . وتحقيقا لهذه الغاية ، دخلت في الحلف الذي دعى صالح بن مرداس امير بني كلاب لعنه عام ١٠٢٤ م (٤١٥ هـ) ، كي ينفذ زعماء القبائل العربية جميعا لاجراج الفاطميين من بلاد الشام ، وتقسيمها بينهم ، على أن يكون من حلب الى عانة على نهر الفرات (شمال الشام) لصالح بن مرداس ، ومن الرملة

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ ،

الخالدي : المقصد الرفيع المنشأ ، ورقة ١٥٥ ب

(٢) الخالدي : المقصد الرفيع ، ورقة ١٥٦ أ .

(٣) الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ - ٢١٠ ،

ابن خلدون : تاريخه ، القسم الرابع ، ص ٩٢٦ - ص ٩٢٩ .

(٤) الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

(٥) Gibb : op. cit. Vol. 1 P. 87

عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ، ص ٦٠ - ص ٦١ .

ألى حدود مصر (جنوب الشام) لحسان بن مفرج بن الجراح أمير الطائيين ،
ودمشق وما يحيط بها (وسط الشام) لحسان بن عليان أمير الكلبيين (١)
ولما رأى الفاطميون الخطر الذي يهدد نفوذهم من جراء ذلك الاتفاق ، جهزوا
جيشاً عام ٤٢٠ هـ ، لمحاربة هذه القوى المتحالفة ، وقد تمكن من الحاق
الهزيمة بها عند طبرية ، وبذلك استرد الفاطميون البقاع الجنوبية والوسطى
من بلاد الشام (٢) .

٤ - بنو عمار :

حدث قبل أن تفقد الإمارة المرداسية استقلالها بنحو عشر سنوات ،
أن شهدت بلاد الشام قيام إمارة عربية ، أسسها أمين الدولة أبو طالب بن
عمار عام ١٠٧٠ م (٤٦٢ هـ) في مدينة طرابلس منسلخاً بها عن طاعة الخلافة
الفاطمية (١) . وكانت دارابلس قد دخلت في أيدي الفاطميين ابتداء من سنة
٩٧١ م (٣٦٠ هـ) ، اذ تذكر المصادر صراحة أن كان يليها من قبلهم ريان
الخادم (٢) . واناعة دارابلس ، استطاعت أن تسلم من الغزوات البيزنطية
ابتداء من الأربع الأخير من القرن العاشر الميلادي ، كما نجت من هجوم
السلجقة ، لتحتفظ باستقلالها (٣) . وعندما طرق الصليبيون بلاد الشام في
أواخر القرن الحادي عشر ، وتداعت أمامهم قوات الأتراك السلجقة ، فرحت
الأسرات العربية بشمال الشام ، وأظهرت الاستعداد لعدة اتفاقات مع
الصليبيين ، وهن بين تلك الأسر كانت أسر بني عمار في طرابلس ؛ والواقع
أن الصليبيين رحبوا بصداقة بني عمار لما لذلك من بالغ الأهمية ، اذا وضعنا
في الحسبان ضرورة زحف الجيش الصليبي جنوباً (٤) . على أن دارابلس

(١) جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٤٧ ،

الباز العريضي : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص ١٥ .

(٢) جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٤٧ - ص ٤٨ .

(٣) محمد الشيخ : نفس المرجع ، ص ١١٤ .

(٤) ابن الفرات : تاريخه ، ج ٨ ، ص ٧٧ ،

ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٠ .

(٥) محمد الشيخ : المرجع السابق ، ص ١١٦ - ص ١١٧ .

(٦) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « ابن عمار » .

تعرضت للهجوم الصليبي عام ١١٠٩ م . الذي اسنطاع ان يفتح ابوابها ، ويعيث فيها فسادا ونهباً .

٥ - بنو منقذ :

قامت بنيزر اماره عربية عام ١٠٨١ م . انشأها على بن منقذ ، الذي انتصر في المدينة وقلعتها في تلك السنة (١) . وقد ظلت بنيزر محنفة باستقلالها ، وسط الانكسار السلجوقي ، لاسيما بعد وفاة ملكشاه عام ١٠٩٢ م . وحدث النزاع بين ورثته ، اذ قام النزاع بين اخيه تنش وابنه باركياروق ، وبعد انهزام تنش اقتسم ولداه سوريا ، فاخذ رضوان حلب واخذ دقاق دمشق (٢) . وعندما اتى الصليبيون الى الشام ، كان من الطبيعي ان يرسم بنو منقذ لأنفسهم سياسة تمكنهم من الاحتفاظ بنفوذهم في المدينة والقلعة . ولهذا وقفوا موقف الحياد من الجيوش الصليبية الزاحفة . وقد رحب الصليبيون بحياض بنو منقذ كي يحلمنوا الى سلامة الجيوش الزاحفة جنوبا (٣) . وطالما تردد ذكر امراء بنيزر في احداث شمال الشام ، حتى انقرضت الاسرة بعد تدمير بنيزر بسبب الزلزال الذي حدث عام ١١٥٧ م (٤) . ومن هذه الاسرة ، أسامة بن منقذ مؤلف كتاب « الاعتبار » الذي وصف فيه الحياة الاجتماعية بالشام ، في فترة من فترات الحروب الصليبية .

٦ - التنوخيون :

يرجع نسب التنوخيين الى أصل قحطاني ، ونزلوا قبل الاسلام في شمالي الشام ، وقد سمو تنوخيين لأنهم حلفوا على المقام بالشام ، فالتنوخ والتنوخ المقام (٥) . ويرى لامنس (٦) ان تبائل نفوخ وبنو حمزة وبنو بحتر ، انتشرت في ابناء الوسطى ، تادمة من شمال سوريا ، في فترة من

(١) الباز العريني : المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « بنيزر »

(٣) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٧٧ .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « بنيزر »

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢١٨ ،

محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٦١ ، ص ٦٢ .

La Syrie Précis Historique, Vol. II P. 9

المستحيل تحددتها تاريخيا ، ولكنها على أية حال قبل مجيء الفرنجة الى الشام .

وفي عهد الدولة النورية ، تقرب كرامة بن بحتر بن علي بن ابراهيم التنوخي من السلطان نور الدين محمود ، فأقطعه عام ١١٦٠ م (٥٥٦ هـ) الغرب وما يتبعه من قرى ، فسمى لذلك امير الغرب (١) . وببدو ان ازدياد قوة المسلمين باستيلاء نور الدين محمود على دمشق عام ١١٥٤ م ، جعل كرامة بن بحتر يترك الفرنجة وينضم الى نور الدين . وتلى ذلك ان بعد الامير كرامة عن حياة البداوة ، وفضل الاستقرار بدلا من التنقل والترحال ، وبنى له حصنا بسمر حمور (٢) . وسمى قرية قريبة من عرامون . كما اقطع صلاح الدين الايوبي ايام فتح بيروت سنة ١١٨٧م (٥٨٣ هـ) املاك كرامة ابن بسندر . لابنه حنبى مكافاة له من اجل خدمته ومناقصته للفرنجة (٣) . وافر الافضل بن صلاح الدين امراء الغرب على ما يديهم ، نظرا لحاجته الى عونهم في صراعه ضد اخيه العزيز عنمان ، اذ رد عام ١١٩٦م على نكتاب ورد اليه من حجبى (جمال الدين حجبى بن كرامة) الداخل في طاعته ، وحثه في هذا الرد على الجهاد . ووافق في النهاية على اقطاعه الغرب جميعه (٤) . وبعد غزوة هولاء قائد جيش التتار لبلاد الشام ، توجه جمال الدين حجبى الى دمشق ، حيث يقيم نكتابا نائب هولاء في الشام ، فاجتمع به ، وأظهر الطاعة للتتار . فكتبوا له منشورا عام ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) باقراره على ما بيده من اقطاعات (٥) . ويتضح من هذا ان امراء الغرب كانوا مع من غلب ، فقد ظلوا يتأرجحون بين الولاء للصليبيين حيناً والمسلمين احيانا ، كما تأرجحوا بين الولاء للمماليك من ناحية وخصوم المماليك من ايوبيين وتتار من ناحية أخرى : وبمعنى آخر لافرق عندهم بين مسلم أو صليبي أو مغولي (٦) .

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٠ ،

صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٤٨ .

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٠ .

(٣) حورج بنى : تاريخ سوريا ، ص ٤٣٨ ،

ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ، ص ٤٠ ، ص ٣٨٦ .

(٤) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٥٢ .

(٥) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٥٦ - ص ٥٧ .

(٦) سعيد باشور : العهد المملوكى ، ص ٢٠٩ .

ولهم منشور من صاحب صيدا الفرنجي Arnaud de Sagette عام ١٢٥٥ م (٦٥٤ هـ) ، يستفاد منه ومن غيره حسن العلاقات التي كانت قائمة بين الصليبيين المستقرين بالساحل والامراء البحتريين المسلمين أصحاب جبال لبنان المشرفة على تلك السواحل (١) . ويبدو أن الظاهر بيبرس غضب عليهم بسبب تغلبهم ، فاعتقل بعض زعمائهم في مصر ، ورفض ان يطلق سراحهم الا بعد الانتهاء من حروبه ، وبالفعل ما ان تم له فتح انطاكية حتى أطلق سراحهم . وبالرغم من ذلك ظل بيبرس يتشكك في ولاء البحتريين ، حتى أرسل ضدهم حملة قوية اجتاحت بلادهم وعاقبتهم في عنف ، وبعد بيبرس لجأ السلطان قلاوون الى اضطهاد البحتريين . فصادر اقطاعاتهم ووزعها على حماية طرابلس من المماليك ؛ وسرعان ما أدرك البحتريون عاقبة تنادهم ، فبادروا الى الولاء لدولة المماليك ، وعندئذ ردت اليهم اقطاعاتهم على عهد الأتشراف خليل بن قلاوون عام ١٢٩١ م (٢) . ومما يدل على ولائهم ايضا ، انه عندما فتحت بيروت سنة ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) على يد السلطان الأتشراف خليل ، كان امراء الغرب أول من دخلها (٣) . ومن المعروف أن أمراء الغرب من بني تنوخ تولوا أعمال الدرك بلبنان ، فضلا عن التجسس على أخبار العدو (٤) .

وثمة فريق آخر من التنوخيين ، هم الأرسلاونيون ، ومركزهم قرب بيروت ، وكانوا موالين لدولة المماليك ، واشتهروا بمواقفهم ضد التتار والصليبيين . ففي حروب التتار - وخاصة في موقعة عين جالوت في سبتمبر ١٢٦٠ م - كان الأمير زين الدين صالح الأرسلاوني يقود رجاله بجانب المماليك حتى تم لهم النصر (٥) .

٧ - الشهابيون :

عندما دبت الوحشة بين صلاح الدين الأيوبي ونور الدين محمود ،

-
- (١) لريس شيخو : بيروت تاريخها وأثارها ، ص ٦٠ - ص ٦١ .
 - (٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٢٠٩ .
 - (٣) لريس شيخو : المرجع السابق ، ص ٧١ .
 - (٤) ابراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ١٩٨ .
 - (٥) سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٢١٠ .
 - محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ٢٥ .

جهاز الأخير الجيوش في حوران للتوجه بها الى مصر والفضاء، على صلاح الدين ؛ فما كان من الامير منقذ الشهابي الا ان جمع الشهابيين ، ورحل بهم من حوران الى وادي التيم عام ١١٧٢ م (٥٦٨ هـ) ، حتى لايتدخلوا في اى نزاع يشب بين الطرفين ، « لما لهم عند السلطان صلاح الدين من المحبة وانزلة الرفيعة (١) » . ويبدو أن صلاح الدين كان قد اتصل بالشهابيين ، واستمالهم اليه ، وطلب منهم اعاقبة ارسال الحملة اذا فكر نور الدين في توجيهها الى مصر ، فلما رأوا أنهم لا قبل لهم بنور الدين ، رأوا من الاصول شد الرحال الى وادي التيم ارضاء لصلاح الدين . ولما سمع نور الدين بما ازمع عليه الشهابيون ، استفسر عن الأسباب التي ادت بهم الى ذلك ، فتعللوا بان بلادهم أضحت خرابا . وعلى أية حال ، فانهم نزلوا بوادي التيم في خمسة عشر ألفا ، ولما احس الصليبيون بهم أرسل لهم صاحب قلعة الشقيف جيشا ضخما التقى بهم في حاصبيا ، بيد انهم انزلوا به هزيمة منكرة ، الامر الذي جعلهم يثبتون أقدامهم في وادي التيم (٢) . وقد اشترك الشهابيون بنجاح في قتال الصليبيين ثم التتار ، وبخاصة اثناء اغاراتهم على بلاد الشام في عهد السلطان المنصور قلاوون عام ١٢٨١ م . وقد حال الشهابيون بنى معن وأصهروا اليهم (٣) .

٨ - المعنيون :

يرجع المعنيون في اصلهم الى الامير معن ، الذى ظهر في لبنان على عهد الخليفة العباسي المسترشد (١١١٨ - ١١٣٥ م) ، وتوفي عام ١١٤٩ م في عهد السلطان نور الدين محمود (٤) . وفي عام ١١٢٠ م (٥١٤ هـ) جمع الامير معن أهله وعشيرته ، مغادرا سهل البقاع في لبنان ، ونزل بهم في جبل الشوف ، في الجزء الجنوبي من غرب لبنان ، المطل على السهل الساحلى

(١) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ص ٤٠ - ص ٤١ .

محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ١٣ .

(٢) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٤١ .

(٣) سعيد عاشور : العصر المملوكى ، ص ٢١٠ .

(٤) Hitti : The Origins of the Druze People. p. 5

بين بيروت وصيدا ، وكان ذلك الجبل خاليا من السكان ؛ واتصل الامير
معن بالامير بحتر التنوخي أمير الغرب اذ ذلك ، وتقرب اليه في مودة (١) .
وبدلا من حياة التنقل والترحال ، أثر المعنيون حياة الاستقرار ، مما جعل
الامير معن يبني المنازل والديار ؛ وقد حارب المعنيون الى جانب المسلمين
ضد الصليبيين ، كما كانوا الملجأ الامين لكل من فر أمام الفرنجة (٢) .
وعندما وفد الشهابيون الى وادي التيم عام ١١٧٢ م (٥٦٨ هـ) ، جاء
اليهم الهمير يونس بن معن مهنثا اياهم (٢) . وقد حالف المعنيون اقرباءهم
التنوخيون في الغرب والشهابيون في وادي التيم .

والى جانب تلك القبائل الهامة ، سكنت قبائل عربية أخرى عديدة في
أنحاء متفرقة من بلاد الشام ، ترجع في أصولها الى القحطانيين والعذنانيين .
ومن القبائل القحطانية التي نزحت الى الشام : جرم وهم بنو ثعلبة بن
عمرو بن الغوث من طيء ومنازلهم بلاد غزة والداروم (٤) ؛ وجذام التي تفرع
منها بنو صخر بالكرك ، وبنو مهدي بالبلقاء ، وبنو عقبة وبنو زهير بالشوبك
وبنو سعيد بصرخد وهوران (٥) ، وزبيد التي استقرت في صرخد ودمشق
وهوران (٦) . ومن القبائل العذنانية التي سكنت الشام : بنو خالد في
حمص الذين يدعون النسب الى خالد بن الوليد ، على الرغم من اجماع
النسابة على انقراض عقبه (٧) ؛ وجماعة من ولد جعفر بن أبي طالب بوادي
بنى زيد وبصرخد (٨) .

هذا عن الحضر ، أما البدو فقد عاشوا حياة التنقل والترحال ، ففي

Hitti : op. cit. PP. 5—6

(١)

(٢) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .

(٣) محمد كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ٤١ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .

(٥) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٣٤ ،

الخالدي : المقصد الرفيع المنشأ ، ورقة ١٥٦ ب .

(٦) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٣ — ص ٢١٤ .

(٧) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٤ .

الخالدي : المقصد الرفيع ، ورقة ١٥٧ ١ .

(٨) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٥٩ — ص ٣٦٠ .

فصل الشتاء يتحركون ناحية الشرق ، بحثاً عن المناخ المعتدل الملائم والمرامى الوفيرة (١) . أما في الصيف فانهم يعودون مرة أخرى الى الغرب ، لاسيما جبال لبنان ، التي تزخر بالزراعة المتجولين من مكان الى آخر سعياً وراء العشب والكأ والماء (٢) . وأولئك البدو ، الفوا حياه البداوة واستمرارها ، اذ جعلتهم ممزاً عن كل سلطة . وقد حاول سلاطين المماليك ادخالهم - ببلاد الشام - في النظام الاقطاعي ، فأضفوا على زعمائهم القاب الامارة ، واقطعواهم الاقطاعات ، وخرضوا عليهم التزامات معينة أهمها الولاء للدولة ، وحراسة الطرق والدروب الصحراوية ، وتقديم الرجال وقت الحرب ، ولكنهم أنفوا من ذلك الذوع من التنظيمات التي تفقدهم الكثير من حريتهم (٣) .

فاذا تركنا جانب العنصر العربي . وجدنا ان المجتمع الاسلامي في بلاد الشام ضم عناصر اخرى عربية تركت بصماتها واصحة في تشكيل هذا المجتمع ، أهمها :

١ - الأتراك :

ترجع الهجرات الاولى لقبائل الأتراك من أقصى التركستان في خلال القرون الثاني والثالث والرابع الهجرية ، ميممة وجهها شطر الغرب ، فاستقرت في اقليم ما وراء النهر وخراسان . ولقد هاجرت القبائل التركية تحت ضغط ظروف قاهرة ، كغلبة احداها على الأخرى . او سوء الحالة الاقتصادية ، أو حدوث قحط يستحيل معه استمرار الحياة . وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، بدأ الأتراك ولا سيما السلاجقة يستقرون في بلاد ما وراء النهر ، ومن المعروف أن سمات البداوة قد غلبت عليهم ، فمالوا الى التنقل والارتحال طلباً للرزق ، وسعياً وراء مواطن العشب والكأ ، فكانت جنور الحياة القبلية راسخة في أعماق نفوسهم ، مما اثر في دولتهم ، وفي حاضرهم ومستقبلهم نائيراً بالغاً (٤) . أثرت البداوة في تعصب الأتراك الشديد للإسلام بعد اعتناقهم له ، وميلهم الشديد الى أهل السنة والجماعة

(١) Les Guides Bleus sous la direction de Marcel.

Monarchie p. xxxix.

Loc. cit.

(٢) Robin Fedden : The journal of a voyage. p. 1-6

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٢٠٥ - ص ٢٠٦ .

(٤) عبد المنعم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ١٦ - ص ١٧ .

بعد اتباعهم المذهب السنّي (١) . ومن المؤكد أن قيام دولة الأتراك السلاجقة عام ١٠٣٧ م (٤٢٩ هـ) ، واعتراف الخليفة العباسي بها ، يعتبر حدثاً جديداً في تاريخ إيران والعالم الإسلامي ، لأن تلك الدولة سرعان ما لعبت دوراً رئيسياً في أحداث الدولة الإسلامية ، ولم تلبث أن سيطرت على جانب كبير من ممتلكات الدولة البيزنطية والمناطق المجاورة لإيران (٢) . ويعتبر « باغرل » الذي توفي عام ١٠٦٣ م (٤٥٥ هـ) المؤسس الحقيقي لدولة الأتراك السلاجقة في إيران والعراق ، فهو الذي أظهرها ، وجعل السلاجقة من بعده يشرفون على بلاد الروم (٣) . وسواحل البحر المتوسط . وفي الشام ألف الترك الأرستقراطية الاقطاعية ، وهي فئة قليلة العدد متناثرة ، لم تتغلب على الشام الا قبل مجيء الصليبيين بوقت قصير (٤) . ويمكن القول ان الأتراك في الشام لم يكونوا كتلة واحدة ووسطاً واحداً ، فنزلهم في جزء صغير من شمال الشام ، جعل من مدينة حلب حداً بين البلاد العربية والتركبة اذ في شمال تلك المدينة يقطن المتكلمون باللغة العربية ، وتصير البلاد الى التركية أقرب (٥) . وخدم الأتراك في جيش صلاح الدين ضد الصليبيين ، وكان يفضل عنصرهم - عم والتركمان والأكرد - ، لما اعتادوا من عيشة التقشف والخشونة ، والقدرة على احتمال الأسفار والقتال (٦) .

٢ - التركمان :

التركمان اصلهم قبيلة من الأتراك عاشوا في المنطقة بين بحر الخزر ونهر جيحون ، ثم انتقلت جموع منهم غرباً ليستقروا شرقى آسيا في قونيه وقيصرية وسافوستا Savosta ، بالإضافة الى شمالي بلاد الشام (٧) . وهم من العناصر البعيدة عن السامية التي كونت اقلية ضئيلة وسط اغلبية من العرب في شمال الشام (٨) . وقد تعددت الآراء الخاصة حول تفسير معنى

(١) عبد المنعم حسنين : المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٢) عبد المنعم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ، ص ٢٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٤ - ص ٤٥ .

(٤) Miller : Essays on the Latin orient. P. 527

(٥) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٨٢ .

(٦) نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين . ص ٢٨ -

ص ٣٠ ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « الأتراك » .

(٧) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « الأتراك » .

Marco Polo : The Travels, P. 20

Les Guides Bleus, P. XLI

(٨)

لفظ « تركمان » غير أنه بانتشار الاسلام بين كافة العناصر التركية وخاصة منذ القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) ، تغير مفهوم لفظ « تركمان » فصار يطلق على جميع الأتراك الذين أسلموا كلمة «ترك» ، أما « تركمان » فقد أطلق على أولئك المستغلين بالرعى من ناحية ، والذين عاشوا عيشة بدوية من ناحية أخرى . ولكن ليس معنى ذلك أن التركمان انعزلوا انعزالا تاما عن حياة المدن والمشاركة فى أحداثها ، إذ استطاعوا تكوين دويلات صغيرة فى أنحاء الشرق الأدنى (١) .

وقد ظهر التركمان لأول مرة فى الشام فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وفى القرن الذى تلاه اضعوا قوة ، وازداد نفوذهم . ولهذا رأى عماد الدين زنكى الاستفادة منهم ، فقد نقل طائفة منهم تسمى التركمان الايوانية الى بلاد الشام ، واسكنهم حلب ، وكلفهم بمحاربة الفرنجة ، على أن يكون لهم الحق فى الاستيلاء على كل أرض ، يستطيعوا انتزاعها من الفرنجة ؛ وبذلك نشروا السلام فى شمال الشام . وقد سار نور الدين محمود على سياسة أبيه ، فحرص على انزالهم منطقة الحدود بين املاكه وأملاك الصليبيين ، مما أدى الى اتساع الجهات التى نزلوا بها ، وكونوا اكثرية فيها . وفرارا من وجه التتار ، فرت أعداد كبيرة من التركمان من وسط آسيا الى الاناضول ، وهبط جانب كبير منهم فى ديار بكر ، كما استقدم البعض منهم الى الشام . أما فى القرن الثالث عشر ، وعلى عهد سلطنة المماليك ، انخرط التركمان فى جيوش الشام ، ووصل عددهم عام ١٢٧٦ م (٦٧٤ هـ) الى عشرين ألف جندي وثلاثين ألف فارس ، كانوا على أهبة الاستعداد للالتحاق بجيش السلطان الظاهر بيبرس .

ولم ينس التركمان أنهم بدو رحل ، فعاشوا عيشة البداوة ، متمسكين ببعض عاداتهم ، فكبيرهم كان حكمه نافذا على « قاصى التركمان ودانيهم ، وكلمته لاتخالف » (٢) . كما أدى تحمسهم البالغ لامذهب السنى . الى كرههم

(١) حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ١٠١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٣٦ هـ

الشديد للمذهب الشيعي ، وبغضهم للشيعة ، وعزفوا عن الفلسفة أو الجدل في أمور الدين (١) ويكاد التركمان يختصون بأعمال الدرك ، فبنو عساف التركمان . مكلفون بالدرك من حدود أنطلياس على نهر الكلب الى مغارة الأسد بالشام . فلم يسمحوا بعبور نهر الكلب الا لمن يحمل « ورقة جواز » من الوالي في تلك الجهات أو من امراء الغرب من بنى تنوخ (٢) .

٣ - الأكراد :

سكن الأكراد منذ القدم - ابتداء من عام ٦٥٠ ق م - جبال ووهاد كردستان ، وعم من الشعوب الهندوأوروبية (٣) . والواقع أن المؤرخين اختلفوا في أصل الكلمة ، فمنهم من ذكر أنهم من ربعة بن نزار بن معد بن عدنان (٤) ومنهم من ذكر أنهم من قبائل العجم ؛ كما زعم الأكراد المروانية أنهم من نسل مروان بن الحكم ؛ وزعم بعض الأكراد الهكارية أنهم من ولد عتبة بن أبي سفيان بن حرب (٥) . وكل ذلك محاولات من الأكراد للاتصال بالنسب العربي الصريح .

والاكراد قوم أنداء ، غالبهم أهل بادية وخشونة ، يقيمون في الخيام ، وهم أقل قبولا للحضارة من الترك ، ومقامهم في الغالب في كردستان وأرمينيا وإعلى العراق كالموصل وديار بكر (٦) . وعاشوا في الشام منذ القدم في شكل جماعات وأقوام رحل ، كما ان البعض منهم سكن المدن أيضا ، ولا سيما الجهات الشمالية من الشام (٧) .

-
- (١) أحمد أمين : ظهور الاسلام ، ج ١ ، ص ٦١ - ص ٦٢ .
 - (٢) ابراهيم طرخان النظم الاقطاعية ، ص ١٩٨ .
 - (٣) أمين زكي : خلاصة تاريخ الكرد ، ص ٦٠ - ص ٦٤ .
 - (٤) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .
 - (٥) المقبرزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣١ - ص ٢٣٢ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣ - ص ٤ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٨٨ - ص ٨٩ .
 - (٦) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٤ ، ص ٢٠٢ ، ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٢٧٦ .
 - (٧) أمين زكي : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

على أن الاكراد لم يكن لهم شأن يذكر في الاسلام الا على عهد الدولة الايوبية ، ومؤسسها صلاح الدين الايوبي (١) ، الذي لم يكن من أصل عربي ، ولكنه من الاكراد الروادية أحد بطون الهذليين من دوين في آخر آذربيجان (٢) وارتفع شأن الاكراد في أيام الدولة الايوبية ، وتولوا الامارات والولايات في مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان . وانتشرت عشائر كثيرة في حلب وأطرافها ، وفي حارم والمنبج ، وعلى شاطئ نهر العاصي في الجنوب الغربي لبلدة النساور ، وحمص ، وطرابلس (٣) . وكان معظم جيش صلاح الدين الايوبي مؤلفا من كثير من العشائر الكردية والامراء الاكراد الذين اشتركوا في حروبه وفتوحاته ، أمثال الاكراد الهكارية والمهرانية والحميدية والزرزارية (٤) ، مما يدل على أن صلاح الدين كان متعصبا لبنى جنسه من الاكراد دون الأتراك والعرب .

وعقب سقوط بغداد ، وانتراض الخلافة العباسية ، اضطر العديد من الاكراد للفرار من وجه المغول ، والهجرة الى بلاد الشام ومصر (٥) . وانخرط البعض منهم في جيوش المماليك في الشام (٦) .

ومن الصفات الحميدة التي تحلى بها الكرد النجاعة والنجدة (٧) ، فانهم اذا وعدوا أوفوا بعهدهم ، ومن ساركمهم طعاهم صار آمنا ، لايتعرضون له بأذى (٨) . وهم بخلاف ذلك يتعصبون لبعضهم كما يفعل العرب أحيانا ، وبهم ميل الى الغدر في بعض الأوقات (٩) . ومنهم من يعتنق الدين المسيحي على مذهب النساطرة واليعاقبة (١٠) . والاكراد تسودهم عوامل الشقاق والتفرقة ،

(١) جورجى زيدان : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤١ - ص ٤٢ ، .

ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ١٣٩ .

(٣) أمين زكى : المرجع السابق ، ص ٤٣٣ .

(٤) أمين زكى : المرجع السابق ، ص ١٥٥ - ص ١٥٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

Ziadeh W op. cit. p. 45 (٦)

(٧) الحسن بن عبد الله : آثار الاول ، ص ١٤٧ .

Larb : The Crusades, p. 37 (٨)

(٩) الحسن بن عبد الله : آثار الاول ، ص ١٤٧ .

(١٠) أمين زكى : المرجع السابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

وأسباب التخاذل والنفور ، مما أدى الى عدم توحيدهم ، ولم يستطيعوا إيجاد جبهة مشتركة للدفاع عن أنفسهم كشعب كردى واحد • ويعزو المسعودى سبب فظاظة الأكراد الى أنهم سكنوا الجبال التى يتميز سكانها بالجفاف والغلظة (١) •

ثانيا - الطوائف المذهبية :

قدر للعالم الاسلامى فى الشرق الأدنى - قبل مجىء الصليبيين - أن يظل منقسما على نفسه بين خلافتين ومذهبين متنافسين ، الخلافة العباسية السنية ببغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعية بالقاهرة • وكان هذا الوضع وما نجم عنه من تنافس حاد ، من الأسباب الرئيسية التى أدت الى إضعاف قوى المسلمين •

وكان ولابد أن يظهر ببلاد الشام صدق للنزاع السنيى بين الخلافتين العباسية والفاطمية • فبعد أن استولى الفاطميون على مصر فى القرن العاشر الميلادى ، أخذوا يوجهون أنظارهم نحو بلاد الشام ، حتى تمكنوا فى نهاية الأمر من تثبيت أقدامهم على الأجزاء الساحلية بالشام • وصحب ذلك انتشار المذهب الشيعى ، وصارت بلاد الشام : ساحة للفتن والثورات بين السنة والشيعية (٢) • وعلى الرغم من غلبة أنصار المذهب السنى فى دمشق وفلسطين، فإن أنصار المذهب الشيعى كانوا يكونون الأغلبية فى شمال الشام ، لاسيما فى حلب (٣) •

ولم يقتصر الأمر ببلاد الشام على الصراع القائم بين المذهب السنى والمذهب الشيعى ، فمن الملاحظ أن الأخير شهد انقسامات طائفية متل الاسماعيلية والدروز والنصيرية ، وكان لها التأثير البالغ فى الحياتين الاجتماعية والسياسية ببلاد الشام •

١ - الاسماعيلية :

ينتمى أتباع تلك الطائفة الى اسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى عام ٧٦٢م

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ ، ص ١٢١ •

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. IV. pp. 302—309.

(٣) Cahen : La Syrie du Nord a l'époque des Croisades.

pp. 190—191.

(١٤٥ هـ) ، وقد نجح أتباع اسماعيل هذا في إقامة الدولة الفاطمية في مصر .
على أنه حدث بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر عام ١٠٩٤ م (٤٨٧ هـ) ،
أن قام الوزير الأفضل بن بدر الجمالي باقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر ابنائه
عن العرش ، وبإيعاخ الصغير الامير أبا القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلي
بالله . وقد أدى هذا الى ظهور فريق يتشيع له بمصر ، بل دعا الى امامته بعض
أهالى فارس من الاسماعيلية ، الذين كانوا يدعون الى انتقال الامامة من جعفر
الصادق الى ابنه اسماعيل وبنيه من بعده ؛ ويرجع نشاط هذه الطائفة فى بلاد
الفرس الى العصر العباسى الأول ، منذ لجأ محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق
الى دماوند (قرب الرى) بسبب ما تعرض له العلويون من اضطهاد على يد
العباسيين (١) .

ومن أهم المبادئ التى أقام الاسماعيلية عليها مذهبهم ، ايمانهم بان لكل
عقيدة ظاهرا وباطنا (٢) ، ولكل تنزيل تاويل . وقد أدى بهم هذا الراى الى
تاويل احكام الشريعة ، فجعلوا لكل نوع من انواع العبادة باطنا ، مما جعل
الناس يطلقون عليهم اسم الباطنية .

وكان أول ظهور للباطنية او الاسماعيلية فى عهد السلطان ملكشاه
السلجوقى ، فقد اجتمع منهم ثمانية عشر صلوا صلاة العيد فى بلدة ساوة
(بين الرى وحمذان) ، ولكنهم حبسوا ثم أطلق سراحهم . ثم انهم دعوا مؤذنا
بأصبهان لاعتناق دعوتهم ، فلم يجيبهم ، فخافوا أن ينم عليهم فقتلوه ، فكان
ذلك أول دم أراقته الباطنية (٣) . ولما بلغ خبر هذا الحادث نظام الملك وزير
السلطان ملكشاه ، أمر باحضار من يتهم بقتله ، فانحصرت القهمة فى نجار
يسمى « طاهر » فقتل ومثل به فى الاسواق ، فكان أول قتل من الباطنية .
وسرعان ما انتقم الباطنية من الوزير نظام الملك وقتلوه وقالوا : « قتل
نجارا فقتلناه به » (٤) .

(١) جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١١٣ - ص ١١٦ .

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٤٩٢ هـ .

(٤) الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجون ، ص ٦٢ - ص ٦٣ .

ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٤٩٢ هـ .

ولما قتل الوزير نظام الملك ومات السلطان ملكشاه ، ازداد نموذ الباطنية . حتى استولوا على اصبهان ، ونشروا بها دعوتهم في عهد زعيمهم احمد بن عبد الملك بن عطاش . واخذوا يلحقون الأذى بمخالفهم ، وامضوا في سرفه اموالهم ونقتيلهم . وادخلوا الفرع بين الاهالي ؛ وسرعان ما استولى الباطنية على كثير من القلاع ، من بينها قلعة اصبهان التي بناها السلطان ملكشاه السلجوقي وملكوا قلعة الموت (١) في طبرستان بنواحي فزوين . وقد قيل عن هذه القلعة أن ملكا من ملوك الديلم كان يكثر من الصيد ، فأرسل يوما عقابا وتبعه . فرآه قد نزل على موضع تلك القلعة ، ووجده حصينا ، فامر ببناء قلعة عليه سماها الموت (بفتح الالف مع الهمزة وفتح اللام) (٢) ومعناها في لغة الديلم « تعليم العقاب » .

وبعد وفاة احمد بن عبد الملك بن عطاش ، حل محله تلميذه الحسن ابن الصباح الذي وصف بانه كان شهيدا عالما بالهندسة والحساب والنجوم والسحر (٢) . وسرعان ما استند بساعد الحسن بن الصباح في فارس ، وساعده على ذلك تفكك الدولة الاسلامية وضعف الخلافة العباسية من ناحية . ثم بعد فارس عن مركز الخلافة العباسية من ناحية أخرى (٤) وقد لجأ الحسن ابن الصباح في نشر دعوته الى سلاحين : الاول استمالة بعض الزعماء المحليين وامراء القلاع في بلاد فارس ، والثاني محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعه لتكون معاقل له ولأتباعه .

وقد عمل الحسن بن الصباح على تنظيم جماعته تنظيميا دقيقا ليضمن لها البقاء . وكان الفدائيون أهم مراتب ذلك التنظيم ، فهم الأداة الفعالة التي قامت بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة في الحروب الصليبية . لذلك اهتم الحسن بن الصباح بتدريبهم تدريبيا خاصا طويلا يتناول الجانب الروحي

(١) شيدت تلك القلعة على قمة سخرة شاهقة . يكاد يتعذر ارتفاعها . في تلب جبال البرز على مسيرة يومين من شمالي الشمال الشرقي لقزوين . وقد استولى عليها حسن الصباح عام ١٠٩٠ م (٤٨٣ هـ) وجعلها مقرا لطائفته .
(انظر دائرة المعارف الاسلامية) مقالة « قلعة الموت » .
(٢) ابن الوردي : تاريخه ، ص ٢٢ - ٢٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣ .
(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٥٠١ - ٥٥٢ .

والمادى ويبدأ منذ الطفولة ، فيدرب الأطفال المخارون لتلك المهمة على حياة الزهد والمخاطرة (١) .

ويذكر الرحالة البندقي ماركوبولو في القرن الثالث عشر ، أن شيخ الجبل علاء الدين ، شيد بالقرب من قلعة الموت ، في وادى بين جبلين ، اكبر واجمل حديقة تنقع عليها اللبن ، تتوافر فيها كل الفواكه الموجودة في العالم ، كما سيد اجمل القصور المزينة بالصور الجميلة ذات المنظر الجذاب . وفضلا عن ذلك صنع فنونات احداها تفيض بالنبيبذ ، والاخرى يجرى فيها اللبن ، والثالثة العسل . والرابعة الماء . وفي تلك القصور والحدائق فتيات حور عين رائعات الجمال . لهن القدرة على العزف على الآلات الموسيقية والغناء والرقص . وجعل الشيخ أتباعه يصدقون ان هذه المغريات هى الجنة (٢) . ولا بسمح بدخول تلك الحديقة الا من رتع عليه اختيار شيخ الجبل ، ليكون فدائيا . ويختار الشيخ الفتية النذوية . من الذين يتراوح سنهم ما بين الثانية عشرة والعشرين . ولهم القدرة على حمل السلاح . واعتاد الشيخ ان يجتمع بالبعض من الشباب ، ثم يامر باعطائهم جرعة مخدرة (لعلا الحشيش) توقعهم فى النوم سريعا . ثم بعد ذلك يحملون الى الحديقة ، حتى اذا افاقوا اعتقدوا انهم صاروا فى الجنة فعلا . مالفتيات الحسان تبفين مع الشباب تداعبه ، ويعزفن له . ويغنين ، ويبعتن جوا من المرح الزائد . بالاضافة الى قضاء الشباب وقتا ممتعا معهن . وهكذا كان يحصل الشباب على ماتمناه ، واذا تركت له حرية الاختيار . لا يود مغادرة الجنة . ولكنهم سرعان ما يحملوا - وهم فى غيبوبة - الى دار شيخ الجبل ، وعندما بفيهمون يسألهم عن المكان الذى اتوا منه . فيرددون انهم كانوا فى الجنة . اما الشباب الذى كان فى حضرة الشيخ ، والذين لم يروا تلك الجنة ، فبمجرد سماعهم ما ذكره الشباب ، حتى تحرقهم الرغبة للاذعاب الى تلك الجنة ، كما اتهم فى سبيل الذهاب اليها . على استعداد تام للموت ، وفى انتظار اليوم الذى يسمح لهم بذلك (٣) .

وليذا ، فعندما يرغب شيخ الجبل فى قتل شخصية كبيرة ، أو اى رجل

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٤ س ٢٧١ - ص ٢٧٢ .

(٢) Marco Polo : The Travels, PP. 49—50

(٣) Marco Polo : op. cit. PP.50—51

آخر ، فانه كان يستخدم بعض الفداوية (الحشاشين) ، ويخبرهم ان القتل هو الوسيلة الوحيدة لدخولهم الجنة ، فاذا حدث ان ماتوا اثنا، تادية مهمتهم، فسيذهبون الى الجنة على الفور . وقد نفذ الفداوية تعاليم الشيخ وهم في منتهى السعادة ، ومن ثم لايهرب من يرام التخلص منه من الموت . على أن الشيخ كان يرسل رجالا من قبله لمراقبة الفداوية الذين كلفوا بمهمة -الاغتيال ، ويخبروه بمدى شجاعة كل منهم (١) .

وحوالى الوقت الذى كان فيه الصليبيون يدخلون الشام من الشمال الغربى ، كان الباطنية يدخلونها من الشمال الشرقى . وبمعنى آخر أخذ نشاط الباطنية الهدام يمتد الى بلاد الشام منذ بداية القرن الثانى عشر . وينقسم الدور الذى قام به الاسماعيلية في عصر الحروب الصليبية الى قسمين: اولهما مقاومة المذهب السنى ، ونانيهما مقاومة الصليبيين . ولم يفرق الاسماعيلية خلال كل ذلك بين المسلمين السنيين والصليبيين والمسيحيين ، وانما اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الجميع . وفي سبيل هذه المصالح الخاصة لم يتحرج زعمائهم من محالفة الصليبيين حيناً أو مهادنة المسلمين أحياناً (٢) .

وفي حلب ضاقت الطائفة الاسماعيلية ذرعا بالأمر الذى اصدره نور الدين محمود عام ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) بابطال « حى على خير العمل » ولكنها لم تستطع القيام بعمل مضاد ، خوفاً من نور الدين (٣) . وحاولوا عدة مرات قتل صلاح الدين الأيوبي نفسه ، لولا أن الله اراد له النجاة ، ففي عام ١١٧٥م (٥٧١ هـ) وثب باطنى في زى جندى على صلاح الدين خلال حصاره لاعزاز (٤) ، فضربه بسكين فجرحه ، ثم كرر المحاولة باطنى آخر ، ولكنه قتل مما جعل صلاح الدين يركب الى خيمته كالمذعور غير مصدق بنجاته (٥) . وفي العام التالى ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) توجه صلاح الدين الى قلعة مصياف

(١) Marco Polo : op. cit. PP. 51—52

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٥٥٣ - ص ٥٥٤ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٧ .

(٤) بليدة فيها قلعة شمالى حلب (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٦ ص ١٨٨)

(٥) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٧١ هـ .

ابن كثير : البداية والنهاية ، ص ٢٩٣ .

- أعظم حصون الاسماعيلية - بغرض قتالهم ، وضيق عليهم ، ولكن سنان (١) مقدم الاسماعيلية أرسل الى شهاب الدين الحارمي صاحب حماة ، وهو خال صلاح الدين ، يسأله ان يسعى في الصلح ، فاجابه صلاح الدين الى ذلك ، ورحل عنهم (٢) .

ويبدو ان الباطنية في عدائها الشديد لأهل السنة ، تقربت الى الصليبيين بالشام ضد الايوبيين ثم المماليك ، وفي الوقت نفسه رأى الصليبيون في الباطنية قوة يمكن الاعتماد عليها في الحد من بطش سلاطين الايوبيين ثم المماليك من بعدهم . لذلك دأبت القوى الصليبية في الشام على ارسال الهدايا الى الباطنية ، انتقاء لشركهم من ناحية ، وطمعاً في محالفهم من ناحية أخرى (٢) . وبالرغم من ذلك لم يسلم الفرنجة ببلاد الشام من حركة الاغتيالات التي قام بها الباطنية . ويقال ان ريتشارد قلب الأسد هو الوحيد الذي أبقى عليه الاسماعيلية ، وذلك لانهم رغبوا في تذليل العقبات أمام منافسه صلاح الدين (٤) .

أما عن الزيارة التي قام بها هنري دى شامبيني لراشد الدين سنان زعيم الباطنية ببلاد الشام ، فقد حدث خلالها ان أشار سنان بيده لاثنيين من الباطنية على قمة برج القلعة ، وفي التو سقطا من شاهق ، ثم تمزقا الى انشلاء . ونستشف من ذلك الحدث أن سنان أراد ان يوضح لصديقه الصليبي

(١) هو راشد الدين سنان بن سليمان صاحب الدعوة الباطنية ببلاد الشام ، أصله من البصرة ، وكان في حصن الموت ، ولما أظهره من يقظة ونكاء ، ولى زعامة الباطنية في الشام ، على عهد نور الدين محمود ابتداء من عام ١١٦٢ م وشغل هذا المنصب مدة ثلاثين عاماً . لعب فيها دوراً هاماً في أحداث الشام الى أن توفي عام ٥٨٨ هـ .

أنظر : ابن أبيك الدوادري : كنز الدرر وجامع الغرر ج ٧ ص ١٢٠ - ص ١٢١ .

النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١٧ .

مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤١٩ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر ببيرس ، ص ٨١ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٩ .

(٤) برنارد لويس : العرب في التاريخ ، ص ٢١٤ .

مدى تفانى أتباعه في مرضاته ، والطاعة المسببة التي يبذلونها (١) . وعندما كان لويس التاسع ملك فرنسا في عكا ، سعت طائفة الاسماعيلية لصدافته ، وكسب وده ، فجاءه وفد من الباطنية محملين بالهدايا . منها حيوانات مصنوعة من الزجاج ، وخاتم شيخ الجبل وقميصه ، وكان القميص يرمز إلى أن لويس كان من سنان بمنزلة قميص سنان من جسده قربا . وفابل لويس هذه الهدايا بمثلها (١)

وإذا كان صلاح الدين الايوبي قد فشل في إخضاع طائفة الاسماعيلية والقضاء عليها ، فان النهاية كانت على يد السلطان الظاهر بيبرس . فمن ناحية ابدا لم يرض المماليك عن الباطنية بسبب تنفوذ مذهبهم من ناحية ، ثم بسبب موقفهم المائع بين الصليبيين والمسلمين من ناحية أخرى (٢) . ولهذا كان من المستحيل ان يقبل بيبرس وضعهم على ذلك النحو ببلاد الشام ، ومن ثم وجه جهوده للقضاء عليهم . وأول مانعه . بادر الى منعهم من دفع الجزية للصليبيين ولا سيما الاسبتارية في حصن الأكراد ، وأجبرهم على دفعها له ، ويؤكد ذلك ما رواه المقرئى أن رسل الاسماعيلية وفدوا على الظاهر بيبرس عام ١٢٦٧ م (٦٦٥ هـ) ، ومعهم حملا من الذهب لينفق في المجاهدين المسلمين (٤) ، ومما يدل على سيطرة بيبرس على الاسماعيلية . انه صار يتدخل في تعيين البعض من زعمائهم ، وعزل البعض الآخر . ففي عام ١٢٦٩ م (٦٦٨ هـ) قلد بيبرس زعامة الاسماعيلية لصارم الدين بن الرضى وعزل فجم الدين السعمراني (٥) . وطوى بيبرس صفحة الاسماعيلية بالاسنيلا ، على حصونهم ببلاد الشام حصنا بعد آخر : العليقة (٦) ، والخوابى ، والمنيقة ، والقدموس ، والكهف . « وعفيت المنكرات منها ، وأظهرت سرائع الاسلام وشعائره (٧) »

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٢٩

Hitti : Hist. of the Arabs T. III P. 517

Grousset : Histoire des Croisades. T. III P. 517 (٢)

(٣) سعيد حسن عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢١١ .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٣ .

(٥) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٨٦ - ص ٥٨٧ .

(٦) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٩ ، ص ٦٠٨ .

(٧) الحسن بن عبد الله : آثار الاول ، ص ١٥٢ .

من كل ما تقدم نلمس الدور الكبير الذى لعبته طائفة الاسماعيلية على عصر الحروب الصليبية بالشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . واذا كان المسلمون نظروا الى الاسماعيلية كزنادقة ملحدين وكفرة ، الا أن التجربة المستفادة من دراستنا للطائفة . أنها اعطت العالم صورة من الشجاعة التى وصلت الى حد النهور . وقد وصف المؤرخ الحسن بن عبد الله (١) شجاعة الفداويين قائلا : « وقد استخدم السلطان الظاهر بيبرس الفداويين خلال حروبه مع الفرنجة والتتار ، وكذلك سيرهم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فى عمليات فدائية امضوها بنجاح ، باذلين ارواحهم » .

٢ - السدروز :

تأثر المذهب الشيعى بما طرأ عليه من تغييرات عظيمة فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، ويرجع ذلك الى تأثير بعض الشيعة بالفلسفة اليونانية ، واخذهم ببعض العقائد المبنية على الرجعة والتناسخ . ولهذا صار المذهب الشيعى فى عهد الفاطميين خليطا من الدين والفلسفة ، وفتتات بسبب ذلك مذاهب اخرى منها الدروز . وفى أوائل القرن الخامس الهجرى (القرن الحادى عشر الميلادى) ، وفد الى مصر دعاة من غلاة الشيعة الفرس . جهروا بتأليه الحاكم بأمر الله الفاطمى (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) وهم : حنزة بن على الزوزنى ، والحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم ، ومحمد بن اسماعيل الدرزى (٢) . وينسب الى محمد بن اسماعيل الدرزى أنه كتب رسالة . قدمها الى ذلك الخليفة ، شرح فيها دعوته واصول مذهبه ، واعلن فيها ربوبية الحاكم ، فقربه اليه وجعله محل رعايته وعطفه . وجاء فى تلك الرسالة أن روح آدم انتقلت الى على بن أبى طالب ، ومنه الى أسلافه الحاكم . متقمصة من واحد الى آخر ، حتى انتهت الى الحاكم بأمر الله (٣) . والواقع ان الاعتقاد بالحلول (أى أن الله يتجسد) قديم العهد بين غلاة الشيعة . وهو اعتقاد يحاول فيه اتباعه ان يسدوا الفجوة البعيدة ، التى

(١) آثار الاول ، ص ١٥٢ - ص ١٥٣ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ .

جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٩٦ - ص ٩٧ .

(٣) حنا أبى راشد : جيل الدروز مع صحيفة أعمال زعيمهم الحربى سلطان

باشا الاطرش ، ص ٣٤ .

تفصل الانسان المحدود عن الله غير المحدود ، كوسيلة لاقامة علاقات شخصية انسانية مع ذات الله (١) . وليس هذا المعتقد الاساسى سوى استمرار للعقيدة الاسماعيلية أتباع الامام السابع اسماعيل المتوفى عام ٧٦٠ م (١٤٣ هـ) الذين يعرفون أيضا بالسبعية .

اشار اعلان محمد بن اسماعيل الدرزي ربوبية الحاكم فى الجامع الأزهر . سخط المصريين السنين والمعتدلين من الشيعة ، فتوجهوا الى الحاكم ، وطالبوه بتسليمه ولكنه ما ظلمهم ، وسهل له طريق الفرار . بعد ان طلب منه الخروج الى الشام ، ونشر الدعوة فى الجبال (٢) . وسرعان ما لفيت دعونه تربة صالحة فى وادى التيم عند سفلى جبل الشيخ ، واستطاع ان يستعمل اليه العديد من الانصار ، الذين أضحوا يعرفون باسم الدرزية . ومن العجيب ان الدرزي لم يرضوا عن تلك التسمية ، لانهم استنكروا دعوة الدرزي واحتقروه ، واتهموه بالكفر والالحاد ، وآثروا ان يسموا بالعقال أو «الموحدين» أى الذين يؤمنون بآله واحد ، وهو الاسم الذى ورد فى كتبهم المقدسة . وبعد سنتين قضاها الدرزي فى الدعوة لتأليه الحاكم ، قتل عام ١٠٢٠ م (٤١٠ هـ) (٣) ومن جنوب لبنان ، أخذت الدعوة الدرزية فى الانتشار فى الجبال . شمالا ، متحانية الساحل والبقاع ، وانضمت الى طائفة الدرزي قبائل عربية أو مستعربة مثل التنوخيين والمعنيين وآل أرسلان وآل حنبلاذ واليزبديّة . (أسرة تلحوق) والنكدية ، الذين تزعموا ولازالوا الدرزي (٤) . وعلى أية حال ، فان كثيرا من الاسس التى وضعها حمزة بن على الزوزنى وانصاره من دعاة الدرزية الأوائل لازال قائما الى اليوم ، من أهمها اتخاذ الدرزي تنويما

(١) Clément de Nerval : Voyage en Orient, P. 52

فيليب حتى : لبنان فى التاريخ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٨٨ .

جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٣) مجهول المؤلف : الدرزي ، ص ٢٢ .

حنا أبى راشد : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٤) محمد كامل حسين : طائفة الدرزي ، ص ١٠ - ص ١٨ .

Hitti : op. cit. PP. 20—22

يؤرخون به حوادثهم ابتداء من عام ١٠١٧ م (٤٠٨ هـ) ، وهى السنة التى ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم (١) .

ولاتوجد لدى الدروز وثائق واضحة تتعلق باصلهم كشعب وطائفة ، ولا يقل اصلهم الأنثروبولوجى عن معتقداتهم الدينية وطقوسهم غموضا وابهاما ، فقد عاشوا حياة شبه مستقلة منعزلين فى معاقل جبال لبنان ، عافلين عن ازدهار العالم الذى يحيط بهم ، ويكاد العالم الخارجى لايعرفهم تماما . وهم حتى اليوم لازالوا يعيشون فى مجتمعات اقطاعية قروية صغيرة ، خاضعة لسيطرة الشيوخ ، وهؤلاء خاضعين لأمرأ ، والجميع ينظمهم شكل حكومة ثيوقراطية (دينية) (٢) . ولا زال هذا التنظيم هو السمة المميزة للحياة الوطنية للدروز .

ولكى نصل الى ادراك شامل وعلمى لعقيدة الدروز ، تواجهنا صعوبات جمة ، ويرجع السبب فى ذلك الى ندرة المصادر من جهة ، والسرية التى يزاول الدروز بها طقوسهم واحتفالاتهم الدينية الغامضة من جهة أخرى . حتى المخطوطات القليلة التى وقعت فى الأيدى لاتشفى الغليل ، لغلبة الصفة المجازية عليها ، فضلا عن عناية الدروز الفائقة فى عدم افشاء كتاباتهم المقدسة . كذلك فانهم يؤمنون بمبدأ التقية ، أى من حق أى درزى اظهار غير مايبطنه ، اذا كان ذلك سيؤدى به الى الحصول على الأمان (٢) . كل تلك الامور متضامنة ، جعلت العقيدة الدينية للدروز لغزا بالغ الحيرة فى التاريخ .

وعلى أية حال ، فان من أهم خصائص الدعوة الدرزية ، اغلاق الباب بوجه كل طالب ، وحصرها فى الذين آمنوا ، فمن لم يؤمن ببقى كذلك الى الابد ، ومن آمن فقد آمن بلاردة (٤) . وبهذا قطعوا كل علاقة دينية مع غير أبناء مذهبهم . وانقسم الدرزية الى طائفتين : الأولى طائفة الروحانيين ، أى الذين يلموا بأصول المذهب الدرزى . وتنقسم هذه الطائفة الى ثلاثة أقسام رؤساء وعقلاء واجاويد . والرؤساء هم الذين بيدهم مفاتيح جميع

(١) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٢) Hitli : op. cit. PP. 1—5

(٢) Hitli : op. cit. P. 24

(٤) حنا أبى راشد : الدروز ، ص ٢٨ ، ص ٢٩ .

اسرار الدرزية ، والعقلاء بيدهم الاسرار الداخلية التي تتعلق بالتنظيم الداخلي للمذهب ، والاجاويد بيدهم مفاتيح الاسرار الخارجية التي تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب (١) . أما الطائفة النانية فهي طائفة الجسمانيين ، أى الذين لا يبحثون فى الروحانيات ، بل يبحثون فى الامور الدنيوية ، وتنقسم هذه الطائفة الى قسمين امرأ ، وجهال . والامراء الجسمانيون بيدهم مفاتيح الاسرار الخاصة ، والجهال أو العامة فهم الذين لا يعرفون من اصول المذهب الا اسمه ، ويظل الفرد منهم فى نظر الطائفة الدرزية جاهلا ، حتى لو حصل على ارفع الشهادات العلمية ، ونال قسطا وافرا من الثقافة، ولا يجوز لطبقتى الجسمانيين الدخول فى مجالس طائفة الروحانيين . وهكذا يعيش الجاهل منهم درزيا ، وبهرت درزيا ، ولا يعلم من اسرار الدرزية، سوى أنه ولد من أب درزى وأم درزية فقط (٢) . والنساء فى المجتمع الدرزى ينقسمن ايضا الى عاقلات وجاهلات ، لا فرق فى ذلك بين المرأة والرجل (٣) .

وطبقا لعالميم الدروز فهم الآن خلال فترة « غياب الحكيم » أى « فترة الاخفاء » (زمان الستر) ، ومن ثم لا بد ان تكون معتقداتهم وطقوسهم فى طى الكتمان ، ولا تذاع على الملأ . ويعبر الدروز عن أهدافهم فى كتبهم ورسائلهم بطريق الرمز والكناية ، كاسرار الماسونية ، وهناك بعض اصطلاحات تقليدية تتناولها كل جمعية سرية ، خوفا على اسرارها من الاقتضاح (٤) . وللطائفة الدرزية مجالس خاصة ، يجتمع فيها جميع (العقال والاجاويد) اجتماعات سرية ، وهى أشبه بمحافل الماسون من حيث كتم الاسرار ، والرموز ، ومن حيث التقاليد والطقوس ، ولا يمكن لغير العقال والاجاويد ارتياد هذه المجالس ولو تنكروا فى أزيائهم ، ذلك لان الزائر ، اذا لم يبيع بكلمة السر ، لا يستطيع الدخول (٥) . ولا يوجد مساجد بجبل الدروز ، فالدروز ليس لهم أمكنة معينة للعبادة ، بل لهم « خلوات » يجتمعون فيها من يوم الخميس الى الجمعة من كل أسبوع .

(١) محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ٢٨ - ص ٢٩ .

حنّا أبى راشد : الدروز ، ص ٣٥ .

(٢) حنّا أبى راشد : الدروز ، ص ٣٥ - ص ٣٦ .

حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

(٣) محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

Hitti : op. cit. PP. 24—25

(٤)

حنّا أبى راشد : جبل الدروز ، ص ٤١ .

(٥) حنّا أبى راشد : جبل الدروز ، ص ٢٢ - ص ٢٣ .

والدروز يكفرون المسلمين عامة ، ويسمونهم الكفار أو المشركين ، في الوقت الذي يطلقون على أنفسهم الموحدين . غير ان المسلمين يرون ان الطائفة الدرزية « أسد كفرا ونفاقا من النصيرية » ، كما يرى ابن تيمية ان « قتالهم وقتال النصيرية أولى من قتال الأرمن ، لأنهم عدو في دار السلام (١) » . وعلى الرغم من ذلك ، فقد حارب الدروز خلال الحروب الصليبية الى جانب المسلمين ضد الفرنجة ، فابان الحروب الصليبية كانت اقطاعات الدروز في لبنان في يد اسرتين : التنوخيين والأرسلانيين ، اما وادي التيم وحوران فكان اقطاع الدروز في يد بنى سهاب ، وكان الصليبيون يعملون لانشاء دولة لاتينية على ساحل البحر المتوسط تتوسع في الشمال وتضيق حتى جبل الدروز ، فكان على الدروز ان يدافعوا عن بلادهم لاسيما ان المسلمين طلبوا اليهم العمل على سلامة الساحل (٢) . ويرى البعض ان ثمة احتمال في أن الدروز تأثروا في نظمهم وتعاليمهم بفرسان الداوية (٣) .

وقد عاشت طائفة الدروز - ولا زالت - على ما تنتجها الأرض من محاصيل زراعية ، فالدروز لا يميلون للزراعة ، ولم تجذب التجارة والصناعة انتباههم ، ومما بدل على ذلك أن مواسم التجار في حلب ودمشق وببيروت وصيدا ، لاتجد من بينها اسما درزيا واحدا ، والنظام السائد في المجتمع الدرزي هو النظام الاقطاعي الذي كانوا عليه منذ عدة قرون . ومن تقاليد الدروز انه لا يجوز عندهم الجمع بين امرائين ، فان لم يطلق الدرزي التي عنده ، لا يمكنه التزوج بغيرها ، كما ان المرأة لاترث شيئا من دار أبيها (٤) .

٣ - النصيرية :

اذا نظرنا الى خريطة لبنان من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب ، الفيناها يتكون من سلسلة من السهول الساحلية الصغيرة في

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٢٤٨ - ص ٢٤٩ .

(٢) محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ١٠ .

Hitti : op. cit. P. 13 (٣)

Hitti : op. cit. P. 5 (٤)

محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ٢٩ .

حنا ابي راشد : جبل الدروز ، ص ٤٤ .

الغرب ، ثم سلسلة من الجبال ، ثم الجبال ، ثم سهل البقاع الذى يكون منبسطة متسعة من الارض تحضنه سلسلة لبنان الغربية من جهة الغرب ، وسلسلة لبنان الشرقية (أو انثيلييان) من الجهة الشرقية . ومن الطبيعى ان تظهر قوة الحركات الانفصالية ، وتزداد وضوحا فى المناطق الجبلية بالنسبة ، على سائر الجهات الزراعية السهلة والمدن . ولم تكن جبال لبنان موطناً للموارنة والدروز فقط ، ولكنها كانت أيضاً موطناً لظهور فرقة متطرفة منبثقة من المذهب الشيعى ، وهى طائفة النصيرية . وكانت تلك الطائفة تقيم فى شمال الشام ، وموطن أتباعها جبل النصيرية (أو الانصارية) ، وهو جزء من لبنان ، وتمتد بلاد النصيرية شرقاً الى سهل حماء وحمص وحلب ، وشمالاً الى ما وراء انطاكية على حدود بلاد الأناضول (١) . ومن المرجح أن طائفة النصيرية أطلق عليها ذلك الاسم نسبة الى الفقيه الشافعى محمد بن نصير المتوفى عام ٨٧٣ م (٢٦٠ هـ) ، وكان من أتباع الحسن العسكرى الامام الحادى عشر عند طائفة الامامية الاننا عشرية (٢) . واقدم ذكر للطائفة النصيرية جاء فى كتابات حمزة بن على وغيره من كتاب الرسائل والمواظب الدرزية (٣) . وثمة تفسير آخر لايزال مألوفاً عند السنيين الجاورين للنصيرية ، ولكن هذا التفسير يدخل فى نطاق الاستنطاق المتداول لهذا الاسم ، فيجعله ذا صلة بلفظ نصرانى أو نصارى ، مما يقرب الى الذهن ان النصيرية لايزالون يحتفظون ببعض تقاليد أو طقوس دينية خاصة ، منها احتفالهم ببعض الاعياد المسيحية ، مثل عيد الميلاد وعيد القيامة . ويعتبرونهما من الاعياد الكبرى ، كما أن البعض منهم يحمل اسماء مسيحية الاصل (٤) . ويرى البعض أن سلسلة جبال النصيرية يتميز أهلها بالشكل الأشقر اللون ، وهو كثير فى العلويين ، مما يدعو الى التفكير الى انهم من أصل آرى ، أو انهم نتيجة الاتصال الذى حدث من قبل بين السكان مع سكان اماره انطاكية النورماندية (٥) .

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢١٠ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٥ .

(٣) فيايب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٢٢ .

(٤) حسن ابراهيم : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٥ .

Les Guides Bleus, P. XXXVIII

(٥)

وتحتفظ طائفة النصيرية بأسرار معتقداتها ، وتمنعه عن الناس ، وليس لأحد من أبناء الطائفة أن يذيع ما لقن من أسرار معتقداتهم ، وإن اقتضى الأمر ضرب عنقه ، وقد جرب هذا كثيرا (١) . وماتزال تحتفظ ديانتهم بمعالم واضحة ، تنبئ عن معتقداتهم التي هي مزيج من عناصر غير متجانسة تماما ، تقوم على أساس نظام ديني يتصل بعبادة النجوم والكواكب (٢) . ولهذا فانهم يزعمون أن السحاب مسكن على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وإذا مر بهم السحاب قالوا : السلام عليك يا أبا الحسين ، ويقولون إن الرعد صوته ، والبرق ضحكه ، وهم من أجل ذلك يعظمون السحاب (٣) ويبدو أن حسين بن أحمد الختبي الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، هو الذي وضع عقائد النصيرية ، واتباعه يفدون لزيارة ضريحه بالقرب من حلب ، ويولون هذا الضريح ما يليق به من الاحترام والاكبار ، ويعرف هذا الضريح باسم ضريح الشيخ برقق (بفتح الباء ، والقاف الاولى وسكون الراء) (٤) .

ويقوم مذهب النصيرية على مبدأ تاليه على بن أبي طالب مغالاة فيه (٥) ، ولذلك أطلق على النصيرية اسم « العلوية » أي الذين يعبدون عليا ، منذ الانتداب الفرنسي في ديارهم بعد الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨م) (٦) ، ويدعى النصيرية أن سلمان الفارسي رسول على بن أبي طالب ، ويميلون (يحبون) عبد الرحمن بن ملجم المرادي قاتل على ، زاعمين أنه « خلص اللاهوت من الناسوت » ، ويخطئون من يلعنه (٧) . ويرى النصيرية أن الخلفاء الثلاثة الصديق وعمر وعثمان تعدوا على بن أبي طالب ، ومنعوه حقه من الخلافة ، كما تعدى قابيل على أخيه هابيل ، وكما اعتدى النمرود على

(١) القلة شندى : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ .

(٢) حسن ابراهيم : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٤ - ص ٢٦٥ .

(٣) صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٢ .

صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٤٩ .

(٦) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ - ص ٢٦٧ .

(٧) صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٢٥٠ .

الخليل عليه السلام ، وكما يقوم كل فرعون من الفراعنة على نبي من الأنبياء عليهم السلام (١) .

ويؤمن النصيرية بمبدأ التجسد ، ويدور حول هذا التجسد ثلاثة أسماء تكون ثلاثيًا شبيهاً بتثليث النصارى ، وهذه الأسماء تتمتع بالوحدانية في ثلاثة هم : على بن أبى طالب ويرمزون له بالمعنى . ومحمد صلى الله عليه وسلم ويرمزون اليه بالاسم ، وسلمان الفارسي ويرمزون اليه بالباب ، وعلى بن أبى طالب عند النصيرية هو الكائن الاسمى ، والنور المشع الذى ينبعث عن فيضه محمد صلى الله عليه وسلم وسلمان الفارسي (٢) .

وتتألف طائفة النصيرية من قبائل يقوم بينها تحالف . كالكلبية والخياطين والحدادين ، وبعض العنسانير اليمنية التى ارتحلت شمالاً قبل الاسلام . ثم اختلطوا مع الشماليين كالأراميين وغيرهم واحتفظوا بلغتهم الجنوبية التى اختلطت قليلاً أو كثيراً باللغة الأرامية ، التى لاتزال آثارها باقية فى بعض اللهجات العربية ، وفى أسماء الأشخاص والقرى والانهار (٣)

وتاريخ النصيرية عبارة عن حروب دائمة بينهم وبين جيرانهم . بسبب الاضطهادات التى تعرضوا لها ، باعتبارهم ملحدين أو وثنيين ، الامر الذى انار شعوب جمهور المسلمين (ومنهم الشيعة المعتدلون) ضد هؤلاء النصيرية ، الذين ظهروا فى نظر المسلمين زنادقة مغالين . والبعض من المؤرخين صورهم بأنهم « طائفة ملعونة مرذولة مجوسية المعتقد » (٤) .

ولم يفعل النصيرية كما فعل الموارنة ، الذين انضموا الى صفوف الصليبيين وحاربوا الى جانبهم ، ولكننا لانعرف عن النصيرية شئ يذكر سوى ان عدداً كبيراً منهم لقي مصرعه على يد الفرنج (٥) .

(١) نفس المكان .

(٢) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ - ص ٢٦٧ .

(٣) نفس المكان .

(٤) القشقندى : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ .

(٥) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

أما نظام النصيرية الاجتماعية والديني ، فهو من النوع الذي يتميز بالطيفيه . وهم من الباطنية . أي الجماعة التي تقول بأن للنصوص الدينية معنى غير المعنى الظاهر أو المعنى السرفى (١) . ويقال أن طائفة النصيرية لا تحرم البنات ولا الأخوات ولا الامهات (٢) . ويقيم الآن نحو ثلاثمائة ألف من اسباع هذا المذهب . معظمهم من الفلاحين في شمال ووسط بلاد الشام . يعيشون في قرامم الجبلية حتى قبليقية التركية ، واحتفظوا بمعظم اساليب معيشتهم وتقاليدهم التي درجوا عليها منذ العصور الوسطى ، وهم يمنعون عن اكل لحم الجمل والارنب وبعبان الماء والسماك الذي لا قشر له (٣) . وحتى العصر الحديث ، عاس النصيرية في الجبل المعروف باسمهم شمال اللاذقية . لا يعرفون المدنية . بهم ميل الى الفوضى ، ويحسرفون معظم اوقاتهم بقطع السبيل ونهب القرى . والقاء الفتن في البلاد ، متخافتين . منقسمين في عصبة واحدة (٤) . وتعظم طائفة النصيرية الخمر . ونيجة لذلك عظموا شجرة العنب أصل الخمر ، وحرموها فلعمها أو احتتاب اصولها (٥) .

ونمه فريقي من النصيرية . عم الكسروانيون ، ويبدو أنهم وقفوا من الممالك موقفا عدائيا . لاسيما خلال الصراع بين الممالك والصليبيين بالشام ، من ذلك ما حدث خلال حصار السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس عام ١٢٨٩ م . اذ حف الكسروانيون لنجدة بوعيموند السابع امير طرابلس . وقد اغضب ذلك السلطان قلاوون . فزحف الممالك على جبل كسروان لاذيب أهله ونححو في كسر شوكتهم . وعندما استولى السلطان الأسرف خليل بن قلاوون على عكا . لجأ بعض الصليبيين الى جبل كسروان وحاولوا استنارة أهله ضد ساطنه الممالك . فبادر الأسرف خليل بارسال حملة في مسنهل عام ١٢٩٢ م . ولكن الكسروانيين ازلوا الهزيمة بالمسكر المماليكى في تلك الواقعة . الامر الذي زاد من نفوذ الكسروانيين وبطنتهم (٦) .

-
- (١) فيليب حتى : المرجع السابق . ص ٢٢٢ .
 - (٢) صبح الاعشى . ج ١٢ . ص ٢٥٠ .
 - (٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق . ص ٢٦٧ .
 - (٤) جورجى ينى : تاريخ سوريا ، ص ٣٥٤ .
 - (٥) صبح الاعشى ، ج ١٢ . ص ٢٥٠ .
 - (٦) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٠٧ - ص ٢٠٨ .

وعلى أى حال ، فإن المجتمع الاسلامى ببلاد الشام على زمن الحروب الصليبية - كما رأينا - كان متنوعا من ناحية السلالات العرقية . والعقائد الدينية بشكل لانجده فى أى بلد عربى آخر . فالى جانب القبائل العربية التى وفدت الى الشام مع موجة الفتح الاسلامى وقبله ، وفى كنف الدولة العربية الاسلامية بالشام ، عاش الأتراك والتركمان والاكراد .

أما من ناحية العقائد الدينية ، فمن الملاحظ - كما قلنا - أن السنة والتشيع والفرق العديدة الأخرى اقتسمت بلاد الشام من الناحية المذهبية . فعلى سبيل المثال ، نجد أن الشيعة تركزوا فى طرابلس وصور ، فيروى ناصر خسرو أن معظم سكان صور من الشيعة ، وكل سكان طرابلس شيعة (١) وفى حلب انتشر بها مذهب الشيعة عندما اضحى للفاطميين نفوذا فى الشام (٢) . وطالما قامت الصراعات بين السنة والشيعة فى حلب ، وضاعت المصادر التاريخية بذكر حوادث عن تلك الصراعات . ومن الفرق التى تفرعت من الشيعة ، وتوزعت فى انحاء الشام : الدروز فى جنوبى لبنان ، والنصيرية فى جبال سوريا الشمالية ، والاسماعيلية (الحناشون) الى الشرق من مواطن النصيرية (٣) .

ولا ريب أن تلك الفرق ، أوجدت وضعا قلقا مزمنيا ببلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ، فهى لم تنصهر فى بوتقة واحدة بمرور الزمن ، بل ظلت كما هى ، وسبب ذلك السمة أو الظاهرة الجغرافية التى تسود الشام ، فتضاريسه من جبال وسهول واودية متقطعة ، ساعدت على قيام طوائف دينية منعزلة مستقلة ، الامر الذى اضر بالبلاد حتى وقتنا الحالى .

هذا بالنسبة للمجتمع الاسلامى الذى سكن أرض الشام . وكون اجناسا ومذاهب متباينة . أما المجتمع المسيحى بالشام فسنستعرضه فى الفصل القادم .

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ١٣ - ص ١٥ .

(٢) بيشو : تاريخ حلب ، ص ٤٢ .

(٣) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ - ص ٢٢٦ .

الفصل الثاني

المجتمع المسيحي

أولا - الجنسيات الأوروبية التي استقرت في بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية واثرت في بنائها الاجتماعي :

ثانيا - الهيئات الدينية الحربية :

- ١ - هيئة الاسبتارية .
- ٢ - هيئة الداوية .
- ٣ - هيئة فرسان التيوتون .
- ٤ - هيئة مونتجوى .
- ٥ - هيئة القديس توما .
- ٦ - هيئة القديس لازاروس .

ثالثا - طبقات المجتمع الصليبي :

- ١ - الارستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان .
- ٢ - طبقة البولانيين .
- ٣ - طبقة الأحرار البورجوازية .
- ٤ - طبقة الرقيق والاقنان .

رابعا - المسيحيون الشرقيون :

- ١ - الموارنة .
- ٢ - الأرمن .
- ٣ - الأقليات الدينية .

أولا - الجنسيات الأوروبية التي استقرت في بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية واثرت في بنائها الاجتماعي :

قدر لبلاد الشام في أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر ، أن تكون مسرحا اختلفت اليه أجناس شتى من الشعوب الأوروبية الغربية المتباينة . اذ أن الغزو الصليبي لم يقيم به شعب واحد ، ولكن مسيرته حفلت بالعديد من الشعوب ، كذلك لم يقف المد الزاحف على الشام من الغرب الاوربي خلال عصر الحروب الصليبية . والمقصود بالمد الزاحف هنا ، الحملات الصليبية العديدة بما تضمنته من جيوش تنتمى الى عناصر معينة من ناحية ، والتغلغل السلمى فى صورة جماعات الحجاج والتجار من ناحية أخرى .

وفى عصر الحروب الصليبية وجدت ببلاد الشام فئات من عناصر أوروبية متباينة : الفرنسيون ، والالمان ، والنورمان ، والهنغاريون ، والبريتون ، والبوهيميون ، والجنوية ، والبيازنة ، والبروفنساليون ، والبلغار ، والفلمنك ، والانجليز ، والاسكندنافيون ، والاسبان . ولا ريب أن تلك الشعوب التي عجت بها أرض الشام ، احتوت طبقات ونوعيات من الناس اسهمت فى بناء المجتمع الصليبي . منها الطبقات المحاربة النبيلة ، والاحرار ، ورجال الدين ، والتجار .

وبالاضافة الى ذلك ، وفدت من الغرب الاوربي الى الشام أعداد كبيرة من الأوباش ، وفتران أرصفة الموانئ ، ومتسكعو الشواطئ ، ولصوص الأرض والبحر ، والشحاذون ، والمشعوذون ، والمغامرون ، وخريجو السجون ، والمهاربون من وجه العدالة ، والمجرمون السابقون ، واراذل أوروبا (١) ؛ وكل أولئك اتوا تحت شعار الحروب الصليبية ، وتركزوا فى الموانئ ، لاسيما ميناء عكا الذي كان يعتبر ميناء دوليا على عصر الحروب الصليبية .

Port Cosmopolite يزخر بخليط من مختلف شعوب العالم (٢) .

والمعروف أن العنصر الغالب على الحملة الصليبية الاولى هو العنصر

Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages. Vol. I PP. 379—380 (١)

Grousset : Histoire des Croisades. T. III P. 199 (٢)

الفرنسي ، ومن ثم فإن الوحدات السياسية الصليبية التي تمخضت عنها هذه الحملة في الشرق ، سادتها النظم الاقطاعية المعمول بها في فرنسا (١) . وبسبب تغلب العنصر الفرنسي أضحت لغة التخاطب في مملكة بيت المقدس وامارة انطاكية لغة شمال فرنسا *Langue D'Ocil* الشائعة عند سكان شمال فرنسا والنورمنديين ، وكذلك من الراجح أن لغة الجنوب *Langue D'oc* التي جرى استخدامها أول الامر في امارة طرابلس ، ترجع في أصولها الى تولوز (٢) . ويعزى أيضا الى انتشار اللغة الفرنسية ان اطلق العرب اسم الفرنجة على الصليبيين جميعا . وفي بداية الحركة ، لوحظ ان الفرنسيين اعتزوا بعنصريتهم وأنه كان لديهم شعور باختلافهم عن العناصر الاخرى مثل الانجليز والالمان والايطاليين (٣) .

والواقع أن الصلة بين الفرنسيين وبلاد الشام لم تكن جديدة ، فهي سابقة على الحركة الصليبية بزمن . فقد جاء العديد من الحجاج الفرنسيين الى الأرض المقدسة لاداء فريضة الحج ، وبصحبته قوات مسلحة لحمايتهم في معظم الاحوال . وعلى سبيل المثال ، عبر عام ١٠٢٦ م سبعمائة حاج من اللورين وفرنسا وهنغاريا ، ثم بلغاريا واليونان وآسيا الصغرى ، في طريقهم الى الاماكن المقدسة . ويرى البعض أن الحركة الصليبية في اصلها كانت حركة فرنسية ، فقد وصف الحملة الصليبية الاولى قائلا : « انها فرنسا زاحفة » .

La Première Croisade, C'est La France en Marche

والمعروف أن البابا سلفستر الثاني (٩٩٩ - ١٠٠٣ م) أول من فكر في ارسال حملات صليبية الى بيت المقدس ، بغرض انتزاعه من أيدي المسلمين ، وخلفه أحد أبناء كلوني بفرنسا البابا أوربان الثاني ، الذي يعزى اليه الفضل في الدعوة للحملة الصليبية الاولى (٤) .

وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا أحد العناصر الاوربية التي سيطرت

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

Longnon : *Les Français d'outre-mer au Moyen Age*, P. 107

(٢) رنسيومان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٨٩ - ص ٩٠ .

C. Med. H. Vol. P. 330.

(٣)

Longnon : *op. cit.* PP. 103-104

(٤)

على بلاد الشام ، الا أنهم كانوا مفضلين على غيرهم من العناصر الأخرى . ويرجع السبب في ذلك الى أنهم لم يعيشوا في عزلة عن الشعوب التي حكموها ، ولم يتعالوا عليهم ، ولكنهم عقدوا معهم أواصر المودة ، وتبنوا عاداتهم وملبسهم وتعلموا لغتهم (١) . حتى الفن في الأرض المقدسة ، غلب عليه الطابع الفرنسي ، ومن الممكن مشاهدة ذلك في كثير من كنائس الصليبيين (٢) . كذلك ظهر الطابع الفرنسي بوضوح في هيئة فرسان الداوية ، التي كانت غالبية فرسانها فرنسيين .

وقد لوحظ أن العناصر السكانية من الفرنسيين والانجليز - بمقارنتهم بالاطاليين - كانوا أقل تماسكا ، وأكثر تهورا ، وأقل براعة في العمل ، وأكثر نهما في المأكول والمشرب ، وأشد اسرافا ، وأقل حرصا في الحديث ، بهم ميل الى التهور في ابداء النصيحة ، بيد أنهم اشد تحمسا في اعطاء الصدقات ، وأشد اندفاعا في المعارك ، أعظم العناصر نفعا للدفاع عن الهدف الصليبي ، ومصدر خطر على المسلمين (٣) .

والنورمان من الشعوب التي يرجع اليها الفضل في النجاح الذي أحرزته في الحملة الصليبية الأولى . وقد عرف عنهم في جنوب ايطاليا الميل الشديد الى المغامرة ، غير أنه لم يكن ثمة طموح يرضى الأبناء الصغار ، أو الفرسان الذين ليس لهم اقطاع (٤) . وفي بداية الأمر ، لم يكن في نية النورمان الاشتراك في أية حملة صليبية ، وشاءت الظروف أثناء حصار بوهيموند بن جويسكارد لجسر سكافارد بامالفي ، أن علم بمقدم جماعة مسيحية غفيرة العدد ، للتوجه الى الأرض المقدسة لمحاربة المسلمين (٥) . ولم يلبث أن أدرك بوهيموند ماتهيو له الحروب الصليبية من فرص ، فقرر الاشتراك فيها ، وترتب على ذلك أن انضم اليه العديد من أهالي جنوب ايطاليا ، ومن أشد الناس ولعا بالمغامرة (٦) . وبرز النورمان في الحملة الصليبية الأولى الزاحفة

Small : Crusading Warfare, P. 42. (١)

Camille : Les Monuments de Croisades, Vol. 1 P. 2. (٢)

Miller : Essays on the Latin Orient. P. 525 (٣)

(٤) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٨٩ .

Gesta Francorum, P. 7 (٥)

Ibid., Loc. Cit. (٦)

الى الأرض المقدسة ، كاحد العناصر الرئيسية الغالبة عليها . واتضحت شخصية بوهيموند خلال الحصار الصليبي لمدينة انطاكية ، اذ لعب دوره بمهارة ، حتى اذا ما سقطت المدينة ، بدأ النزاع بينه وبين ريموند حول امتلاكها ، مما عطل الزحف نحو بيت المقدس ، ولكنه انتهى بغزو بوهيموند الذى اسس فى انطاكية ثانى الامارات الصليبية فى الشام (١) .

والى جانب الفرنسيين والنورمان ، استقرت الجاليات الايطالية فى الأرض المقدسة . ومنذ البداية ، وجد فى الشام الفرنجية مجتمعان كان لهما الصدارة على غيرهم من المجتمعات ، بالإضافة الى تفوقهما على بقية العناصر الصليبية ، وهما : المجتمع الفرنسى ، والمجتمع الايطالى ، وتتمثل فى الأول النبالة الحربية ، وفى الثانى البورجوازية التجارية ، وبمعنى آخر كان المجتمع الفرنسى صاحب الأرض ، أما المجتمع الايطالى فكانت له السيادة البحرية (٢) .

ويأتى فى مقدمة الجاليات الايطالية ، جماعة التجار من أهل أمالفي من مدن ايطاليا ، وهم انشط العناصر التجارية الاوروبية ، والى ما قبل الحروب الصليبية بعدة قرون ، أى منذ القرن السادس للميلاد ، وفدوا الى ساحل الشام ؛ وفى القرن العاشر الميلادى استفاد تجار امالفي من حماية الامبراطورية البيزنطية لهم ، فأسسوا علاقات تجارية مع مصر والشام ، الأمر الذى أدى الى تدفق العديد من حجاج امالفي الى الشام ، وفى عام ١٠٨٠م أقام الامالفيون مستشفى القديس يوحنا فى بيت المقدس للعناية بالمرضى والجرحى ، وأضحت فيما بعد نواة منظمة الاسبتارية (٣) .

أما مدن بيزه والبندقية وجنوه ، فقد لعبت دورا هاما فى أحداث الحركة الصليبية ببلاد الشام . فالنجاح الذى حققه الصليبيون لم يرجع الى كفاية قوادهم وشجاعة جنودهم ، بقدر رجوعه الى الدور الذى قامت به الاساطيل

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٤١٢ .

Grousset : L'Empire de Levant, P. 320 (٢)

Thompson : Econ. and Soc. H'ist. of the Middle Ages, (٣)
Vol. I P.380

البحرية ، التي قدمت العون والمساعدات البحرية اللازمة لاختراع مدن الساحل (١) . والواقع ان المدن الايطالية ظلت شديدة الحذر بالنسبة للحركة الصليبية ، ولكن ما ان نجحت الحملة الصليبية الاولى في الاستيلاء على نيقية عام ١٠٩٧ م ، حتى أخذت تزداد اهتماما بالحركة الصليبية . ثم كان ان ظهرت تلك المدن على مسرح الاحداث بعد التيقن من نجاح الصليبيين في مدينة انطاكية . وخلال سنوات الحملات الصليبية الاولى والثانية والثالثة أخذت كل من جنوه وبيزا والبندقية دورا نشيطا ، ليس في مجرد النقل البحري للصليبيين ، ولكن ايضا في الاشتراك الفعلي في الحروب القائمة . فالجنوية اسرعوا في المجىء الى انطاكية عقب سقوطها عام ١٠٩٨ م في اعداد هائلة ، وحرصوا على ان يكونوا اول من يظهر بامتياز تجارى ، وبالفعل منحهم بوهيموند امتيازاً في ١٤ يولييه عام ١٠٩٨ ، يقضى بان يكون لهم سوق وكنيسة (٢) . ولم يظهر البيازنة امام سواحل الشام الا عام ١١٠٨ م ، لمساعدة تانكرد الوصى على انطاكية ، في انتزاع اللاذقية من البيزنطيين ، ووعد تانكرد البيازنة عند انتصارهم بان يجعل لهم حيا في كل من اللاذقية وانطاكية يزاولون فيه اعمالهم التجارية ، بالاضافة الى اعفائهم من الضرائب في كل الموانىء والبلاد التابعة له (٣) . وبفضل البنادقة ، تمكن الصليبيون من الاستيلاء على صيدا وصور (٤) .

ولاتعني تفاصيل الاحداث السياسية التي اشتركت فيها المدن الايطالية البحرية جنوه وبيزه والبندقية ، لأنها بعيدة عن نطاق الدراسة التي نحن بصددھا . وهنا أيضا نستطيع ان نقرر ان تلك المدن لم تكن مدفوعة الى تقديم جميع المساعدات للصليبيين بوازع ديني ، وانما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة ، ورأت في الحروب الصليبية فرصة طيبة ، يجب اقتناصها لتحقيق اكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعا (٥) . وعلى كل حال ، فقد وصل نفوذ

(١) ارشيبالد لويس : القوى البحرية ، ص ٢٨٢ .

(٢) ارشيبالد لويس : القوى البحرية ، ص ٢٨٢ .

(٣) Heyd : Hist. du Commerce. T.I. PP. 145

(٤) Com. Med. Hist. Vol. V. p. 329.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٥ .

Thompson : Op. Cit. Vol. I. p. 400.

المستعمرات الإيطالية في الشرق الفرنجي الى حد بالغ الرفعة (١) . وقد وصف جاك دي فيتري الإيطاليين المقيمين ببلاد الشام عام ١٢١٦ م قائلا : « انهم متبصرون في عواقب الأمور ، على اعتدال في مآكلهم ومشربهم ، ولهذا عاشوا أعمارا أطول من أعمار الشعوب الغربية في الشرق ، لهم ولع الى الاسهاب في الحديث وتنميته ، وعلى حذر في اداء النصيحة ، يتقنون شئونهم العامة في البحر وفي العمل ، لاسيما في التجارة الواردة » (٢) . ولم تكن المستعمرات التي أقام فيها الإيطاليون سوى قومونات ، ذات حكومات مستقلة ، يتحدث أهلها اللغة الإيطالية ، ولم يختلطوا بجيرانهم من الناحية الاجتماعية . ومن المشاهد أن تلك المستعمرات في كل المدن ، باستثناء عكا ، لم يتجاوز عدد أفراد الواحدة منها بضع مئات من الأشخاص (٣) . غير أنه من الناحية العملية شكلت المستعمرات الإيطالية في الشام دولة داخل الدولة Imperium (٥) in Imperio وشبيه بوضع التجار الإيطاليين في الشام ، تجار مرسيليا في عكا ويافا وصور وجبيل ، وتجار برشلونة في صور (٥) .

والألمان من الشعوب التي تواجدت ببلاد الشام خلال فترة الحروب الصليبية في أعداد قليلة ، ونستدل على ذلك من أن يوحنا فورتزبورج -الحاج الألماني ، الذي زار بيت المقدس حوالي سنة ١١٧٥ م ، أبدى الاستياء حين اكتشف أنه لم يكن للألمان دور في مجتمع الفرنج (٦) .

وبعد ، فقد عاش على أرض الشام خلال فترة الحروب الصليبية ، العديد من الجنسيات التي انتمت الى جميع انحاء الغرب الأوربي ، جاءت مدفوعة بدوافع عديدة منها الغزو واداء فريضة الحج والهجرة والتجارة والمغامرة ، وبذلك صارت بلاد الشام مجتمعا عالميا (٧) ، فريدا في نوعه .

(١) Grousset : op. cit. Vol. I P. 320

(٢) Miller : op. cit. P. 525

(٣) رنسيما : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٤٧١ .

(٤) Miller : op. cit. P. 525

(٥) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٤ .

(٦) رنسيما : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧١ .

Hayes, Baldwin ; History of Europe, P. 324.

ثانيا - الهيئات الدينية الحربية :

كان الدين خلال العصور الوسطى يمثل القوة الحية الكامنة في تفكير الانسان وأقواله وأعماله ، ومن الصعب التصور في وقتنا الحالى ما كان للدين من مكانة خلال تلك العصور . وقد اتخذت خدمة الله صورا شتى ، منها وجود الرهبان الذين يقضون حياتهم في الصلاة والتأمل الدينى داخل اديرتهم ، كذلك وجدت منظمات دينية نهج رهبانها سلوكا أكثر نشاطا ، فهم يعظون ، ويقومون بأعمال التعريض ، ومساعدة الفقراء ، ورعاية المرضى في المستشفيات (١) . وكان من المناسب لروح العصر ، تأسيس منظمات دينية ، ينكر فيها الرهبان كل مباحج الحياة ، ويقضون حياتهم في محاربة الوثنية والعدو ، دفاعا عن العقيدة المسيحية . ولا شك في أن منظمات من هذا النوع راقت في أعين فرسان أوروبا ، ولا سيما الشباب المغامر ، ممن رحب بحياة الرهبانية ، اذا ملئت بحروب يخوضون معاركها من أجل المسيح (٢) .

وقد شهدت الحركة الصليبية في بلاد الشام ابتكارا فذا فريدا ، أوجده نجاح الحملة الصليبية الأولى ، ويتمثل ذلك في الهيئات الدينية الحربية التي جمعت بين حياة الرهبانية والفروسية في رباط واحد (٣) ، وبعبارة أخرى ربطت الحروب بالعقيدة (٤) . ومن الطبيعي أن تلك الهيئات كانت رد فعل للأفكار السائدة في أوروبا العصور الوسطى ، التي نبذت فكرة العزلة الديرية (٥) -

وعلى الأرض المقدسة ، ولدت الهيئات الدينية الحربية من أجل العالم المسيحي . وأهم تلك الهيئات هيئتا الاستبائية والداوية ، بالإضافة إلى هيئات أقل شأنًا مثل الفرسان التيوتون ، وسانت لازاروس ، والقديس توما وغيرهم .

King : The Knights Hospitallers. P. 2

(١)

Loc. cit.

(٢)

Thompson : The Middle Ages. P. 573

(٣)

Chivalry, edited by Prestage., P. 15

(٤)

Emerton : Mediaeval Europe, P. 372

(٥)

١ - هيئة الاستبائية :

وأقدم تلك الهيئات، هيئة الاستبائية، بيد أن الأصول الأولى لتلك الهيئة غامضة، ترجع إلى نزل Hospice لايواء الحجاج أسسة البابا جريجورى العظيم، ولا نعرف شيئاً عن ذلك النزل إلا أن البابا أرسل أحد رؤساء الأديرة يدعى بروس Robus للأراضي المقدسة، مزوداً بتعليمات بتأسيس نزل في بيت المقدس لخدمة الحجاج، ويبدو أن البابا وضع تحت يده مبالغ ضخمة من المال لهذا الغرض (١) .

وقد مارس الامبراطور شارلمان واجباته كحامى للمسيحيين في الأراضي المقدسة، فكان يرسل من حين لآخر مبالغ ضخمة من المال للحفاظ على الأماكن المقدسة والكنائس والأديرة . وبالإضافة إلى ذلك، اهتم بالأعمال الخيرية الحجاج اللاتين، فشيد من أجلهم عدداً من الأبنية عرفت باسم « لاتينى » Latinie تمييزاً لها عن المؤسسات البيزنطية . ومن الأعمال التي قام بها رد النزل - أو المستشفى - التي أسسها جريجورى العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤ م) إلى الحجاج اللاتين، وابتنى كنيسة بالقرب من النزل، وعهد بخدمة المستشفى والكنيسة لجموعة من الرهبان البندكتيين (٢) .

وثمة رأى للمؤرخ وليم الصورى عن الجذور الأصلية لتلك الهيئة، فقد روى أن تجاراً من أمالفي، حصلوا على إذن من الخليفة الفاطمى في مصر، حوالى عام ١٠٢٣ م، بتأسيس مستشفى في بيت المقدس، لرعاية الحجاج اللاتين الفقراء والمرضى، فلم يعارض، وبادروا في التو إلى انشائه، وتم تدشين المستشفى باسم القديس يوحنا المتصدق، بطريرك الاسكندرية في القرن السابع الذى اشتهر بالاحسان (٣) .

(١) King : op. cit. P. 5 and
Delaville Leroux : Les Hospitaliers en Terre Sainte
et à Chypre. PP. 5—7

(٢) Ibid. P. 9

(٣) Recueil des Histoires des Croisades, Hist. Occ., T.I.
PP. 822- 825

Archer : The Crusades, P. 170

ويعتبر استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م بداية الميلاد الحقيقي لمنظمة القديس يوحنا ، فحتى ذلك الوقت لم تكن سوى دار احسان للبندكتيين تقوم بخدمة الحجاج وعلاج مرضاهم وجرحاهم ، ولكنها خلال سنوات قلائل من سيطرة الفرنجة ، تطورت الى منظمة دينية دولية ضخمة ، عرفت باسم الاسبتار Hospitallers التي حرفت بالعربية الى الاسبتارية - صار لها فروع في معظم أنحاء أوروبا (١) .

فعند وصول الصليبيين الى بيت المقدس، ومبادرتهم الى فرض الحصار عليها ، لم يكن من المأمون للسكان الاوربيين المقيمين ، أن يظلوا في أماكنهم. خشية تعرضهم لانفجار تعصب ديني اسلامي مفاجيء ، ومن جراء ذلك آثروا الاختفاء (٢) . ولكن جيرار المبارك Blessed Gerard حامى ومدير المستشفى ، فضل البقاء والقيام بواجبه ، مخاطرا بحياته ، وما أن بدأ حصار بيت المقدس ، حتى اسرع جيرار ودل الصليبيين على الكنز الذى أخفاء كما دلهم على خطوط مواصلات العدو (المسلمين) . ويبدو أن حاكم المدينة الفاطمي افتخار الدولة ، شك في تصرفات جيرار ، فأمر بالقاء القبض عليه ، وزج به في السجن ، ثم استجوبه تحت التعذيب ؛ ومن المحتمل أن جيرار كاد يفقد حياته لو أن الحصار لم ينته سريعا . ونحن لانعرف سوى القليل عن الحياة المبكرة لجيرار ، كما لانستطيع تحديد بلده الأصلي ، على الرغم من الشهرة التى حازها بعد ذلك (٣) .

وعلى أية حال ، فحالما اطلق الصليبيون سراح جيرار ، حتى عاد من فوره لاستئناف واجباته كمدير للمستشفى . ويبدو انه قدم خدمات جليلة للصليبيين بعد استيلائهم على المدينة ، بوصفه مقيما بها من سنوات عديدة، واضحت مستشفاه - كما كانت منذ زمن طويل - مركزا لخدمة الحجاج اللاتين الذين يزورون بيت المقدس ، ومن الطبيعى انها استقبلت داخل أسوارها العديد من الجنود الجرحى المسيحيين (٤) .

King : op. cit. P. 19 (١)
 Ibid., PP. 19-20 (٢)
 Loc. cit. and Archer : op. cit. P. 170 (٣)
 Grousset : Hist. des Croisades. T.I. P. 542 and King (٤)
 op. cit. P. 29

وبعد أن فرغت الحملة الصليبية الأولى من أداء مهمتها ، عاد الكثير من الصليبيين الى أوطانهم في الغرب الاوروبى ، ومن المسلم به أن العديد منهم شعر بالفضل للعناية التي لقوها في المستشفى ، حينما كانوا مرضى أو جرحى وبسرعة نالت الهيئة الجديدة شهرة واسعة في جميع انحاء أوربا . والعشرون عاما التي قضاها جيرار مديرا للمستشفى ، كانت بالنسبة لها سنوات الازدهار المطرد ، ونتيجة للحماس انهالت المنح على المنظمة من جميع البلاد الاوروبية المطلة على البحر المتوسط ، في صورة اراضى ومنازل (١) .

وعندما توفي جيرار مؤسس تلك الهيئة حوالى عام ١١٢٠ م ، كان لها فروع أو بيوت في ايطاليا وجنوب فرنسا واسبانيا والبرتغال . وحظيت المنظمة بعطف ملوك مملكة بيت المقدس وأمرائها ، ففي عام ١١١٠ م وافق الملك بلدوين الأول على امتياز بمنحها كل املاكها ، وفي عام ١١١٢ م ، أعفى بطريرك بيت المقدس ورئيس اساقفة قيسارية الاسبتارية من دفع ضريبة العشور الكنسية ؛ وفي العام التالى أصدر البابا باسكال الثانى وثيقة بتكوين المنظمة مؤرخة ١٥ فبراير عام ١١١٣ م (٢) . ولا شك أن تلك الوثيقة تعتبر امتياز التأسيس الحقيقى لهيئة الاسبتارية ، اذ وضعها في نفس المكانة التي تمتعت بها المنظمات الدينية الكبرى الاخرى ، وبمقتضاها نال الاسبتار حماية البابوات على مر الأزمنة ، ومنحت لهم ممتلكاتهم في الشام وأوربا ، وأعفوا من دفع الضرائب ، واضحى لهم الحق في انتخاب رئيس لهم اذا خلى منصبه (٢) . ثم صدق البابا كاليكستوس الثانى (١١١٩ م – ١١٢٤ م) Calixtus II عام ١١١٩ م على الامتيازات التي نالتها تلك الهيئة ، وعززها بعد ذلك بابوات آخرين جاءوا بعده (٤) .

وبمقتضى وثيقة البابا باسكال الثانى ، انتخب الاسبتارية ريموند دى

La Roulx : op. cit. PP. 40—41 (١)

R.H.C., Hist. Occ. T. III P. 446 (٢)

Archer : op. cit. P. 170

Grousset : Histoire des Croisades. T.I.P. 542 and King (٣)

op. cit. P. 29

La Roulx : op. cit. PP. 40—41 (٤)

بى Raymond du Puy رئيسا للهيئة خلفا لجيرار (١) . والحقيقة أن الرئيس الجديد كان من طراز مغاير ، فهو رمز حقيقى للمحارب الكنسى ، قام بتغيير شامل فى شخصية الهيئة خلال عهده الطويل البالغ أربعين عاما تقريبا (١١٢٠ - ١١٥٨ م) .

أما بخصوص اتجاه هيئة الاسبتارية الى النشاط الحربى ، فقد حدث ذلك لتلك الهيئة دون هيئة الداوية التى دأبت على محاربة اعداء المسيحية منذ البداية ، ويرجع تحول الاسبتارية الى النشاط الحربى بالاضافة الى الاعمال الخيرية لسببين : الاول هو أن الفرسان الجدد ممن التحقوا بالهيئة بعد فترة طويلة من انشائها لم يقنعوا بحياة الرهبانية وحدها كما ارتضى بها مؤسسوا الهيئة الأوائل ، ذلك أن الفرسان الجدد تطلعوا الى ممارسة حياة الفروسية بما يتلاءم مع طبيعتهم الاقطاعية . أما السبب الثانى لهذا الاتجاه الحربى ، فيرجع الى أن هيئة الداوية فالت رضاء البابوية بسبب طبيعتها الحربية ، مما جعل الاسبتارية تعمل لتفوز بمثل هذه المكانة وما تلاها من امتيازات (٢) .

وليس فى الامكان أن نقرر تماما الوقت الذى قامت فيه الهيئة بدورها العسكرى ، وذلك راجع الى أن التغيرات الكبرى فى التاريخ لاتتم دفعة واحدة ، ولكن بالتدريج . ويلمس الباحث أن الهيئة لم تتوقف عن أداء واجبها الخيرى ، والا كان لديه حدثا هاما لا يمكن اغفاله (٣) . وأول دليل لدينا على تحويل الاسبتارية الى هيئة عسكرية ، يرجع الى بداية عام ١١٢٦ م عندما أشارت المصادر الى رجل يدعى دوراندو Durando بصفته كوند سطل (كونسابل) Constable للهيئة ، ومن المعروف ان الكونسابل كان لقباً لرتبة عسكرية عالية فى القرن الثانى عشر (٤) . ونستدل من ذلك أنه لو كان للمنظمة تلك الرتبة وقتئذ ، فلا يخال لنا أدنى شك فى أن الاسبتار ساندوا قوة حربية داخل المنظمة ، وبذلك نكون قد وصلنا الى بداية الطريق

R.H.C., Hist. Occ. T. III P. 446 (١)

(٢) نبيلة مقامى : فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ص ٢٩ .

King : op. cit. P. 32 (٣)

La Roulx : Op Cit. p. 45 & (٤)

King : Op Cit. p. 34.

العسكري للمنظمة • ولما توفي الملك بلدوين الثاني عام ١١٣١ م ، خلفه صهره فولك كونت أنجو ، وفي عهد هذا الملك الجديد سمعنا عن النشاط الحربي لمنظمة الاسبتارية ، اذ صار من الواضح انها سلكت هذا المسلك الذي ظل باقيا بعد ذلك لفترة سبعمائة عاما (١) •

وقد تكونت هيئة الاسبتارية مثلها في ذلك مثل الهيئات الدينية الحربية الاخرى من الاخوة الرهبان Monks والاخوة الخدم Serving Brothers وعندما أعطاها ريموند دي بى الروح العسكرية ، أضيفت اليها جماعة الاخوة الفرسان (٢) ، التي أصبح لها بمرور الزمن المكانة الاولى في الهيئة ، حتى عرفت الهيئة كلها باسم هيئة الفرسان الاسبتارية أو هيئة فرسان القديس حنا المقدسى (الاورسليمى) (٣) •

والواقع أن الفرسان كانوا أهم طبقة في الهيئة واكثرها عددا ، ولا بد أن يكونوا من أصل نبيل ، تركزت في ايديهم كل قوة تقريبا ، يقع عليهم عبء الحرب وادارة بيوت المرضى ، عاهدوا الله على التقشف والطهارة والطاعة • ومن بين الفرسان يتم اختيار اصحاب المناصب العليا في الوظائف الادارية والتنفيذية ؛ ولهذا تفوقوا على أى طبقة أخرى (٤) • ويرى القديس برنارد Saint Bernard أن فرسان الهيئات الدينية الحربية - الاسبتارية والداوية - كانوا لا يرتدون ملابس انيقة المظهر ، ولا يغتسلون الا نادرا ، ترى الواحد منهم أشعثا مغبرا ، داكن البشرة من جراء ثقل اسلحته وشدة حرارة الشمس • وقد بذل الاسبتارية قصارى جهدهم لامتلاك الخيول القوية السريعة ، ذات الأسرجة البسيطة البعيدة عن الزينة والزخرفة ، وينصب كل تفكيرهم في المعركة واحراز النصر ، ومن ثم اختارهم الله لخدمته (٥) ، مثل نشر روح التقشف والزهدي بين الصليبيين ، وبث روح المثابرة على القتال

(١) King : op. cit. P. 68

(٢) La Roulx : op. cit. P. 288

(٣) سامى سلطان : الاسبتارية فى ردوس ، ص ١٢ •

King : op. cit. P. 69 and Chalandon : Hist. de La Première

Croisade, P. 336 (٤)

Chivalry, P. I

Fedden : Crusader Castles, p. 34 (٥)

والدفاع ضد المسلمين . وكان مما تفخر به بعض العائلات النبيلة الأوروبية أن ينضم أحد أبنائها الى احدى الهيئتين الكبيرتين - الاسبتارية والداوبة - حتى يحظى هذا الابن بالمعرفة الدينية والتدريب الحربى والفروسية (٢) .

أما جماعة الاخوة الرهبان ، فقد انقسمت بدورها الى طائفتين ، الأولى تلك التى قامت بواجبها داخل الدير ، ولذلك عرف افرادها باسم الرهبان الديرين Conventual Chaplains والثانية تلك التى عمل افرادها فى البيوت الاقليمية للهيئة ، ومن ثم عرف افرادها باسم رهبان الطاعة Priests of Obedience (٢) . هذا وقد كان يرأس جماعة الاخوة الرهبان بشقيها رئيس واحد يعرف باسم مقدم الدير ، أى رئيس الدير المركزى ، علما بوجود رؤساء اديرة آخرين فى مؤسسات الهيئة وبيوتها خارج مركز رئاستها ، لهم وحدهم حق الرئاسة على الاخوة الرهبان المقيمين فى دوائرهم ، فاذا تواجد احد هؤلاء الرهبان الى مقر الهيئة ، فان عليه أن يقدم فروض الطاعة لمقدم الدير المركزى (٢) . وقد القى على عاتق الاخوة الرهبان مهمة العناية بالمرضى والجرحى ، والاحتفال بقداس الصلاة ، ومنح الرضاء الدينى لأعضاء الهيئة اذا لزم الامر (٤) .

وكانت جماعة الاخوة الخدم مشتملة ايضا على طائفتين ، مارست الاولى اعمالا مدنية داخل المستشفى والدير ؛ اما الأخرى فقد زاولت أعمالا حربية بالقرب من الفرسان ، ومن ثم عرف افرادها خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر باسم جماعة الاخوة خدام الأسلحة أو جماعة السرجندية Serjeants (٥) . ولا يشترط انتماء السرجندية الى أصل نبيل ، كذلك ليسوا من طبقة الألقان ، وفى السنوات الاخيرة من وجود الهيئة ببلاد الشام تضائل عددهم الى نسبة صغيرة للغاية من اعضاء الهيئة (٦) .

(١) نبيله مقامى : المرجع السابق ، ص ٣٠ .

King : op. cit. P. 70

(٢)

(٢) سامى سلطان : المرجع السابق ، ص ٢٧ .

Chalandon : op. cit. P. 34

(٤)

King : op. cit. P. 68 and Chalandon : op. cit. P. 336

(٥)

King : op. cit. P. 70

(٦)

وقد تشابه التنظيم الادارى فى هيئتي الاسبتارية والداوية ، وان كان هناك بعض الاختلاف الطفيف . ويأتى المقدم Master على قمة التنظيم المركزى فى هيئة الاسبتارية ، غير انه لم يمنح لقب المقدم الأكبر أو السيد الكبير Grand Master الا عام ١٤٨٩ م ؛ وعلى الرغم من سلطته الواسعة ، الا انها كانت مقيدة بما يمليه عليه المجمع العام الذى تألف من جميع اعضاء الهيئة المقيمين فى المقر المركزى ، وله الحق فى اصدا والتشريعات والاوامر النظامية (١) . والمارشال (المشير) Marchal كان مكلفا بالاعمال الحربية للهيئة ، وتوفير حاجة الفرسان من جياد واسلحة ، والاسبتارى Hospitaller كان مسئولاً عن المستشفى وتدبير الادوية ، ويخضع له جميع اطباء والعاملين بالمستشفى ؛ والقماش Drapier كان مسئولاً عن كل ما يتعلق بملبوسات اعضاء المنظمة ؛ وامين الخزينة وهو المسئول عن اموال الهيئة ؛ وامير البحر أو قائد الاسطول ، وقد استحدثت هذه الوظيفة عندما اضحى للهيئة اسطول حربي أواخر القرن الثالث عشر (١) . وبالإضافة الى ذلك ، وجدت مجموعة عديدة من الخيالة الخفيفة أطلق عليها التركوبولية ، تحت قيادة ضابط يدعى التركوبولى Turcopolier (٢) .

أما عن الرداء المميز لطائفة الاسبتارية ، فقد اصدر البابا انوسنت الرابع Innocentius IV عام ١٢٤٨ م ، وثيقة اقر فيها لجميع اعضاء المنظمة من فرسان ورهبان وسرجندية وغيرهم ، بارتداء الرداء (الطيلسان) الرهبانى الأسود ، والمطرز على الصدر صليب أبيض . ولكن الفرسان استنكروا بشدة أن يرتدوا هم ورهبانهم المتوضعين رداء واحدا ، ويتضح ذلك من الوثيقة التى اصدرها البابا الكسندر الرابع Alexander IV عام ١٢٥٩ ، اقر فيها رداء خاصا للفرسان لا يرتديه سواهم ، وهو عبارة عن عباءة سوداء يرتدونها فى الدير تمييزا لهم عن بقية الرهبان ، ومعطف آخر عليه صليب أبيض مثنى الأطراف عند الخدمة العسكرية . وينم هذا عن التطور المنطقى لاستلاء الفرسان المطلق فى الهيئة ، بيد أن ما جاء بتلك الوثيقة لم يوافق الجميع عليه ، لذلك بعد عام من وفاة مقدم الاسبتارية هيوريفيل Hugh Revel عقد

(١) Chalandon : op. cit. PP. 337-339

(٢) Chalandon : op. cit. P. 333 and King : op. cit. 72-73

Archer : op. cit. P. 173

الاحمر وقت الحرب (١) . وقد دخل الاسبتارية تحت لواء النظام الديري
البندكتى المعروف فى غرب أوربا (٢) .

والواقع أن الهيئات الدينية الحربية لعبت دورا بالغ الأهمية فى الدفاع
عن مملكة بيت المقدس طوال القرن الثانى عشر ، وازدادت أملكها عن طريق
المنح والتنازل ، حتى صارت على درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ ، فبعد
سنتين من اعتلاء فولك كونت أنجو عرش مملكة بيت المقدس ، بنى قلعة بيت
نوبة فى منتصف الطريق بين يافا وبيت المقدس لحماية طريق الحجاج من
اغارات المصريين ، عهد بها للاسبتارية . وفى عام ١١٣٦ م منح هيو سانت
ابراهيم الاسبتارية قرية بيت جبرين على الطريق الرئيسى من عسقلان الى
الخليل ، كى يستطيع الاسبتارية الدفاع عنها ضد أى قوات اسلامية تآنى
اليها (٣) . وفى عام ١٩٤٢ م منح ريموند الثانى أمير طرابلس حصن
الأكراد Crac des Chevaliers للاسبتارية ، الذى صار أعظم ممتلكاتهم
أهمية فى الشرق الفرنجى (٤) ، وحافظوا عليه بنجاح حتى الايام الأخيرة
للفرنجة فى الشام . وفى اكتوبر من عام ١١٥٧ م ، وافق الملك بلدوين على
منحة همفري الطورونى للاسبتارية ، وهى نصف قلاع بليناس وشاتانوف (٥) .

وهيات الثروات الضخمة والحشود الهائلة للاسبتارية احتلال المكانة
الاولى فى المملكة . ونستطيع أن نتصور المدى الواسع لممتلكاتهم فى الغرب
الأوروبى ، اذا علمنا انهم قسموها الى سبعة مراكز او بيوت سميت Langues
أى « الألسن » ، ويستفاد من ذلك أن كل مركز غلبت عليه لغة الاقليم الواقع
فى نطاقه (٦) . وفى الأرض المقدسة ، اقتصرت بيوت الاسبتارية والداوية ، التى
كان يشرف على كل منها مقدم ، وفى بعض الاحيان عهد اليه بالاشراف على

King : op. cit. pp. 276—777

(١)

Archer : op. cit. P. 175

(٢)

William of Tyre : History of Deeds Done beyond the
Sea, Vol. P. 542 and King : op. cit. 34.

(٣)

Dussaud : La Syrie Antique, P. 130

(٤)

ويعتبر حصن الاكراد من النماذج الرائعة البالغة الاتقان التى شيدها الصليبيون
فى الشام .

King : op. cit. P. 37

(٥)

Thompson : op. cit. Vol. I P. 407

(٦)

عدة بيوتات ، الامر الذي جعل منصبه بالغ الرفع . ويمكن تشبيه كل بيت بالمستعمرة التعاونية ؛ وبعبارة أخرى مجتمع صغير يكفى نفسه بنفسه ، يتوافر به كل الامكانيات الضرورية للحياة : القوة البشرية ووسائل الانفاج والمهن الحرفية ؛ وبالإضافة الى ذلك كانت تلك البيوت مراكز لتعبئة وتجنيد الشباب (١) .

ونتيجة لنمو الهيئات في العدد والثروة ، انزاح الهدف الدينى بعيدا ، وخرج عن أهدافه ، ليأخذ النشاط السياسى والاقتصادى مكانه . وحصلت الهيئات على استقلالها ، اذ كان من حقها عقد الاتفاقيات الخاصة أو الصلح أو الهدنة مع المسلمين دون الرجوع الى مملكة بيت المقدس ، أو التقيد بالسياسة العامة لها ؛ ولم تعترف الهيئات الدينية بالتبعية الا للبابا في روما مباشرة ، مما جعل منها دولة داخل الدولة (٢) . ومنذ أواخر القرن الثانى عشر بدأوا نشاطهم المالى والمصرفى ، فقدموا تسهيلات ائتمانية للحجاج الوافدين من الغرب ، ولم يتخذ هذا النشاط صورة استغلالية الا بعد ذلك في أواخر العصر الصليبي ، مما أثار ضدهم سخط الكثيرين (٣) .

والجدير بالذكر هنا ، أنه خلال القرن الثالث عشر ، انتقل عبء الدفاع عن الممتلكات الصليبية في الشام الى الهيئات الدينية العسكرية . فالكثير من السادة الاقطاعيين ، بعد أن وجدوا انفسهم عاجزين عن الدفاع عن اقطاعاتهم واملاكهم ضد المسلمين ، آثروا بيعها الى الاسبتارية ، ثم رحلوا الى أوطانهم في الغرب الأوروبى (٤) .

ومن الملاحظ أن صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين اتبع سياسة خاصة تجاه طائفتى الاسبتارية والداوية ، قضت بقتل كل من ينتمى اليهما دون استرقاقه ، وكثيرا مافاضت المصادر المعاصرة بذكر عبارات تدل على كره

(١) Chalandon : op. cit. PP. 337--338 and Archer: op. cit. P. 178

(٢) Richard : Le Royaume Latin, P. III

Longnon : Les Français d'outre Mer, P. 133

(٣) Housset : op. cit. Vol. I PP. 545

سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٧ .

(٤) Archer : op. cit. P. 177

صلاح الدين الشديد لهاتين الهيئتين مثل : « وكانوا (الداوية) ابغض اجناس الفرنج الى السلطان ، لا يكاد يترك منهم احدا الا قتله اذا وقع في المأسورية (١) ومثل : « فان السلطان رحمه الله ما كان يبقى على أحد من الاسبتارية والداوية (٢) ، ومثل : « فأحضرهما (اثنين من الاسبتارية) للقتل على عادته في الداوية والاسبتارية (٣) » . والواقع ان صلاح الدين كان صائب الرأي . ومحقا في كرهه لهاتين الهيئتين ، وذلك لتفكر فرسانهم لجميع المبادئ الانسانية ، « ولانهم أشد شوكة من جميع الفرنج (٤) » .

وقد أدى سقوط بيت المقدس على يد صلاح الدين ، الى أن يفقد الاسبتارية والداوية مراكزهم الرئيسية الأصلية في الشام . وبعد فترة قصيرة استقر كلاهما في عكا ، الى أن سقطت تلك المدينة ايضا في أيدي المسلمين عام ١٢٩١م ، الامر الذي انهى سيطرة الفرنجة ببلاد الشام ، بينما اتخذ كل من الداوية والاسبتارية مقرا لهم في جزيرة قبرص .

وعلى أية حال ، فان الهيئات الدينية الحربية الكبيرة ، يرجع الفضل اليها في الحفاظ على الروح الصليبية للصليبيين ، خلال فترة الضعف والانحلال التي مرت بها مملكة بيت المقدس (٥) .

٢ - هيئة الداوية :

اما الهيئة الدينية الحربية الأخرى المتسabee لهيئة الاسبتارية ، فهي هيئة الداوية . ويرجع تأسيس الهيئة الأخيرة الى عام ١١١٨ م ، ففي ذلك العام توفي الملك بلدوين خلال محاولته غزو مصر ، ودفن الى جانب أخيه جودفري ، وخلفه بلدوين دى بوج كونت امارة الرها . وبعد عام من اعتقاله عرش مملكة بيت المقدس ، برزت الى الوجود مشكلة حماية الحجاج الفرنجة في الطريق من يافا الى بيت المقدس ، ووجد حل كان له آثار بعيدة المدى على تاريخ

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٣٠

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .

مجير الدين الحنبلي : الانس الجليل ، ص ٣٥٥ - ص ٣٥٦ .

(٣) ابن خلدون : تاريخه ، القسم الثالث ، ص ٦٩٠ - ص ٦٩١ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٢ هـ .

(٥)

مملكة بيت المقدس الصليبية (١) • ففي ذلك العام خرج فارس بور جندي يدعى هيو دي باين Hugh de Payns متوجها الى بيت المقدس لاداء فريضة الحج، فشاهد بنفسه مدى مايعانيه المسيحيين من الهجمات الدائمة للمسلمين ، ولذلك صمم على أن يكرس حياته لحماية الحجاج الفقراء على طريق يافا (٢) • وسرعان ما انضم اليه فرسان آخريين حتى وصل عددهم الى ثمانية ؛ عاهدوا الله على العفة والطاعة والتقشف على طريقة الرهبان ، واطلقوا على انفسهم « أتباع جنود المسيح الفقراء » The Poor Fellow of Jesus Christ (٣) وزادوا أن اقسموا اليمين على حمل السلاح وتجريده ضد المسلمين ، وبذلك اصطبغت هذه الجماعة منذ اللحظة الاولى - وهي في دور التكوين - بصفة القتال والحرب (٤) وحصل أولئك الفرسان عام ١١١٨ م من الملك بلدوين الثاني (١١١٨ - ١١٣١ م) على مقر لهم في جناح القصر الملكي بالقرب من معبد سليمان (وهو المسجد الأقصى) في بيت المقدس ، ومن هنا عرفوا باسم فرسان المعبد Knights of the Temple ، أما في العربية فقد عرفوا باسم الداوية نسبة الى محراب داود (٥) • وفي عام ١١٢٧ م رأى هيو دي باين ضرورة الحصول على تاييد البابا لتشكيل الهيئة ، لهذا سافر الى أوروبا ، فأيده الكثير بحماس شديد ، خاصة سانت برنارد رئيس دير كليرفو Honorius II الذي بذل نفوذه لدى البابا ، وفي العام التالي كتب برنارد وثيقة الهيئة ، وعرضت على مجمع تروى ، فنالت الهيئة حماية البابا هونوريوس الثاني Clairvaux وخضعت الداوية لنظام السستريان المعروف في الغرب الأوربي (٦) •

وما أن مرت بضع سنوات على رجوع هيو من رحلته في أوروبا ، حتى مات عام ١١٣٩ م ، خلفا وراءه املاكا شاسعة ؛ وتدخلت هيئة الداوية في المسائل السياسية ببلاد الشام ، وادى توسع نفوذها الاجتماعى والسياسى الى اعتراف البابا أيوجين الثالث بها حتى عام ١١٤٦ م ، كهيئة لها نظامها ،

King : op. cit. P. 31

Archer : op. cit. P. 170

loc. cit.

(٤) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، ص ٩٨ •

Archer : op. cit. PP. 170—171

William of Tyre : op. cit. Vol. I P. 526

Archer : op. cit. PP. 171—172 and King : op. cit. PP. 31—32

وأمر بان يحمل فرسان الهيئة الصليب الأحمر المطرز على أردبتهم البضاء ،
محمرة الصليب رمز للتضحية والاستشهاد والدفاع عن المسيحية ، أما البياض
فرمز للعفة والطهارة (١) .

والهيئتان الكبيرتان الاسبتارية والداوية ، سارقتا في طريقين متوازيين ،
أى أنهما تماثلتا في وجوه كثيرة . فلم تلبث طائفة الداوية أن استقلت استقلالا
تاما عن مملكة بيت المقدس ، ولم يعد لحكومة تلك المملكة أى نفوذ عليها ، وأيضا
رفضت الاعتراف بالتشريع القضائى للبطيريركية مستمدة نفوذها من البابا
في روما (٢) .

وحازت الداوية أيضا ، على الاراضى والمنقولات والعقارات ، بطريق
الهبات أو الشراء ، حتى صار لها ممتلكات ضخمة في الشام وفى الغرب
الأوربى : فرنسا واسبانيا وانجلترا وإيطاليا (٣) .

ويبدو ان فرسان الداوية لم يحافظوا على اهدافهم ومثلهم الأولى ، فقد
نبذوا التواضع ، واتهموا بالجشع والأنانية ، وجعلوا العوامل السياسية
والمالية ، تطغى على العامل الدينى تقريبا ، والحقوا الضرر بالمسيحيين في
بعض الأحيان ، نتيجة تحالفهم مع بعض الامراء المسلمين ، وظهروا بمظهر
الكبرياء والتشامخ (٤) . وبفضل الثروات الضخمة التى حازها فرسان
الداوية ، صار لهم نشاط مصرفى ضخم ، وأضحى بوسعهم تمويل الحملات
الصليبية ، فحملة لويس السابع لم تتحقق الا بفضل الداوية الذين دفعوا له
مبالغ ضخمة ، جرى تسديدها لهم في فرنسا ، ولم ينته القرن الثانى عشر ،
حتى أضحى الداوية يمارسون بانتظام عملية اقراض الاموال نظير فائدة
مرتفعة . ومع أنهم لم يكونوا موضع ثقة من الناحية السياسية ، فان سمعتهم
المالية بلغت من الارتفاع حدا جعل المسلمون يولونهم الثقة ، ويفيدون من

(١) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٢) Chalandon : op. cit. P. 332

C. Med. H. Vol. V. P. 306

(٣) Chalandon : op. cit. PP. 332—333

(٤) Miller : op. cit. P. 528

Grousset : op. cit. Vol. I pp. 543—544

خدماتهم • وإذا كان الاسبتارية والتيتون مارسوا عمليات مالية من هذا القبيل ، إلا أنها كانت على نطاق يقل كثيرا عما كان عند الداوية • وثمة شائعات ترددت عن فرسان الداوية ، أنهم يدرسون فلسفات غريبة ، ويمعنون في طقوس وصفت بأنها هرطقة ، واتهموا بتلقيح الرهبان المبتدئين شعائر وثنية منافية للدين والأخلاق (١) •

وامتلك الداوية في الشام العديد من القلاع ، فقد كانوا سادة قلاع طرطوس ، وتورون ، وشاستيل بلان ، وصافيتا ، وقلعة الحاج (٢) •

ويشهد تاريخ الحروب الصليبية في الشام على أن فرسان الداوية والاسبتارية ، كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال ، وأكثرهم صبرا وشجاعة ، وأنه لولا ما قام به أولئك الفرسان من جهود حربية ، لانتهى أجل الوجود الصليبي بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر بفترة طويلة (٣) • واشتهر الداوية – بصفة خاصة – بشجاعتهم واقدام في الحروب ، فهم أول من يقتحم المعركة ، وآخر من يغادر ساحتها (٤) •

وإذا كانت هيئات الاسبتارية والداوية قد تشابهتا إلى حد بعيد في تأسيسهما وتنظيماتهما واهدافهما على وجه التقريب ، إلا أن العلاقة بين الهيئتين لم تكن ودية ، بل سادتها روح المنافسة والعداء • ففي المعركة لا يحارب الاسبتاري تحت راية الداوي ، ومن ثم لا يقوم الاثنان بعمل مشترك ، الأمر الذي أدى في كثير من الأحيان إلى الحاق الضرر بأى تماسك في المعركة • وترجع المنافسة بين الهيئتين الكبيرتين إلى وقت مبكر ، غير أنها صارت أكثر حدة في القرن الثالث عشر ، ووصل الأمر إلى أن دارت رحى المعارك الضارية بين الهيئتين (٥) •

والتنظيم الإداري لهيئة الداوية ، الذي يشتمل على اصحاب الوظائف

-
- (١) رنسيان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٦٢ •
 (٢) Chalandon : op. cit. P. 332
 (٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٦ •
 (٤) La Monte : Feudal Monarchy, P. 219
 (٥) Archer : op. cit. PP. 186—187

الكبرى ، لم يختلف كثيرا عن نظيره في هيئة الاسبتارية . فعلى رأس هيئة الداوية المقدم الأعلى أو السيد الكبير . وتآلف المجمع العام للداوية من أصحاب الوظائف الكبرى ، بخلاف المجمع العام لهيئة الاسبتارية الذى تآلف من جميع أعضاء المنظمة . وعلى هذا النحو ، فالمجمع العام للداوية كان يشكل مجلسا استشاريا للمقدم الأعلى ، ويفهم من ذلك أن المقدم تمتع بسلطات كبيرة ، غير أنها في الواقع لم تكن مطلقة ، اذ عليه العمل بنصيحة مجلسه الاستشارى (١) . ويلى المقدم الاكبر في المنصب القهرمان (السنجال) Le Sénéchal ثم المارشال Marshal ، وأولئك وقع عليهما عبء تجهيز الهيئة بالأسلحة والأسرجة والخيول . ويلى ذلك مقدموا الاقاليم أو الجيوت Commanders ، وقد اطلق على أقدمهم « مقدم أرض ومملكة بيت المقدس » ، ثم أمين الخزانة الذى اسند اليه ميناء عكا ؛ ويأتى في المرتبة الأخيرة من تسلسل الوظائف الكبرى القماش ويقع عليه عبء تدبير كل ما يتعلق بملبوسات أعضاء الهيئة ، ثم التركوبولى (٢) .

على أن فرسان هيئة الداوية في نهاية عهدهم ، مالبثوا ان انفمسموا في ترف الحياة المادى ، ومالوا الى التنعيم برفاهية الحياة ، ولاقوا نفس المصير الذى لقيه فرسان الاسبتارية ، وبمعنى آخر كانت النهاية الأليمة للهيئتين واحدة (٣) .

٣ - هيئة فرسان التيوتون :

بعد أن تناولنا بالدراسة الدور الذى قامت به الهيئتان الدينيتان الحربيتان الكبيرتان - الاسبتارية والداوية - ببلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ، لم يبق امامنا سوى بعض الهيئات الأخرى ، التى قامت بدور ثانوى ضئيل على مسرح الأحداث التى جرت بين المسلمين والصليبيين . ونعنى بتلك الهيئات : هيئة فرسان التيوتون ، وهيئة القديس توما بعكا ، وهيئة القديس لازاروس .

وهيئة فرسان التيوتون أقل في الأهمية كما اسلفنا القول . وهى ترجع

¹bid., P. 172

Chalandon : op. cit. P. 338

(١).

(٢)

حسن حبشى : الرجوع السابق ، ص ١٠٠ .

(٣)

في أصولها الى عام ١١٢٨ م ، عندما أسس حاج الماني ثرى وزوجته مستشفى مريم العذراء في بيت المقدس ، من أجل مواطنيهم الحجاج الألمان الفقراء ، ويجدونها وضحت بطريقة ماتحت اشراف المقدم الأكبر لهيئة الاسبتارية (١) . وقد اندمج رهبان المستشفى الألمان تحت لواء النظام الأوغسطيني المعروف في الغرب الأوروبي ، وارتدوا عباءة بيضاء مطرز عليها صليب أسود . ولا ريب ان رهبان المستشفى تطلعون الى الاستقلال التام ، اذ قدر لهم في أقل من نصف قرن ، أن يتطوروا الى هيئة شهيرة سميت باسم هيئة فرسان التيوتونون Order of Teutonic Knights (٢) ويجدونها ان تطلع المستشفى للانفصال عن هيئة الاسبتارية ، يرجع الى أنها كرهت أن تكون في موقف التابع . وفي عام ١١٤٣ م اصدر البابا كلستين الثاني Celestine II وثيقة أقر فيها استقلال المستشفى الألماني عن نفوذ مقدم الاسبتارية ، على شرط أن يكون مقدمها ورهبانها من بين الذين لهم القدرة على التحدث باللغة الألمانية (٣) .

وواصلت المستشفى أداء رسالتها الى ان سقطت مدينة بيت المقدس في أيدي صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧ م ، وادى ذلك الى خروج الرهبان من تلك المدينة (٤) . وخلال حصار عكا عام ١١٩٠ م ، أسس بعض التجار من برمن Bermen ولوبك Lubek مستشفى ميدان للصليبيين الألمان التحق بها الرهبان الذين خرجوا من بيت المقدس ؛ وفي مارس ١١٩٨ م تحول هؤلاء الألمان الى هيئة عسكرية ، قصد بها أن تكون النسخة الألمانية من هيئتي الاسبتارية والداوية معا ، اللتان كان العنصر السائد فيهما هو اللاتين (٥) . والمقصود بذلك أن الهيئة سارت على نهج الاسبتارية فيما يتعلق بالاعمال الدينية والخيرية ، وعلى نهج الداوية فيما يتعلق بالنظم الحربية (٦) . وصار اللقب الكامل للهيئة الجديدة هو : الفرسان التيوتونون لمستشفى القديسة ماري في بيت المقدس

Teutonic Knights of the Hospital of St. Mary of Jerusalem

King : op. cit. P. 42, 305

(١)

ibid. P. 42

(٢)

ibid., Loc. cit.

(٣)

Researcher : op. cit. P. 182

(٤)

King : op. cit. P. 305

(٥)

Thalandon : op. cit. P. 343

(٦)

واتخذت من عكا مقراً لها (١) . وجعلت هيئة فرسان التيوتون من نفسها هيئة عنصرية خالصة ، فلا يلتحق بها الا الفرسان الألمان . ويدل ذلك على ان كل عنصر من العناصر الأوروبية احتفظت بطابعها الخاص المستقل ، لاسيما في تكوين الهيئات الحربية الدينية . فمعظم فرسان الاسبتارية كانوا من الانجليز والايطاليين ؛ وغالبية فرسان الداوية كانوا من الفرنسيين (٢) . وفي عام ١٢٢٧م بنى الفرسان الألمان قلعتهم الكبيرة ستاركنبيرج Starkenburg أو ميونتفورت (القرين) على الحدود الغربية للجليل ، شمال فلسطين . وارتدى فرسان الهيئة اردية بيضاء مطرز على صدرها صليب أسود (٣) .

وفي عام ١٢٢٦م عين الامبراطور فردريك الثاني أحد الامراء الألمان مقدماً اكبر للهيئة ، ومنحها امتيازاً بان يحمل الفرسان شعار النسر الامبراطوري فوق أسلحتهم ؛ كذلك أهدى الامبراطور المقدم الأكبر للهيئة خاتماً ثميناً ، لا يزال يستخدم حتى الوقت الحاضر عند تنصيب المقدم الأكبر للمنظمة . ومن الجدير بالذكر ان هيئة فرسان التيوتون ، كانت الوحيدة التي سافدت الامبراطور فردريك الثاني ، عندما أصدر البابا قرار الحرمان ضده ، ووصفه بأنه عدو للعالم المسيحي ، فأعلنت تحديدها لذلك القرار ، نظراً لما يربط مقدم الهيئة بالامبراطور من علاقات المودة والصداقة (٤) .

ولم تختلف هيئة فرسان التيوتون عن هيئتي الاسبتارية والداوية في تقديم المساعدات الحربية للدفاع عن الشرق الفرنجي ، بيد أنها في الواقع لم تستطع منافسة الهيئتين الكبيرتين من ناحية القوة والنفوذ ببلاد الشام (٥) . وعلى عهد هرمان فون سالزا Herman Von Salza المقدم الأعلى لهيئة التيوتون الذي تولى في الفترة من عام ١٢١٠م الى ١٢٣٩م ، نهضت الهيئة ، ونمت ثروتها ؛ ومن المحتمل انه لمس الوضع السيء للفرنجة بالشام ، فأخذ يوجه اهتمامه الرئيسي الى شواطئ بحر البلطيق . النائية لنشر

King : op. cit. P. 305 (١)

Kantorowicz : Frederik the Second. P. 88 (٢)

Archer : op. cit. P. 182 (٣)

Kantorowicz : op. cit. PP. 193--194 (٤)

Duggan : The Story of the Crusades. P. 225 (٥)

King : op. cit. P. 169

المسيحية بين البروسيين والليفونيين الوثنيين ، وفي مقابل ذلك العمل ،
حاز الفرسان على أراض وقلاع منذ عام ١٢٢٦ م (١) .

وبعد سقوط عكا في أيدي المسلمين عام ١٢٩١ م غادرت هيئة فرسان
التيوتون بلاد الشام ، وتوجهت الى املاكها على بحر البلطيق لتبشر عملا
من نوع آخر .

٤ - هيئة مونجوى :

لم تكن تلك الهيئة معروفة الا قليلا ، حتىلقى الضوء على تاريخها
المؤرخ ديلافيل لارولكس Delaville le Roux . وهي هيئة اسبانية .
ترجع أصولها الاولى الى عام ١١٧٦ - ١١٧٧ م ، عندما تنازل وليم دى
مونقترات وزوجته سيبييل للكونت رودريج Rodrigue لها باربعة من الأبراج
فى عسقلان ، أهمها جميعا برج العذارى (٢) . وفى حوالى عام ١١٨٠ م تشكلت
الهيئة باسم هيئة مونجوى L'Ordre de Montjoye وتؤكد تشكيلها بوثيقة
من البابا الكسندر الثالث صدرت فى ١٥ مايو من نفس العام ، وقد التزمت
الهيئة بالنظام السستريانى . ولم نستطع التيقن من الدور الذى قامت به
تلك الهيئة فى الاوضاع الاجتماعية بالشام ، حتى يمكن الحكم على نشاطها .
ويبدو أن الدور الذى قامت به ضئيلا للغاية ، لاننا نسمع ان هيئة الداوية
استوعبت (امتصت) تلك الهيئة حوالى عام ١٢٠٤ م (٣) .

٥ - منظمة القديس توما بعكا :

وهي أيضا من الهيئات الدينية الحربية الغامضة التى قامت ببسلاد
الشام ولا نعرف عنها الا القليل . تلك هي المنظمة الانجليزية المعروفة بهيئة
فرسان القديس توما بعكا

The Order of the Knights of St. Thomas of Acre.

ويرجع الفضل فى انشائها الى راهب انجليزى يدعى وليم ، جاء مع الحملة
الصليبية الثالثة عام ١١٨٩ م ، تابعا لراف دى ديسيتو ، وقد كرس هذا
الراهب وقته للعمل من أجل دفن الموتى المسيحيين فى عكا ، وبنى كنيسة

Miller : op. cit. P. 529

(١)

Richard : op. cit. P. III

(٢)

Chalandon : op. cit. P. 344

(٣)

صغيرة ، واشترى قطعة من الأرض لاستخدامها جبانة ، واهداما للشهيد القديس توما (١) . ويبدو ان فرسان تلك الهيئة كانوا قلة من حيث العدد ، فضلا عن أنهم كانوا فقراء ، وعندما زار بيتر دى روش فلسطين عام ١٢٣١ م ، بنى للهيئة كنيسة جديدة ، ووضع الفرسان تحت اشراف هيئة الدلوية ، واوصى لهم في وصيته بمبلغ خمسمائة مارك (٢) . وجرى اتخاذ الفرسان رداء مميزا لهم ، يتألف من معطف أحمر ، مطرز عليه صليب أبيض ؛ وعندما اتى الأمير ادوارد ولى عهد إنجلترا الى عكا عام ١٢٧١ م ، بنى للفرسان كنيسة جديدة . وقد استمرت الهيئة فى تأدية دورها الى أن سقطت عكا فى ايدى المسلمين ، فنقلت نشاطها الى مملكة قبرص ، وظلت تمارسه حتى نهاية القرن الرابع عشر (٣) .

٦ - هيئة القديس لازاروس :

ترجع الأصول الأولى لهيئة القديس لازاروس St. Lazarus الى مستشفى اقيم فى بيت المقدس لرعاية مرضى الجذام ، وبعد الغزو الصليبي الذى انتهى بالاستيلاء على بيت المقدس ، أضحت هيئة دينية عسكرية مثل الهيئات الأخرى ، ولكنها اهتمت فى المقام الأول بالمجنومين . ومن المصادر التى توفرت لدينا حتى الآن ، لم تقابلنا أية معلومات عن النشاط الحربى لتلك الهيئة (٤) .



Stubs : Seventeen Lectures, I'P. 209—210

(١)

Archer : op. cit. P. 183

Stubs : op. cit. P. 210

(٢)

Archer : op. cit. P. 183

(٣)

King : op. cit. PP. 303—304

(٤)

Ency. Britt. Art. Knighthood.

ثالثاً - طبقات المجتمع الصليبي

بعد أن تم للصليبيين الاستيلاء على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، تكونت الإمارات الصليبية بالشام ، من مملكة بيت المقدس الصليبية ، تنزع ثلاث إمارات هي الرها وانطاكية وطرابلس . وقد قام التنظيم في تلك المملكة على أساس النظام الاقطاعي الغربي ، الذي كان سائداً في أوروبا وقتئذ ، اذ كان قادة الحملة الصليبية الأولى من سادة الاقطاع الأوروبي ، ومن الطبيعي أن يقيموا النظام الذي عرفوه ، ونشأوا فيه ، والذي لم يكن هناك غيره . ونظراً لأن المسلمين دأبوا منذ قيام الإمارات الصليبية وسط بلادهم على شن الحروب والغارات على الصليبيين للعمل على استعادة ممتلكاتهم حتى تم لهم ذلك ، الأمر الذي أدى تعرض مملكة بيت المقدس للعديد من الأخطار طوال وجودها . ولهذا فقدت اختلفت العلاقات الاقطاعية بالشام ، عما جرى بأوروبا الغربية التي تمتعت وقتذاك بقسط من الهدوء لم يتوافر في الإمارات الفرنجية بالشرق ، التي غدت في حالة حرب دائمة (١) .

ولا يخفى علينا أن الكيان الصليبي الذي قام وعاش في بلاد الشام ، ظل دائماً قلة قليلة ، بعد أن عادت نسبة كبيرة من الصليبيين الغربيين ممن اشتركوا في الحملة الصليبية الأولى الى أوطانهم في الغرب الأوروبي . في نفس الوقت تألفت الغالبية العظمى من سكان مملكة بيت المقدس الفرنجية بالشام من المسلمين والمسيحيين الشرقيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم (٢) .

ولا يستطيع المرء أن يقدر عدد السكان المسلمين والصليبيين ، الذين عاشوا ببلاد الشام عقب وصول الحملة الصليبية الأولى الا تخميناً . فالبعض يرى ان المسلمين الذين تعرضوا للغزو ، فهلك الكثير منهم ، واضطر عدد كبير

(١) الباز العريضي : الاقطاع الحربي عند الصليبيين ، ص ٣ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٩ .

ايضا للهجرة فرارا من الغزو ، لم يتبق منهم سوى بضعة مئات الالوف من الرجال ، من المحتمل من أربعمئة الى خمسمئة ألف • أما الصليبيون الذين رحلوا من الغرب الاوروبى تلبية للدعوة الصليبية ، فقد تراوح عددهم بين ١٥٠.٠٠٠ و ٢٠٠.٠٠٠ نسمة وبفقدان حوالى الثلثين منهم فى الطريق ، لايتجاوز عددهم عند الوصول الى حدود الشام بخمسين ألفا ، ومن هذا العدد الاخير غادر ثلثه الأرض المقدسة بعد الاستيلاء على بيت المقدس مباشرة ، أما الباقي فقد رحل معظمهم بعد أن زال السراب الكاذب عن الثروات التى فى استطاعتهم احرازها (١) •

واذا كانت الاقلية الصليبية ، قد استطاعت الاحتفاظ بنفوذها السياسى لمدة تقرب من قرنين من الزمان ، الا انها لم تستطع الاحتفاظ بعاداتها وتقاليدها الغربية سليمة نقية ، وانما اضطرت بحكم قلة عددها أن تفقد كثيرا من صفاتها الأصلية ، وتكتسب التعديلات الجديدة (٢) • ونستطيع أن نضيف الى ذلك ، أن الصليبيين انتصروا بالقوة العسكرية على شعوب أعرق منهم حضارة وتقدما ، ولكنهم تأثروا بتلك الشعوب مع أنها قوة مهزومة عسكريا •

أما الطبقات التى تألف منها المجتمع الصليبي ببلاد الشام على عصر الحروب الصليبية فنجملها فيما يأتى :

١ - الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان :

وهؤلاء كانوا قلة ، اذ لم يزد عددهم فى مملكة بيت المقدس عن ألف من الرجال ، ومثلهم من النساء والأطفال ، ومثل ذلك العدد أيضا فى امارات الرها وانطاكية وطرابلس مجتمعين • وقد ظلت الطبقة التى كان من المفروض أن تظل بمثابة العمود الفقرى للمجتمع الصليبي بالشام ، تعاني نقصا كبيرا فى العدد بسبب كثرة الضحايا فى الحروب ، وقلة الوارد من الغرب (٣) • فوفقا لريموند أجيل Raymonu of Aguilers الذى لايرقى الشك الى ما أورده من أرقام عن الجيش ، بلغت القوة الحربية الضاربة قبل بداية الهجوم أثناء

Clulandon : op. cit. PP. 285—286

(١)

(٢) سعيد عاشور : نفس المرجع والصفحة •

(٣) سعيد عاشور : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٤٩٢ •

ليلة ١٣ - ١٤ يولييه على بيت المقدس وقتذاك ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ من
الفرسان (١) . واذا كانت جموع الحجاج لم ينقطع وصولها الى الشام منذ
سقوط بيت المقدس ، فان القليل منها فضل الاقامة في الشام بعد أداء فريضة
الحج ، أما الغالبية العظمى فكانت تؤثر العودة الى غرب أوروبا . ثم انه
اذا كان الصليبيون قد انجبوا الكثير من المواليدين في بلاد الشام ، فانه لم يعيش
منهم الا عدد قليل ، بسبب العوامل الجوية والصحية التي لم يألفوها .
والخلاصة انه اذا أضفنا أقارب النزلاء من الطبقة الحاكمة من النساء والشيوخ ،
وفي نفس الوقت اسقطنا من اعتبارنا طبقة رجال الدين الذين لم يتجاوز
عددهم بضع مئات ، وهيئات الفرسان الرهبان ، فان عدد البالغين من الطبقة
الارستقراطية الحاكمة من النبلاء ، يتفاوت من الفين الى ثلاثة آلاف في بيت
المقدس . والراجح أن مجموع عدد فئات الفرسان في انطاكية وطرابلس والرها
لم يزد على ذلك (٢) .

ومن الملاحظ ان الطبقة الحاكمة الارستقراطية من النبلاء والفرسان
ظلت نكية في بيت المقدس ، على حين أنه حدثت في الرها وانطاكية مصاهرات
مع الارستقراطية المحلية من الروم والارمن . فالمعروف أن بلدوين الأول ،
عندما أسس كونتية الرها ، وانشغل في توسيع رقعة حدودها ، فضلل
الزواج بأرمينية تدين بالمذهب الأرثوذكسي ، كى يكون أكثر ارتباطا بشعب
مسيحي وطني (٣) . وشجع بلدوين الأول المصاهرة بين الفرنج والسكان
الوطنيين ، بعد أن جعل من نفسه مثالا على ذلك ، على انه لم يقدم على الزواج
من الوطنيات الا عدد ضئيل من النبلاء والبارونات (٤) . واحتذى بلدوين
الثاني الذي تم تقويجه ملكا على بيت المقدس في ١٤ ابريل عام ١١١٨ م .
حزو بلدوين الاول ، فتزوج من ارمينية تدعى مورفيا (٥) . أما زوجة
جوسلين الأول ، وزوجة واليران سيد البيرة ، فكانتا أرمينيتين تنتميان الى

Recueil des Historiens des Croisades. Occ. Vol. III (١)

PP. 298—299

(٢) رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٦٧ - ص ٤٦٨ .

Hulme : The Middle Ages, P. 479 (٣)

(٤) رنسيما : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

William of Tyres : op. cit. Vol. II PP. 512—513 (٥)

الكنيسة الأرمنية المنشقة • وتزوج بلدوين الثالث وعموري الأول من أغريقيات (بيزنطيات) (١) • ومن المؤكد أن السريان أخذوا دورا في النبالة اللاتينية ، فمن بين الأسماء لعائلات ما وراء البحار ، ظهر العديد منهم من أصل وطني وتدعى تلك العائلات آل غراب Les Ghorai وآل المنصور Les Mansoer (٢)

وبوفاة بلدوين الثاني عام ١١٣١ م ، انقضى الجيل القديم للرواد الصليبيين ، اذ في السنوات التالية ، نصادف جيلا جديدا ، على استعداد لان يتلاءم مع أساليب الحياة الشرقية ، بخلاف القادمين من الغرب ، المشهورين بالميل الى الاعتداء والقتال ، ولم يكونوا قابلين لتشرب الحياة الشرقية ، ومن هؤلاء ريجنالد شاتيون (٣) • وقد ادرك المسلمون فظاظة الوافدين الجدد الى الارض المقدسة ، والفرق بينهم وبين الذين استقروا ، فوصفهم اسامة بن منقذ : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية ، أجفى اخلاقا من الذين قد تبدلوا وعاشروا المسلمين » (٤) •

ولدى وفاة بلدوين الثاني أيضا ، كانت مملكة بيت المقدس مع اقطاعاتها قد اكتملت • ويعتبر عهد بلدوين الثالث من أهم المراحل في تاريخ الحروب الصليبية ، اذ تم في عهده (١١٤٣ - ١١٦٣ م) اكتمال نمو وتطور الامارات الصليبية ، فاصاب تقاليدها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية ، من التعديل والتغيير ما جعلها تناسب أحوال الشرق • وفي منتصف القرن الثاني عشر بلغت الامارات اللاتينية في تطورها مرحلة تهيأ عندها ، لكل امانة من الاحوال ما يجعلها تستقل بامورها فقد ترتب على ذلك أن جرى الميل الى اغفال الروابط الاقطاعية ، ولم تعد ملك بيت المقدس من مكانة الا باعتباره مقدم الاسواء Primus inter pares (٥) •

على ان الارستقراطية الحربية ، كانت هي الطبقة الحاكمة بين الفرنجة • ومن الطبيعي ان الحرب كان هو لشغل الشاغل لتلك الارستقراطية ، ووجود

Miller : op. cit. P. 523

Lammens : La Syrie Précis Historique Vol. I. P. 241

(٣) رنسيان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ •

(٤) الاعتبار ، ص ١٣٤ •

(٥) الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص ٦٢٣ - ص ٦٢٤ •

تلك الطبقة يلقي ضوءاً على طبيعة الاستقرار اللاتيني . وقد اعتمدت تلك الطبقة على القلاع والحصون التي كانت تمثل الأساس المادى للسيادة (١) .

والصفات التي يجب أن يتحلى بها الفارس ، التمسك باهذاب الفضيلة ، والقُدوة الحسنة في تصرفاته ، اذ ان الفروسية تعنى لدى الفارس الحرب والعقيدة والبسالة ، وكل عامل من تلك العوامل على التوالي يؤكد الخصال الضرورية للفارس الحقيقى . فعلى العامل الحربى ارتكزت الفضائل الاولى للفروسية وهى ثلاث : « الشجاعة والاخلاص والكرم ، ومن العقيدة اشتقت الفضائل الثانية وهى الاخلاص للكنيسة والطاعة والعفة ؛ أما الفضائل الثلاث الاخيرة التى تأتى فى المرتبة الاخيرة ، فهى اجتماعية بطبيعتها : الكياسة والتواضع والاحسان (٢) وكان جزاء الفارس الذى يتخلى عن تلك المبادئ الانسانية رادعا ، فقد روى لنا جوفانيلى أن أحد الفرسان فى قيسارية ، امسكوة فى بيت من بيوت العاهرات ، فخبروه - وفق عادات البلد - بين أن تأخذ المرأة العاهرة بمقوده فى المعسكر وهو فى قميصه ، وقد شدته بحبل تجريسا له ، وبين أن يتخلى عن حصانه وسلاحه ويطرد من الجيش ، فأثر الفارس التخلي عن فرسه وسلاحه وترك الجيش (٣) .

وقد لعبت النساء النبيلات دورا هاما فى الامارات الصليبية . فقوانين مملكة بيت المقدس لم تحرم الاناث من وراثة العرش ، وقد أدى التنافس والتكالب على الوارثات النبيلات الى وجود مشاكل سياسية خطيرة فى المملكة (٤) كان لها اخطر النتائج . فالبعض من الفرسان المغامرين المفلسين ، والأبناء الصغار من الفرسان الذين ليس لهم اقطاع ، وفدوا الى الشام الفرنجية ليجربوا حظهم مع النبيلات صاحبات الاقطاع . وقد نجح فى ذلك جاي لوزيجنان ، مما أدى الى غيرة المنافسين الأقل حظا . ويروى أن كارثة حطين التى أدت الى سقوط بيت المقدس عام ١١٨٧ م فى ايدي المسلمين ، كان سببها المباشر انتقام رجل انجليزى يسمى جيرارد دى ريد فورد ، فشل فى طلب

Small : Crusading Warfare. PP. 60—62 (١)

Hearnshaw : Chivalry, P. 180 (٢)

(٣) حسن حبشى : القديس لويس ، ص ٢٢٤

Miller : op. cit. P. 521 (٤)

يد امرأة • فقد أتى جيرارد الى الارض المقدسة كفارس لا هدف له ، يلتمس حظا موقفا • فوعده ريموند الثالث صاحب طرابلس بان يزوجه من القاصرة وارثة البترون الثرية بصفته الوصى عليها • ولكن وصول احد أثرياء بيزا غير الوضع ، فقد أتى بميزان وضع السيدة الوارثة في احدى كفتيه ، وفي الكفة المقابلة اكياس الذهب ، وأعطى للكونت وزنها ذهباً ، وبالطبع زوجه من وارثة البترون التي يبدو انها كانت ذات جمال وافر • ولم ينس الرجل ذلك الصدود • وحالفه التوفيق في مجال آخر ، فقد التحق فارسا بهيئة الداوية ، وتدرج في سلم الوظائف الكبرى الى ان صار صنجيلا ثم بعد ذلك مقدما للهيئة • ولكنه لم ينس مطلقا أن ريموند خدعه مرة ، فرد اليه الصفة ليلة حطين ، بأن حث الملك الضعيف على رفض استراتيجية ريموند (١) • وثمة مثال آخر لفارس محظوظ ، وهو رينودي شاتيون - الذي عرفه العرب باسم ارناط - ، الذي أتى الى الشام سنة ١١٤٧ م ليحرب حظه ضمن حاشية لويس السابع ملك فرنسا ، وقد كان ابنا اصغرا لا اقطاع له • واستطاع ارناط الزواج بالارملة الاميرة كونستانس الوصية على الوريث الشرعى لامارة انطاكية ، فحكم الامارة لصالح ابن الزوجة • ويبدو أن ذلك الزواج كان غير متكافئ ، فانتشرت حوله الشائعات المحلية ، خاصة من البطريك الذي عارض ذلك الزواج • فما كان من المغامر الفرنسي الا ان قام بتجريد البطريك من ملابسه، ولطخه بالعسل، وتركه وليمة للذباب خلال يوم صيف طويل (٢) • وقدر لارنات أن يقع في اسر المسلمين اثناء قيامه بحملة لسرقة الماشية ، وبقي سجيناً في حلب مدة خمسة عشر عاما • وبعد ان اطلق سراحه ، وجد ان زوجته قد توفيت ، وان ابن زوجته اعتلى عرش انطاكية • ومن ثم تطلع باحثاً عن وريثة أخرى ، فوجد فرصته المنشودة في البارونة الارملة صاحبة الاردن (٣) •

وعلى أية حال ، فقد عاشت الطبقة الحاكمة من النبلاء والبارونات والكونتات والفرسان - فيما عدا التجارة والحرب - عيشة اميل الى الدعة

Miller : op. cit. P. 522

(١)

Ibid : Loc. cit.

(٢)

Miller : op. cit. PP. 522-523

(٣)

والتراخي . وقد دفعهم الى ذلك توفر وسائل الراحة ، والفراغ الكبير . فلم تكن ايامهم كلها حروبا ، بل كانت فترات السلم خلال وجود الكيان الصليبي اطول من فترات الحروب . عاشوا في قصور فخمة ، حتى قلاعهم وحصونهم التي كان الغرض الاول منها دفاعي ، قاموا بتجهيزها بوسائل الراحة والترفيه . وسنرى فيما بعد أن أولئك الفرنجة قلدوا المسلمين في الاستمتاع بالحياة . ولا عجب في ذلك ، فالمسلمون أصحاب حضارة روحية ومادية وفكرية عريقة ، لم تشاهدها جيوش الزحف الصليبي من قبل .

ومن وسائل الترفيه عند النبلاء الحمامات الشرقية ، والمقامرة ، وسماع المغنيين ، ومشاهدة الرقص ، وعرض المسرحيات عند التتويج . كذلك انتشرت لعبة النرد ، وكان بلخوين الثالث يقضى معظم وقته في ممارسة تلك اللعبة ؛ وفي الشمال ، في انطاكية والرها ، حرص أمراءهما على حمل صناديق النرد خلال القيام بغزوات أو اغارات ضد المسلمين ، مما أدى الى اضعاف الروح المعنوية لدى العديد من ضباطهما . وبالإضافة الى ذلك ، زاول الأمراء الصيد بالباز ، على الطريقة العربية ، وكان الصيد من التسلية المفضلة لديهم (١) .

٢ - طبقة الأفراخ (البولانيون) :

وتعني طبقة الأفراخ أو البولانيون Pullani الإبناء المنحدرين من الزيجات المختلفة ، بين الفرنجة والمسيحيين الوطنيين من أرمن ويعاقبة وسريان وغيرهم ، وقد كثرت تلك الزيجات خاصة في المدن (٢) . ومما لا شك فيه أن الزواج المختلط بين الفرنجة والوطنيات السوريات كان نادرا للغاية (٣) ، كما أن تزواج الفرنجيات من السوريين كان أكثر ندرة .

وقد تناول الكتاب المعاصرون وصف البولانيين بعبارات بعيدة عن الاطراء . فأسقف عكا جاك دي فيتري وصفهم قائلا : « انهم تربوا في الترف ،

(١) Ibid., P. 530

(٢) Lammens : La Syrie Précis Historique. Vol. I P. 241

(٣) Grousset : L'Empire Du Levant. pp. 315—316.

وهم نموذج للنعممة والتخنت . اعتادوا التردد على الحمامات الشرقية ، بدلا من التوجه الى ساحات المعارك ، بهم ميل الى الرفاهية ، وارتداء الاثواب الناعمة كالنساء ؛ كسالى خاملون ، جبنا ، (١) .

وكان البولانيون على استعداد لعقد الصلح مع المسلمين . والعيش معهم في سلامة ؛ واذا حدثت مشاجرات داخلية بين البولانيين ، فانهم مالوا الى طلب المساعدة من المسلمين بدلا من الصليبيين . ولطبيعتهم - او لمصالحهم - عارضوا وصول الوافدين الجدد من الصليبيين ، ذلك لان الحرب ستتدخل في تنشئتهم ، وتعطل مصالحهم التجارية مع المسلمين (٢) .

اما عن الحياة العائلية ، فقد قلد البولانيون المسلمين ، فنسائهم محجبات ، ولم يسمحوا باختلاط الرجال مع النساء ، واذنوا لزوجاتهم بالذهاب الى الحمامات ثلاث مرات في الاسبوع . والتردد على الكنيسة مرة واحدة في السنة (٣) .

من ذلك يتبين لنا أن جاك دي فيتري قد جاوز الصواب في مهاجمته لطبقة البولانية ، وانتقاده لها بشدة . فقد نسي ذلك الاسقف ان الجيل الجديد المهجن من البولانيين ، لم ينشأ في يوم وليلة . ولكنه جاء نتيجة استقرار الصليبيين في الأرض المقدسة ، واختلاطهم بأهالي البلاد ، بعد أن استوعبوا عاداتهم وتقاليدهم ، وتخلوا عن تعصبهم . وقسوته في الكتابة لم تقتصر على الغربيين فقط ، بل انصبت أيضا على مواطني الجمهوريات الإيطالية والسوريين وغيرهم ؛ وربما كان تعصبه كرجل دين جعله يصدم في شعوره ؛ ومما لا شك فيه أن تشهيره يوضح التناقض القديم بين الروح الصليبية والروح الاستعمارية (٤) . وشدما اختلف وصف جاك دي فيتري عن الوصف الذي تركه لنا فوشيه دي شارتر ، Foucher de Charler مؤرخ الحملة

Miller : op. cit. pp. 523—524. (١)

Ibid. p. 524. (٢)

Loc. cit. (٣)

Grousset : Histoire des Croisades, T. III n. (٤)

الصليبية الأولى . فقد قال عن الصليبيين الذين اندمجوا مع الاهالى الوطنيين :
 « الآن ضرنا - نحن الذين كنا غربيين - شرقيين . ومن كان منا ايطاليا او
 فرنسا ، اصبح في هذه البلاد جليليا او فلسطينيا . والذي كان من مواطني
 ريمس او تشارتر أصبح الآن سوريا او انطاكيا . لقد نسينا الاماكن التي
 ولدنا فيها . واكثرنا لا يعرفها . بل لم يدمعوا بها . ولكل منا بيته واهله ،
 كما لو انه ورثه من ابيه او من شخص سواه . وتزوج بعضنا لا من بنات
 اوطاننا وانما من سوريات وازمنبات . وحتى من مسلمات متنصرات .
 واصبح من كان منا يعد اجنبيا . مواطننا ، ومن كان مهاجرا صار من اهل
 القرار . وفي كل يوم يلحق بنا الى الشرق اقارب واصدقاء ، تاركين وراءهم
 كل ما كان في حوزتهم وهم في الغرب . واما من كانوا فقرا ، هناك فقد انماهم
 الله هنا . ومن كان خاوي المدين الا من دريهمات معدودات ، أصبح لديه من
 القطع الذهبية ما لا يحصره عد . ومن لم تكن لديه مذابة ادس أصبح يمتلك
 - والمعطى هو الله - مدينة برمتها . فلماذا نجهل اذا الى الغرب ما دام الشرق
 يهيىء لنا كل هذا ؟؟ (١) .

ومهما كان الامر ، فان البولانيين دليل واضح على أن البيئة الشرقية
 أذابت عددا من الغربيين الاوروبيين في بيئتها ، وهضمتهم . وليس بغريب
 أن نشاهد في الوقت الحاضر ، نساء ورجالا من ذوى العيون الزرق والشعر
 الاشقر في مدن مثل أجدين (أمدين) في شمال لبنان وبيت لحم والعريش
 وهناك اسر اغلبها لبنانية نصرانية ، مثل عائلة كرم وفرنجية وصليبي ،
 قد حافظت على تقاليد انحدارها عن أسلاف فرنج ، ويقال ان أسماء بعض
 الاسر الاخرى كصوايا مشتق من ساغوا Savoie ، والدويهي من de Douai
 والبركويل من بلدوين (٢) .

Grousset : op. cit. Vol. I p. 287

(١)

برنارد لويس : العرب في التاريخ ، ص ٢١٦ - ص ٢١٧ .

Hitti : History of the Arabs. pp. 669-670.

(٢)

٣ - طبقة الأحرار أو البورجوازية :

شكل الأحرار أو البورجوازية في مملكة بيت المقدس طبقة مميزة متفوقة. أرسنقراطيته ، وهم أولئك الرجال من العامة ، الذين استتركوا في الحروب الصليبية برفقة البارونات والكونتات ، كذلك من الأوروبيين الوافدين إلى بلاد الشام بهدف ممارسة التجارة (١) . وقد احتشد البورجوازية في المدن الساحلية وعدد معين من المدن الداخلية ؛ وادت الثروة التي حصلوا عليها إلى إضفاء أهمية ليهم (٢) . ويرى البعض أن الطبقات البورجوازية ، لم يكن لها فيما يبدو ، دور في التجارة الدولية ، بل قصرت نشاطها على إقامة الدكاكين ، وصناعة السلع اللازمة للاستهلاك المحلي (٣) . وعلى الرغم من أن طبقة البورجوازية كانت في منزلة أدنى من طبقة النبلاء ، إلا أنها احتلت مكانة اسمى من السكان الوطنيين (٤) .

وكان للبورجوازية سلطة قضائية خاصة ، تشبه السلطة القضائية للسادة الإقطاعيين ، وتألقت محكمتهم من اثني عشر من المحلفين برئاسة موظف ملكي يدعى فيكونت Viconte ؛ والجدير بالذكر أن البورجوازيين تمكنوا بمساعدة ملوك بيت المقدس من الوصول إلى رتبة الفارس (٥) . ذلك أن البورجوازي الذي كان يستطيع حمل السلاح إذا اقتضت الحال ، فإنه يستطيع الارتقاء إلى النبالة ؛ ففي عام ١٩٥٢ م استطاع بورجوازية بيت المقدس ، خلال غياب الجيش الملكي ، أن يردوا هجوم تركمان ياروق ببسالة ؛ وفي عام ١١٨٧ م منح باليان الثاني Balian II d'Ibelin رؤساء بورجوازية

(١) Longnon : op. cit., p. 134

(٢) Ibid. pp., 134—135

(٣) رنسيان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦١٦ .

(٤) Lamb : The Crusades, p. 382

(٥) Longnon : op. cit. p. 135

Lammens : op. cit. Vol. I p. 240.

مدينة بيت المقدس نمب فارس ، حتى يستطاعوا الدفاع عن المدينة ضد صائح الدين الايوبى (١) .

وقد تمتعت طبقة البورجوازية الفرنجية فى الشام بوضع يفوق نظيرتها فى فرنسا ابان الحروب الصليبية ، اذ من الواضح ان طبقة البورجوازية فى الغرب ، اتسمت اهميتها بالضآلة اول الامر (٢) . فقد صدر قانون فى السنة اى الاولى من الاحتلال الصليبي ، حرم على الطبقة البورجوازية امتلاك الاراضى فى الشام ، ولكن هذا القانون سرعان ما ابطال ، اذ كان من المستحيل منع للتجار الفرنسيين والايطاليين والفلمنك والالمان والانجليز ، من الحصول على حيازات صغيرة من الاراضى الزراعية ، مثل الحدائق والكروم والنبساتين (٣) .

واستطاعت تلك الطبقة فى الشام ان تؤلف مجتمعا متمتعا بالحكم المحلى الذاتى ، قادرا على مزولة التجارة من جهة ، وممارسة الحرب من جهة اخرى . ومن المشاهد ، أنه كان للبورجوازية فى الشام ، قوة عسكرية محلبة ندعى الميليشيا البورجوازية *Burgher Militia* . كان من الممكن ان تحارب جنبا الى جنب مع جيوش البارونات وفرسان الهيئات الدينية الحربية ، لولا ما انتصفت به تلك الجيوش واولئك الفرسان ، من كبرياء اجتماعى حال دون ذلك (٤) . ولم تكن البورجوازية ملزمة بتقديم أية واجبات السيد الاقطاعى ، وايضا لم تكن مجبرة على تقديم الخدمة الحربية له ؛ وكل ما عليها ان تجهز عددا معينا من فرق المشاة للجيش الصليبي (٥) . هذا واذا راعينا الطبقة البورجوازية ، بعد استقرارهم بالشام الى التزاوج من المسيحيين الشرقيين المحليين - وبخاصة الارمن - ؛ مما ادى الى ظهور طبقة البولانيين او الافراخ فى منتصف القرن الثانى عشر (٦) .

(١) Grousset : *L'Empire du Levant*, pp. 314-315.

(٢) Jacob : *op. cit.* p. 382

(٣) Thompson : *op. cit.* Vol. 1. p. 399

(٤) *Ibid.* p. 400

(٥) Chalandon : *op. cit.* pp. 302-303

(٦) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

٤ - الرقيق والاقتنان :

من المعروف أن النظام الاقطاعي في الغرب الاوروبي قام على أساس العلاقة بين حر وحر ، وتبعية سيد لسيد آخر أقوى منه ، وذلك في ظل اطار محكم من الحقوق والواجبات المتبادلة . أما النظام السنيوري Scignorial System فعلى العكس ، فهو يمثل علاقة سيد حر وقن خاضع مقيد بالارض غير حر ، لابين تابع حر ومتبوع حر . وهناك من الاسباب التي جعلت القن ارتبط بالارض في الغرب الاوروبي ، فقد كان عليه أن يقوم بخدمات معينة . ودفع ضرائب محددة للسيد الاقطاعي ، فاذا عجز عن الوفاء بهذه الخدمات والاموال ، فانه في هذه الحالة يكون عرضة لأن يلفظه المجتمع الذي يعيش فيه ، عن طريق البيع أو الاستبدال أو الطرد (١) .

وكانت عقوبة الطرد أشدها ، لأن معنى طرد القن انه سيصبح دون سيد يحميه . مما يعرضه لأخطار بالغة ، في عصر اشتهر بالفوضى وعدم الاستقرار .

والواقع ان آلاف الفلاحين عاشوا في الغرب الاوروبي عيشة منحلة . وتكونت طبقة العبيد في اساسها من العبيد Slaves والاقتنان Serfs الذين تقاربت ظروفهم جميعا ، فاختلفوا وتداخلوا عن طريق ذوبان العبيد وانصهارهم وسط محيط الاقتنان . ومن الملاحظ ان القن لم يكن عبدا بمعنى الكلمة ، لان سيده لا يستطيع التصرف فيه بالبيع مثلا أو اذيته جسمانيا دون ذنب أو محاكمة . وعلى هذا الاساس فهو لم يكن عبدا ولا حرا ، وانما كان بين هذا وذاك (٢) .

وقد فتحت الحروب الصليبية الباب على مصراعيه أمام عشرات الألوف من الاقتنان ، الذين تركوا اراضيهم بحجة الاشتراك في النشاط الصليبي (٣) .

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٧١ - ص ٧٢ .

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

والواقع ان الباعث الدينى لم يكن الدافع الاساسى لاسهامهم فى الحركة الصليبية ، وانما دفعهم الى ذلك الامل فى حياة جديدة افضل من حياة الذل والهوان والتساقط فى الغرب الاوروبى (١) .

وكان من المستحيل ان يستغنى الفرنجة بالشام عن الرقيق والاقنان ، بعد ان اعتادوا فى الغرب الاوروبى على وجود تلك الطبقة ، ليعمل افرادها فى ملاحاة الارض وغيرها من الاعمال الشاقة . وكانت الغالبية العظمى من الرقيق فى الشام - على عصر الحروب الصليبية - من الاقنان . واذا كانت اوضاع العبيد والاقنان قد اخذت فى التحسن فى الغرب الاوروبى خلال القرن الثانى عشر ، واذ حتى فى استنامة الكنيرين مذهبهم ان يحرروا ويمارسوا حقوقهم المشروعة فى الحياة . فان الوضع لم يكن كذلك ببلاد الشام ، ذلك ان العبيد والاقنان قاسوا الكثير من الاجحاف والسخرة والذلام ، بسبب تعسف الصليبيين ، مما جعلهم يترحمون على ايام خدم المسامدين (٢) .

وقد عبط اصحاب الملكيات المسيحية من اجل الزمام الى الثلاثة (٣) بؤدية الارض (٤) ، اى صاروا اقنانا فى اراضى السادة الاقطاعيين الجدد ؛ والقن فى الشرق كان اكثر تسقا، وتعاسة من زميله فى الغرب . ففي الغرب تحسن القن، وصار يعيش فى ظروف عيش مخففة ، اما فى الشرق زددت سوءات طبقة الاقنان على ايام البيزنطيين والعرب ، وعلى ايام عصرهم الذهبى . ويبدو ان حظ الاقنان من اهل الشام العاملين فى اراضى الخنيسه ببلاد الشام ، لم يكن احسن من العاملين فى اراضى السادة الاقطاعيين ، فالكنيسة سواء فى اوربا ثم آسيا كانت ترعى العاملين فى ارضها ، بانهاهم المذيلة الدمع (٥) .

ومن الرقيق الذى كان تحت سيطرة الفرنجة ، بعض المسلمين الذين وقعوا فى الاسر خلال زحف جيش الحملة الصليبية الاولى الى بيت المقدس ،

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ص ٢٧ - ص ٢٩ ،

Bohac made : Life and Work in Med. Europe, p. 147

Theompson : op. cit. pp. 397 - 398 (٢)

Ibid. p. 398 (٣)

من ذلك سكان قيسارية ، اذ يروى لنا فوشر دى شارتر ان الذكور من اهالى تلك المدينة كان عددهم قليلا ، وعمولوا برفق ، اما النساء فكان عددهن يفوق عدد الرجال ، فتم بيع بعضهن ، وبقي البعض الآخر لادارة ابحار الطواحين (١) . وقد انتشرت فى البيئة الصليبية عادة الفها بعض جماعات المسلمين ، وهى استعمال الخصيان فى الحريم ، حيث يقومون بخدمة نساء النبيل وبناته . بينما يحرم ذلك على الخادم الاوروبى أو العبد من أى جنس كان . وقد سخر الصليبيون الاسرى المسلمين ، فمن وقع فى أيديهم ، أرغم للعمل فى دار السيد الاقطاعى ، وأرغم على احترام الزراعة فى ضياعه ، والقيام بالحرف الصناعية التى يحتاجها . وقهره على العمل فى البناء (٢) .

ومن العادات التى تمسك بها الفرنجة اشد التمسك ، ضرورة تنصير العبد اذا عاش وسط مسيحيين ، وكان سيده فى الوقت ذاته مسيحيا ، وليس من المستبعد أن يجبروه على اعتناق مذهبهم الدينى الخاص ، فاذا تنصر لم يجز المشترين بيعه اصلا لمسلم مهما اعلى ثمنه ، ويرون فى ذلك حطة للصليبي، ان لم يكن خرقا دينيا (٢) . ولايجوز بحال من الاحوال استرقاق النبلاء أو البارونات ، ولكن يحتفظ بهم للحصول على فدية كبيرة .

وعلى أية حال ، فإن البناء الاجتماعى للكيان الصليبي بالشام ، تألف من طبقات مختلفة ، غير متألفة أو منجانسة . ظلت متميزة بالفوارق الواضحة ، مما أدى الى عدم تماسك الصليبيين بالشام من ناحية . والحاق الضرر بهم من ناحية اخرى .

Richard : Le Royaume Latin. p. 122 (١)

(٢) حسن حبشى : نور الدين والصليبيين ، ص ١٤٨ - ص ١٤٩ .

Miller : op. cit. p. 527 (٣)

حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

رابعاً - المسيحيون الشرقيون :

عاش المسيحيون الشرقيون الى جانب المسلمين في كنف الدولة العربية الاسلامية ، وتمتعوا في مجتمعاتهم الخاصة بهم بقسط وافر من التسامح الديني ، الذي عرف به الدين الاسلامي . وخلال العهود الاسلامية المتتابعة ، مارس المسيحيون الشرقيون طقوسهم في كنائسهم في حرية تامة . ولكن اللاتين في بلاد الشام ، على عهد الحروب الصليبية ، نظروا الى المسيحيين الشرقيين نظرة أخرى ، اذ اعتبروهم منشقين على الكنيسة الكاثوليكية الغربية ، وبمعنى آخر ملحدون (١) .

١ - الموارنة (الطائفة المارونية) :

اختلفت الآراء حول اصل الموارنة ، وانتحالهم لهذا الاسم ، ومن تلك الآراء أنهم جماعة من السوريين اعتنقوا الديانة المسيحية في ايامها الاولى ، واعتبر القديس مارون أبا وشفيعا لطائفة الموارنة (٢) . وقد عاش هذا القديس الراهب في أواخر القرن الرابع الميلادي في شمال الشام ، في المنطقة الواقعة بين انطاكية وقورس (على مسافة ستين كيلو مترا شمالي حلب) ، وتوفي حوالي عام ٤١٠ م أو حوالي ٤٣٣ م (٣) . والحقيقة ان القديس مارون من شدة زهده ، جذب اليه جماعات من الناس ليلتمسوا بركته ، ويستترشدوا بتعاليمه ، ويقتدوا بسيرته ، واهم المراكز التي التفوا حولها دير القديس مارون ، الذي شيد على ضفاف نهر العاصي في نواحي أفاميه (٤) . وفي أواخر القرن السابع الميلادي اقيم يوحنا مارون أول بطريرك للموارنة ، ليرعى شؤونهم الدينية ؛ وفي عهده برزت أولى الخصائص الوطنية للموارنة (٥) . واتباع هذه الطائفة كانوا من اصحاب المشيئة الواحدة ، وهذه العقيدة تقول أنه كان للمسيح مشيئة واحدة ، قال بها بطريرك الامبراطور هرقل عام ٦٣٨ م ، ليوفق بين عقيدة اصحاب الطبيعة

Chalandon : op. cit. pp. 284—285

(١)

(٢) يوسف الدبس : الجادع المفصل في تاريخ الموارنة الموصل ، ص ٣ .

(٣) فيليب حتى : لبنان في التاريخ ، ص ٣١٠ .

(٤) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ٢٣٦ - ص ٢٣٧

(٥) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ - ص ٣٠٤ .

الواحدة (المونوميزتيون) ، الذين كانوا يشكلون الأغلبية من الرعايا المسيحيين في الشام ، وبين أصحاب العقيدة الارثوذكسية الرسمية للكنيسة البيزنطية . وقد كانت هذه هي المحاولة الأخيرة التي قام بها الامبراطور ، ليمسد الشجرة التي أوتسكت أن تفصل بين الكنيسة السورية والكنيسة البيزنطية ؛ ولكن هذه المحاولة ، شأن كل محاولة للتوفيق ، باءت بالفشل (١) .

والمواطن الاولى للطائفة المارونية . كما وجدت في القرن العاشر الميلادي كانت في وادي العاصي ، لاسيما معرة النعمان وشيزر وحماة وحمص : كذلك وجد الموارنة في جهات أخرى أقرب الى الشمال كمنبج وقنسرين ، ومن المحتمل أيضا أنهم كانوا في انطاكية . غير أن الموارنة انتقلوا الى جبل لبنان في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي . بادئين بالهجرة من وادي العاصي الى الجبل من ناحية الشمال ، مجتازين أفامية وحماة وحمص الى أن استقر بهم المقام في الجبل ، فسكنوا أولا جهاته الشمالية ، ثم تقدموا الى أواسطه ، الى أن بلغوا في النهاية جنوبه . ويرى البعض أن الاضطهادات التي لقيها الموارنة على يد مخالفينهم ولا سيما اليعاقبة ، كانت السبب في نزوحهم الى لبنان ؛ ومن الجدير بالذكر أن تلك الهجرات لم تتم دفعة واحدة ، بل حدثت في أزمنة متوالية (٢) .

ومن ناحية السلالة العرقية ، ترجع الطائفة المارونية في أصولها الى عناصر شتى . أهمها الموارنة المهاجرون الى لبنان من شمال بلاد الشام ووسطها ، وقد انضم اليهم الابق والفارين الذين لاذوا بحمي المردة أو الجراجمة الباقين في لبنان ، بالإضافة الى ماكان هناك من السكان الاصليين (٣) . وقد امتزجت تلك العناصر بهزور الزمن ، وصارت تعرف بالطائفة المارونية ، التي لازال.

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٤ - ص ٣٠٥ .

(٢) لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوى لبنان من الآثار ، ج ٢ ، ص ٥٠-٥٢ .

(٣) لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوى لبنان من الآثار ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

أتباعها في أعالي لبنان ، يستخدمون اللغة السريانية الى جانب اللغة العربية (١) .

ويعتبر المارونيون آخر من تبقى من انصار المذهب المونوفيزيقي . وقد حرصت الكنيسة الغربية على مراعاة شعورهم والرفق بهم . ففي حوالي عام ١١٨٢ م وافق الموارنة أمام بطريرك انطاكية ، على قبول سيادة البابا في روما ، على شريطة أن يظلوا مدانطين على سعاثرهم القديمة وتقاليدهم السريانية ، بالإضافة الى أنهم لم يتخلوا عن عقيدتهم التي تجعل للمسيح إرادة واحدة (٢) . ويبدو أن الصليبيين كانوا يرون في الموارنة قبل اعترافهم بسيادة روما ، أنهم كانوا جماعة نسالة منتسقة عن الكنيسة الكاثوليكية ، بالإضافة الى أن القديس مارون اعتبر من المبتدعين طوال خمسمائة عاما (٣) .

وعلى زمن الحروب الصليبية كان الموارنة خير عون للصليبيين خلال حروبهم ضد المسلمين . فمنذ اللحظة الأولى التي وطأت نبيها أقدام الفرنجة بلاد الشام ، اتصل الموارنة بالجيش الزاحف على بيت المقدس ، ولخبرتهم بالحرب وتدريبهم على مختلف الأسلحة المألوفة ، انضمت قوة منهم الى هذا الجيش ، وقاتلت معه جنبا الى جنب . ولا ريب أن الموارنة كوطنيين كانوا خبيرين باهل البلاد ومسالكها والمواقف الحربية ، لاسيما الاساليب الحربية للمسلمين ، قد أفادوا الصليبيين الى حد بعيد : ومنهم من عمل دليلا للصليبيين يرشدهم الى الطرق والمعابر خلال زحفهم ، كما عملوا تراجمة لديهم (٤) . وعندما قدم لويس التاسع الى بلاد الشام حوالي عام ١٢٤٩ م ، اتصل به عدد غفير من الموارنة ، وانخرطوا في صفوف جيشه ، ويفخر الموارنة بالرسالة التي بعث بها لويس الى امير طائفة الموارنة وبطريركها واساقفتها ، فقد جاء فيها أن الموارنة يتمتعون بنفس الحماية التي يتمتع بها الفرنسيون ، ويفبلون في الوظائف كما

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٨٩ ،

Cahen : La Syrie du Nord. p. 192

Thompson : Econ. and Soc. Hist. Vol. I p. 399 (٢)

(٣) يوسف الدبس : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ - ص ٢٠٨ .

(٤) يوسف دريان : أصل الطائفة المارونية ، ص ٥٣ - ص ٥٤ .

يقبل الفرنسيون ، واختتمها قائلا : « أما نحن وجميع من يخلفوننا على عرش فرنسا ، فنعد باننا نوليكم أنتم وجميع شعبيكم حمايتنا الخاصة ، كما نوليها للفرنسيين بعينهم (١) » . ولا تزال العلاقات الخاصة تربط بين الطائفة المارونية وفرنسا حتى وقتنا الحالى (٢) .

وإذا أخذنا في الاعتبار تعذر مسالك جبال لبنان ، أدركنا أن ذلك جعل الموارنة ينعمون بنوع من الاستقلال . ومما يدل على ذلك أن المسلمين عندما استردوا أنطاكية ، فر العديد من الصليبيين هاربا الى جبال لبنان ، فاستقبلهم بطريك الموارنة بالترحاب ، الأمر الذى جعل البابا اسكندر الرابع ، يكتب له رسالة شكره فيها على صنيعه ، وفي نفس الوقت يوصيه خيرا بمن لجأ اليه ، وإن يحتسبهم كابناء طائفته (٣) .

والحقيقة أن فترة الحروب الصليبية كانت تمثل العصر الذهبى للموارنة ، فقد كانوا أحسن حالا وأعظم شأنا . فكنايسهم واديرتهم ومدارسهم ازداد عددها . وأحسوا بالراحة والطمأنينة ، وتوفرت لهم سبل الرزق ، ووجدوا في كنف الفرنجة التأييد والمحبة (٤) . واحتلوا في الممالك التى تسيدها الفرنجة المكانة الاولى بعدهم ، وكانوا يقدمون على جميع الطوائف المسيحية ، ويتمتعون بالحقوق والامتيازات التى تتمتع بها البورجوازية اللاتينية ، بما في ذلك حق الارض في مملكة بيت المقدس (٥) .

وقد سمح لرجال الدين الموارنة أن يقوموا بخدمة القداس على مذبح لاتينية ، وأخذت الكنيسة المارونية تتخلى رويدا عن طقسها المألوف لتتبنى الطقس اللاتينى ، وصار رجال الدين الموارنة يتبعون الزى اللاتينى في لبس الخواتم والقانسوة التى تشبه التاج وحمل العكاز (٦) .

-
- (١) يوسف دريان : المرجع السابق ، ص ٥٤ .
 - (٢) يوسف الدبس : الجامع المفصل ، ص ٢٠٨ .
 - (٣) يوسف الدبس : الجامع المفصل ، ص ١٨٨ - ص ١٨٩ .
 - (٤) يوسف دريان : أصل الطائفة المارونية ، ص ٥٣ .
 - (٥) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٩٢ .
 - (٦) اسطفان الدويهي : تاريخ الطائفة المارونية ، ص ٢٨٢ .

ومن الواضح أن ظهور الدروز كطائفة جديدة في جبل لبنان في منتصف القرن الحادى عشر ، جعل تاريخه منذ ذلك الحين يبدأ في التركيز على هاتين الطائفتين ، وعلى علاقة احدهما بالآخرى ، نعى الدروز والوارنة (١) . وقد حاول المارونيون في مرات عديدة اخراج الدروز من جبال لبنان ، ولكن الدروز الذين يعيشون متناثرين في قرى عديدة ، كانوا يتكثرون دائما ، ويقفون صفا واحدا امام الموارنة (٢) .

٢ - الأرمن :

اتخذت حركة انتشار الأتراك السلاجقة انتشارا أفقيا من الشرق الى الغرب ، عبر أرمينية وكابادوكيا وفريجيا وبيثينيا وأيونيا ، حتى شملت جميع الجهات الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة . اما الأقاليم الجنوبية والشرقية من آسيا الوسطى - حول طوروس وملطية ثم الرها وانطاكية - فلم يتجه اليها السلاجقة اول الامر ، مما أدى الى عزل تلك المنطقة عن بقية بلاد الدولة البيزنطية ، ثم وقوعها بين سقى الرحي في الصراع القائم بين البيزنطيين والسلاجقة في آسيا الصغرى (٣) .

وكانت الامبراطورية البيزنطية ، قد منحت ملوك أرمينية وأمراءها ضياعا واسعة في اقليم كابادوكيا ، الأمر الذى أدى الى هجرة أعداد كبيرة من الأرمن الى ذلك الاقليم في شرق آسيا الصغرى . ولكن توسع السلاجقة في كابادوكيا ، جعل الأرمن يبحثون عن مأوى جديد ، فاتهموا الى اقليم قيليقية الجبلية في جنوب شرق آسيا الصغرى (٤) . وانتشروا ايضا في الرها وفي ارباض تل باتر وفي شمال سوريا (انطاكية ، والملاذقية . وارتاح ، وافامية) - ومع انه لم يكن منهم في جنوب الشام الا عدد ضئيل ، فقد هاجر الى مصر أعداد كبيرة من الأرمن ، والتحقوا بالجيش الفاطمى ، وبفضلهم تغلب

(١) فيايب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣١٤ - ص ٣١٥ .

(٢) Nerval : Voyage en Orient. T. II p. 8

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٩٧ .

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٩٨ .

الوزير بدر الجمالي ، وهو أرمني اعتنق الاسلام ، وابنه الأفضل ، على العناصر المتمردة في الجيش من الترك والسودان (١) .

والجدير بالذكر ان الارمن استخفوا بالدولة البيزنطية بعد الهزيمة المفكرة التي منيت بها في مانزكرت عام ١٠٧١ م ، وفي نفس الوقت عملوا على استرضاء السلاجقة ومهادنتهم . فقد قبلوا الخضوع لحكم ملكهم السلجوقي ، مقابل الافادة من السلام والأمان ، ولكن اذا هبت الفوضى دفعتهم مسيحياتهم وعنصريتهم الى الانضمام لجانب بيزنطة (٢) .

ومن الواضح أن الارمن رحبوا بمجيء الصليبيين الى الاراضي المقدسة . فبعد ان عبر قواد الحملة الصليبية الاولى جبال طوروس ، وقع بينهم الخلاف واخذ كل منهم يخطط الامور لصالحه الخاص ، فتحول بلحويين شرقا ، واحتل الرها وهي آنذاك تحت حكم الارمن في اوائل سنة ١٠٩٨ م (٣) . وهكذا تأسست اولى الامارات الصليبية في الشرق الادنى . والمعروف ان العنصر الارمني كان هو المسيطر على الرها عند وصول الصليبيين ، واستطاع القواد الفرنجة في ذلك الحين ، أن يقدروا الصفات الحربية التي تمتع بها العنصر الارمني ، ومن ثم ارتبطوا به ارتباطا وثيقا ، ويمكن القول ان امارة الرها خلال عمرها القصير (١٠٩٨ - ١١٤٦ م) كانت امارة فرنجية - ارمنية (٤) . اما تانكرد وهو أحد القواد النورمان القادمين من جنوبى ايطاليا وصقلية ، فتحول غربا ، ودخل فيليقية ، وسكانها كذلك من الارمن ؛ واحتل مدينة طرسوس وسائر نواحيها .

وعندما اقترب الصليبيون من انطاكية سنة ١٠٩٧ م ، رحب الارمن بهم ترحيبا بالغيا (٥) ؛ والمعروف ان سكان انطاكية غالبيتهم العظمى - مؤلفا

(١) الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص ٩ .

(٢) Cahen : La Syrie du Nord. p. 190

(٣) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٤) Grousset : L'Empire du Levant. p. 316

(٥) Small : Crusading Warfare. p. 46

كانوا خلال السيطرة البيزنطية - من السوريين والأرمن . وقد أحس الأندراك بالخطر الفاجم عن هذا الوضع ، ذلك أن اقتراب الفرنجة حمل شائن سيان أمير أنطاكية ، يشعر بالخوف من المسيحيين الموجودين في المدينة (١) . وينسك في نواياهم تجاؤه . وعلى الرغم من ذلك ، فقد شك الفرنجة أنفسهم في ولاء الأرمن خلال حصارهم لأنطاكية عام ١٠٩٧ م . وظنوا أنهم يتجسسون لصالح الحامية التركية ، وينقلون المؤن الى داخل المدينة (٢) .

وفي الوقت الذي نشأت مملكة أرمينيا الصغرى الصليبية في أواخر القرن الثاني عشر في إقليم قيليقية ، أي في الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى ، استغل ملوك هذه المملكة موقع مملكتهم بين آسيا الصغرى من ناحية ، وشمال الشام من ناحية أخرى ، في تقديم العون للصليبيين بالشام . ولم يكف المغول يستقرون في فارس حتى حالفهم ملوك أرمينيا الصغرى ضد المسلمين في العراق والشام ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس أنزل بالأرمن وحلفائهم عدة ضربات في أعوام ١٢٦٦ ، ١٢٧٣ م (٣) .

وقد اشتهر الأرمن كقوم محاربين . مثل الموارنة . وفي القرن الثاني عشر ، انخرطوا في صفوف جيوش الفرنجة كخيالة ومشاة ، لمحاربة المسلمين في شمال الشام (٤) . وبسبب قرب مملكة أرمينيا الصغرى من إمارة الرها ، فانهم على الدوام كانوا على اهبة الاستعداد لنجدة لاتين الديار ومساعدتهم (٥) .

والواقع ان كونتيه الرها . تميزت بوضع معين اختلف عن بقية الإمارات الصليبية . فقد اعتبرت إمارة حاضرة ، تحمي أنطاكية من المسلمين ، وكانت هذه الكونتية أكبر مساحة من إمارة أنطاكية . إذ امتدت على جانبي

(١) Grousset : Histoire des Croisades. T.I. p. 73

(٢) Gesta Francorum, p. 29

Small : op. cit. p. 47

(٣) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ١٠٢ - ص ١٠٣ .

(٤) Small : op. cit. p. 47

(٥) Miller : Essays on the Latin Orient. p. 526

نهر الفرات من راوندان وعينتاب الى موضع غير معروف بالجزيرة ، الى الشرق من مدينة الرها . وافترقت الرها الى حدود طبيعية ، ولهذا صارت الامارة كلها عبارة عن منطقة حدود ، لم تنقطع بها الحروب . ومع أن سكانها أساسا من المسيحيين . سريان ويعاقبة وارمن ، فقد دخل في نطاقها مدن اسلامية ، مثل سروج (١) .

وقد سار الأرمن على النظم الاقطاعية للصليبيين ببلاد الشام ؛ ومن الجدير بالذكر أن وثائق انطاكية أتت الينا من خلال الأرمن ، فمحكمة سيس كانت تشبه محكمة بيت المقدس ، لها قهرمان (سنجال) . ومارشال وكوندسطل (كونسابل) (٢) . واستخدم ملوك أرمنييه لغتهم القديمة التي لم يتكلم بها غيرهم ؛ وقد اختلفت الكنيسة التي يتبعها الارمن عن الكنائس الاخرى الموجودة بالشام على عصر الحروب الصليبية ، اذ وجد اختلاف مذهبي بين كنيسة أرمنييه وبيزنطية من جانب ، وأرمنييه والحكومات اللاتينية من جانب آخر (٣) . وعرفت كنيسة الارمن بالكنيسة الجريجورية (٤) .

٣ - الأقليات الدينية :

والاقلية الدينية هي التي كانت تعيش مع المسلمين جنبا الى جنب ، قبل مجيء الصليبيين الى الشام . وتتمثل تلك الاقلية الدينية في طبقة المسيحيين الشرقيين المحليين ، والروم ، والسوريان ، واليعاقبة ، والاقباط واليهود ، والسامرة ، وغيرهم .

ولا ريب في أن المسيحيين الروم كانت لهم عصبية في بلاد الشام ، قبل غزو الاتراك السلاجقة لتلك البلاد ، ومن الطبيعي أن تكون عواطفهم مع الدولة البيزنطية أو دولة الروم (٥) ، وليس من المؤكد أن يرجع الروم الى

Cahen : La Syrie du Nord. pp. 110—112 (١)

Miller : op. cit. p. 526 (٢)

Iorga : Breve Hist. de la petite Armenie. p. 20 (٣)

Grousset : L'Empire du Levant. p. 311 (٤)

Cahen : op. cit. p. 190 (٥)

أصل بيزنطى ولكنهم مجموعة من أهل الشام ، مرتبطين بالتقاليد البيزنطية ، ومن المطالبين بالامبراطورية البيزنطية والمرتبطة بكنيستها (١) . وقد أدى ميلهم الطبيعى للبيزنطيين أن شك الصليبيون في اخلاصهم وولائهم ، فاشنأ ، سقوط بيت المقدس في أيدي صلاح الدين الايوبي عام ١١٨٧ م ، انهم مؤلا ، المسيحيون بالتحالف مع المسلمين (٢) . ومن الواضح أن فئة الروم الارثوذكس ، كانوا ابغض فئات المسيحيين الشرقيين الى الصليبيين . بسبب التخوف من تأمرهم مع الدولة البيزنطية ضد مصالح الصليبيين . وكان من المفروض أن يقوم الصليبيون بطردهم من اراضيهم ، ولكنهم استبقروهم لمهارتهم اليدوية . وقيامهم بالخدمات والاعمال الحثيرة التى انف الصليبيون الغربيون من تاديتها (٣) .

وخلال الزحف الصليبي على بلاد الشام ، ارتاب المسلمون بدورهم في ولاء العناصر المسيحية الوطنية بالشام ، سواء كانت من أصل سوريانى و بيزنطى بل وصل الامر الى اتهامهم بانهم الذين استدعوا الفرنجة في الحملة الصليبية الاولى ، ولهذا السبب قام المسلمون بابعاد المسيحيين الوطنيين حتى لايطعنوا من الخلف ، ولم يكن المسلمون اسعد حالا من المسيحيين الوطنيين ، فعقب سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين ، قاموا بدورهم بابعاد المسلمين . ومن ثم اقفرت مملكة بيت المقدس من السكان والايدي العاملة ، لان اللاتين لم يؤلفوا الا اقلية عددية لاتستطيع الدفاع عن نفسها (٤) . ومن اجل تعمير المملكة ، عمل بلدوين الاول على استدعاء ، المسيحيين الوطنيين واعدوا ايامهم بالمعاملة الحسنة ، واعفائهم من الضرائب . ولهذا نزح العديد منهم من البلاد المجاورة الخاضعة لحكم المسلمين ، الى مملكة بيت المقدس استجابة لنداء بلدوين ؛ وقد أدى ذلك الاجراء الحكيم الذى ساءم به الاخير ، أن اعتبر بحق المؤسس الحقيقي لمملكة بيت المقدس (٥) .

(١) Lammens : op. cit. T.I. pp. 246--247

(٢) Grousset : op. cit. p. 313

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٩٣ .

(٤) Grousset : Histoire des Croisades. T.I. pp. 284 -285

(٥) Ibid. pp. 285- -286

Miller : op. cit. pp. 191 -192

أما اليعاقبة ، فقد اعتنقوا المذهب المونوفيزيتي ، وهم من أصل سرياني ، ولغتهم العربية ، ويمثلون العنصر الرئيسي بين الطوائف المسيحية الشرقية ببلاد الشام ، فيما عدا اماره الرها التي تسيطر عليها غالبية من الارمن ، وانطاكية التي تسود فيها غالبية من الروم (١) . وتمثل الكنيسة المونوفيزتية غالبية السكان المسيحيين ببلاد الشام ، فلها اساقفتها في انطاكية وكفر طاب والرها وسروخ وسميساط ومرعش . وللمونوفيزتيين اديرة في طوروس ولهم اتباع عديدون في الشام (٢) .

أما النساطرة ، فهم من المسيحيين الشرقيين ، ينتمون الى اصل سرياني مثل اليعاقبة المونوفيزتيين ، ولكنهم يرون أن الطبيعتين الالهية والبشرية ، ظلتا منفصلتين في يسوع المسيح . وهم أقل عددا في الشام ، وتتواجد مراكزهم الرئيسية في آشور والعراق ، وكان لهم في بيت المقدس رئيس اساقفة ، يتبع مقر البطريرك (الكاثولييكوس Catholicos) الخاص بهم في بغداد . وهم يعيشون في طرابلس وعكا وببيروت وجبيل (٣) .

وعلى الرغم من أن المسيحيين الوطنيين ، لم يكونوا في كل الاحوال ، معادين للقوى الصليبية بالشام ، بل احيانا كانوا يميلون الى الصليبيين ، بحكم النزعة الدينية . لكنهم اثاروا غيظ جيمس دي فيتري في أوائل القرن الثالث عشر . ففي الوقت الذي ظهرت الدعوة للحملة الصليبية الخامسة في الغرب الاوربي ، لم تكن الانباء في الشام بالغة التشجيع ، ومن ثم قرر البابا هونوريوس الثالث ارسال جيمس دي فيتري الى فلسطين ، ليتولى اسقفية عكا ، فضلا عن إثارة شعور اللاتين (٤) . وبمجرد أن وصل الى عكا في نوفمبر عام ١٢١٦ م ، بدأ العمل ، فرفع الى البابا تقريراً مفصلاً عن وضع الصليبيين في الشام . وجاء في ذلك التقرير أن المسيحيين الوطنيين يكرهون اللاتين ، ويؤثرون حكم المسلمين ؛ ومن ناحية اللغة فانهم يتحدثون

Grousset : L'Empire du Levant, pp. 311—312

(١)

Cahen : op. cit. pp. 191—192

(٢)

Grousset : op cit. p. 313

(٣)

Grousset : Hist. des Croisades, T. III. p. 197

(٤)

العربية ، ومن ناحية زبيهم وطريقتهم في الحياة ، لا يختلفون فيها عن المسلمين . الا قليلا ، لانهم تربوا وسط المسلمين واكتسبوا عاداتهم ، وهم يصدقون من ينتقد الفرنجة وينحى عليهم باللائمة ، كما انهم استخدموا في معظم الاحيان جواسيس على الفرنجة ، وانهم شعب غير محارب (١) . ونستشف من تلك الصورة التي أعطاها لنا جيمس دى فيتري أن المسيحيين الوطنيين في بادى الامر ، استقبلوا الغزاة الصليبيين بالترحاب ، لاعتقادهم انهم بحكم اخوتهم في الدين سيعيشون معهم في مناخ افضل من معيشتهم مع المسلمين . غير انه بانقضاء الوقت ، لمس المسيحيون الوطنيين الفرق بين الروح الصليبية والكراهية المذهبية ، ومن ثم تمنوا زوال حكم اللاتين في الشام .

اما بالنسبة لليهود في الارض المقدسة ، فقد عاشوا خلال العصور الوسطى في كنف المسلمين ، الذين احسنوا دائما معاملتهم ، وسمحوا لهم بمزاولة شعائرهم الدينية في معابدهم بحرية تامة . وقد اختلف الامر بالنسبة للغرب الاوروبى ، لاسيما خلال الدعوة للحرب الصليبية ، فقد حرصت تلك الدعوة على تأكيد أهمية بيت المقدس ، وهو البلد الذى شهد صلب المسيح في العقيدة المسيحية . وبذلك توجهت هذه الدعوة ضد أولئك القوم ، الذين على ايديهم صلب المسيح . ومن المسلم به لدى الغرب الاوروبى أن المسلمين كانوا هم العدو القائم بالبلاد ، لانهم يسيطرون على الارض المقدسة ، ولكن اليهود كانوا اشدّ غداً ونكراً ، لانهم هم الذين اضطهدوا المسيح نفسه . ومما زاد من كراهية غرب أوروبا لليهود خلال القرن الحادى عشر ، كثرة الفئات التى اخذت تقترض منهم الاموال ؛ فالفارس الصليبي يتكلف نفقات باهظة من أجل تجهيز نفسه للاشتراك في الحملة الصليبية . فاذا لم يتوافر له من الاملاك ما يرهنها ، فلا بد له أن يقترض المال بفائدة من اليهود ، في الوقت الذى حرمت فيه الكنيسة الغربيه الربا (٢) .

Ibid. pp. 197—198

(١)

Small : op. cit. p. 53

(٢) رنسيان : المرجع السابق ، ص ١٩٦ - ص ١٩٧ .

Rapport : Hist. de la Palestine. pp. 197 198

وبتلك الروح الصليبية المشبعة بكراهية اليهود ، جاء الصليبيون الى الشرق الادنى ، بغرض انتزاع بيت المقدس من المسلمين . وما أن سقطت المدينة في ايديهم عام ١٠٩٩ م ، حتى قاموا بمذابح ، متجاهلين دعوة السلام التي نادى بها المسيح . ولم يسلم اليهود من تلك المذابح ، فبينما اندفعوا الى داخل معبدهم الكبير (الكنيس) ، لم تأخذ الصليبيون بهم رحمة ، فأشعلوا النار في المعبد ، ولقوا مصرعهم محترقين (١) .

وقد أعطتنا رحلة بنيامين التطيلي (١١٦٠ - ١١٧٣ م) بعض المعلومات عن وضع اليهود في الارض المقدسة ، خلال القرن الثاني عشر حينما زارها حوالي سنة ١١٧٠ م . فقد حزن لفضالة عدد اليهود في فلسطين ، ففي كل فلسطين لم يجد الا ١١٠٠ يهودي ، منهم ٢٠٠ في بيت المقدس ، ٣٠٠ في قننين ، ٥٠ في طبرية ، ١٢ في بيت لحم ، ويهوديا واحدا في يافا . أما في دمشق ، تلك المدينة التي لم يستطع الصليبيون الاستيلاء عليها ، والتي كانت خاضعة لنفوذ نور الدين محمود ، فقد وجد بها بنيامين التطيلي من اليهود عددا بلغ ثلاثة اضعاف العدد الموجود في فلسطين كلها ، وعندما زار بيتاشيا راتزبون Petachia de Ratisbonne معاصر لبنيامين التطيلي - الارض المقدسة (١١٧٥ - ١١٩٠ م) ، لم يجد الا يهوديا واحدا في بيت المقدس (٢) .

وفي الاراضي المقدسة عاش اليهود منعزلين في أحياء خاصة بهم « جيتو » ghetto ، وهم من الناحية الطبقية في وضع اقل من المسلمين (٣) ، لم يستطيعوا امتلاك الارض ، واحتكروا صناعة الأصباغ وتجاريتها . ولهم القضاء الخاص بهم ، وهم ملزمون - مثلهم في ذلك مثل المسلمين - بدفع ضريبة الرأس ، بواقع بيزنت واحد على كل رجل يزيد عمره عن خمسة عشر عاما (٤) .

ويعتبر عصر الحروب الصليبية ، عصرا مظلما بالنسبة ليهود الشام ، ولم يتحسن وضعهم الا عندما انتصر الهلال مرة أخرى على الصليب ؛ فعندما

Ibid. Loc. cit.

(١)

Ibid. P. 208

(٢)

Miller : Op. cit. p. 527

(٣)

Richard : Le Royaume Latin. p. 125

(٤)

استولى صلاح الدين على بيت المقدس عام ١١٨٧ م ، سمح لليهود بدخول المدينة ، كذلك في عهد خلفاء صلاح الدين انتعشت احوال اليهود ، ووصلت لدرجة عالية من الازدهار . وفي تلك الفترة كانت الآلام التي تعرض لها اليهود في الغرب الأوروبي جديرة بالاعتبار ، ووجد الكثير منهم الملاذ في ممتلكات صلاح الدين . ويدل على ذلك ازدياد عدد اليهود الذين هاجروا من الغرب الأوروبي الى فلسطين ، ففي عام ١٢١١ م اتى حوالى ٣٠٠ حاخام يهودى من فرنسا وانجلترا ، ووصلوا الى الاراضى المقدسة ، حيث استقبلهم الملك العادل سيف الدين أبو بكر الايوبى ، شقيق صلاح الدين ، استقبالا وديا (١) .

أما السامريون ، فهم فرقة من اليهود ، انشقت بسبب خلافات مذهبية ، وعقيدتهم هي عقيدة التوحيد اليهودية ، ولا يوجد ما يشير الى انها تأثرت بأية معتقدات وثنية ، وكتابهم المقدس أسفار موسى الخمسة (الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم) (٢) . والسامرة ينكرون نبوة من بعد موسى ما عدا هارون ويوشع عليهما السلام ، ويخالفون اليهود أيضا في استقبال صخرة بيت المقدس ، ويستقبلون طور نابلس ، ويوجهون اليه موتاهم ، زاعمين أنه الذى كلم الله تعالى موسى عليه ؛ ويدعون أن الله تعالى أمر داود عليه السلام – وهم ينكرون نبوته ومن تلاه من الانبياء – ببناء بيت المقدس . فخالف وبناه بالقدس (٣) .

والسامريون من الناحية العرقية ، هم بقية القبائل من آتسور وفارس ، الذين نقلهم سرجون بحوالى سبعمائة سنة قبل الميلاد . وبرزوا في حياة المسيح عليه السلام ، كما هو مصور في موضوع « المرأة السامرية » . وقصة « السامرى الطيب » (٤) . وهم صنفان : صنف يقال لهم الدستان ، وصنف يقال لهم الكوشان (٥) .

(١) Rappoport : op. cit. pp. 208—209

(٢) Ency. of Religion. pp. 164—165.

(٣) صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٠٣ ،

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ١ ، ص ٥٩ .

(٤) Hitti : The origins of the Druze People. p. 1

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٦ .

٦٠١

ونابلس هي مدينة السامرة ، ولا يوجدون في أى مكان آخر سواها ، وبها
 الجبل الذى يحجون اليه (١) . وهم لا يتزاوجون الا فيما بينهم ، لذلك فانهم
 ينقرضون بسرعة (٢) ، الذى يبلغ عدد الموجود منهم في نابلس حاليا ١٥٠
 سامرى فقط (٣) . وقد اقتبس السامريون من المسلمين ، وتأثر المسلمون بهم
 في بعض العادات واللهجات ، وهم يتكلمون بالعربية النابلسية العامية ، وقليل
 منهم على معرفة باللغة العبرية ، غير أن لغتهم العبرية قديمة ، تختلف عن
 تلك التى يتكلم بها اليهود اختلافا بينا ، وان كانت اللغتان تنتميان الى أصل
 واحد (٤) .

(١) ابن الوردي : خريدة العجائب ، ص ٣٨ .

الاصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٥٨ ،

صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٠٣ .

(٢) Hitti : op. cit. p. 1

(٣) Les Guides Bleus. p. 542

(٤) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ٢٢٢ .

الفصل الثالث

النشاط الاقتصادي

- أولا - دور الحروب الصليبية
- ثانيا - النشاط التجاري للمدن الإيطالية بالشام
- ثالثا - طرق التجارة البرية والبحرية المؤدية الى الشام
- رابعا - أهم المراكز التجارية
- خامسا - أهم السلع التي كانت محور النشاط التجاري
- سادسا - النظم والمعاملات التجارية

النشاط الاقتصادي

يتصور الكثيرون أن الحركة الصليبية ليست إلا سلسلة حروب متصلة الحلقات بين المسلمين والصليبيين ، دون أن يعرفوا جميعا لغة التفاهم عدا لغة السيوف والحرب . والحقيقة أن تلك الصورة لا تعبر إلا عن وجه واحد فقط من أوجه تلك الحركة : إذ الثابت أن هذه الحركة مهما تعددت أغراضها وتباينت دوافعها ، كانت قبل كل شيء ، مجالا واسعا التقى فيه الشرق الاسلامي بالغرب المسيحي ، وأن هذا اللقاء ، لم يكن حربيا فحسب ، بل كان أيضا لقاء حضاريا على أوسع نطاق (١) . ومع اعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية ، فإننا نميل الى تأكيد أهمية العامل الاقتصادي بالذات في تلك الحركة . فلم يكن الغزو الصليبي لبلاد الشام ، نابعا من الحماسة الدينية التي تستهدف انتزاع الاراضي المقدسة من ايدي المسلمين ، وإنما كان جريا وراء تحقيق مكاسب اقتصادية في الشرق العربي .

ومهما كان من أمر تلك الحروب التي انتهت بسقوط بيت المقدس في ايدي الصليبيين عام ١٠٩٩ م ، وتأسيس أربع امارات صليبية بالشام ، وهي بيت المقدس وانطاكية وطرابلس والرها ، فإن الذي يعنينا - بوجه خاص - هو اثر تلك الحروب في النشاط التجارى ، منذ أن وطئت اقدام الصليبيين بلاد الشام ، الى أن تم طردهم أواخر القرن الثالث عشر .

أولا - دور الحروب الصليبية في تجارة الشام :

في حقيقة الامر ، لم يكن للامارة الصليبية في بيت المقدس عند قيامها سوى منفذ واحد على البحر ، هو ميناء يافا . ولما كانت هذه الامارة محاطة باعداء من الداخل ، فقد صار لزاما على جود فرى بوايون (ت ١١٠٠ م) أن يقوى الصلة بين بيت المقدس والعالم الخارجى وخاصة الغرب الاوروبى عن طريق البحر ، ولذلك أخذ يفكر فى الاستيلاء على أرسوف شمالى يافا ، وكان أن ضيق الخناق عليها بمساعدة اسطول بيزا ، مما دعا الاهالى فى أواخر

(١) سعيد عاشور : أضواء على الحروب الصليبية ، ص ٨١ .

مارس عام ١١٠٠ م باعلان الخضوع لجودفرى ، ودفع جزية سنوية . وفي ذلك الوقت دأب الصليبيون على تحصين يافا ، حتى اضحت مركزا لنشاط تجارى ، فقصدتها السفن التجارية لاحضار الحجاج من ناحية . وامداد بيت المقدس بما احتاجت اليه من امدادات من ناحية اخرى (١) . واتخذ الصليبيون من يافا مركزا لشن اغارات مستمرة على ممتلكات الفاطميين الساحلية ، ونظرا لعجز الدولة الفاطمية عن حماية ممتلكاتها ، فقد دب اليأس في قلوب أهل المدن الاسلامية ، الامر الذى أدى بحكام عسقلان وقيسارية وعكا باعلان تبعيتهم لدولة الفرنجة . وأسرع الكثير من مشايخ العرب في الجهات الداخلية الى عقد اتفاقيات ودية مع حكومة بيت المقدس ، ليضمنوا سلامة قوافلهم ومتاجرهم (٢) . اذ درجوا من قبل على أن يرسلوا الفائض من محاصيلهم الى المدن الساحلية . ولكن الامارات الصليبية أضحت تعترض طريقهم ، لذلك طلبوا من جودفرى أن يسمح لهم بمرور قوافلهم عبر أراضيهم ، فسمح لهم ، بيد أنه في نفس الوقت بذل قصارى جهده كيما يحول أكبر قدر من التجارة الى ميناء يافا (٣) . وفي الوقت ذاته حرض الصليبيون القوى الايطالية - أصحاب التفوق البحرى في البحر المتوسط - على أن يقطعوا طريق التجارة بين موانئ فلسطين الاسلامية ومصر ، وترتب على ذلك اضعاف تلك الموانئ ثم سقوطها في النهاية في أيدي الصليبيين . وهكذا تركز النشاط التجارى في فلسطين في أيدي الصليبيين (٤) .

وبعد وفاة جودفرى عام ١١٠٠ م ، ارتأى بلدوين الاول (١١٠٠ - ١١١٨ م) ضرورة حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقى ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة ، وهى المنطقة المعروفة باسم وادى عربة (٥) . ومن الواضح أن تحقيق ذلك المشروع يؤدى الى قطع الطريق البرى وتهديد القوافل التجارية بين مصر والشام والعراق

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٦٣ - ص ٢٦٤

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٣ - ص ٢٦٤

(٣) رنسيमान : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٣٧ .

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٤ - ص ٢٦٥ .

(٥) سعيد عاشور : شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ٣٥ .

والحجاز • وبالفعل تمت السيطرة لبلدوين على وادى عربية ، ثم شيد عام ١١١٥م حصن الشوبك ليتمكن مهاجمة القوافل التجارية المتجهة من مدبر الى فلسطين . وليحقق نفوذا للفرنجة على وادى عربية (١) • ثم استولى فى العام التالى سنة ١١١٦ م على ميناء أيلة (٢) على ساحل خليج العقبة ، وبنى فى أيلة قلعة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام ، كما شيد قلعة اخرى فى جزيرة فرعون - عرفها الفرنج باسم *Le Graye* - الواقعة قبالة أيلة فى خليج العقبة ، وبذلك تمكن الصليبيون من الاشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة (٣) •

وحتى يتمكن بلدوين الاول من توطيد نفوذه على الساحل الفلسطينى ، قام بفرض الحصار على عكا ، عقب عيد القيامة عام ١١٠٣ م ، وعكا من الموانئ الساحلية الهامة (٤) • وشهدت السنة التالية ١١٠٤ م سقوط عكا بعد ان خاض الحصار البرى والبحرى عليها ، وساهمت الاساطيل الجنوبية فى الاستيلاء عليها ، وللمرة الاولى توفرت اسباب الامن للمقادمين الى الشام من ناحية البحر ، وتوقفت هجمات المسلمين (٥) •

وفى عام ١١٢٠ م خطا بلدوين الثانى (١١١٨ - ١١٣٠ م) خطوة عظيمة بالنسبة لتجارة مملكة بيت المقدس ، محتذيا حذو بلدوين الاول فى السياسة الاقتصادية ، فقد اصدر بلدوين فى ذلك العام قانونا منح فيه جميع اللاتين - سواء المقيمين أو الحجاج أو المتنقلين - اعفاءات تجارية ضخمة ، منها

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥ - ص ٢٦ •

(٢) يقع ميناء أيلة فى الركن الشمالى الشرقى لخليج العقبة ، وكان لها شأن عظيم فى التاريخ القديم وفى العصور الوسطى ، لان موقعها فى اقصى خليج العقبة جعلها ملتقى تجارة القوافل التى كانت تتجه من الموانئ الفلسطينية الى جنوب بلاد العرب ، وكان ميناء أيلة تابعا للشام ويعتبر ميناء فلسطين • (دائرة المعارف الاسلامية مادة أيلة) •

(٣) مسعود عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٢٧ - ص ٢٢٨ •

(٤) William of Tyre : Hist. of Deeds Done Beyond the Sea. Ibid : pp. 570—541.

Ibid. pp. 455—456

(٥)

الاعفاء التام من الرسوم الجمركية لكل بضاعة ترد الى المملكة أو تصدر منها (١) . وفي نفس الوقت أجاز بلدوين الثانى للمسيحيين الشرقيين : السريان ، والروم ، والأرمن ، بالإضافة الى العرب ، أجاز لهم حرية الدخول لبيت المقدس لتصرف محاصيلهم دون دفع أية رسوم . والواقع أن الغاء الرسوم الجمركية والمحلية التى قيدت النشاط التجارى وأعاقته فى العاصمة ، يدل على ذكاء ملك بيت المقدس ، ليس فى الجانب الاقتصادى فحسب ، ولكن أيضا فى الجانب السياسى ، وقد كان لهذا الاجراء نتائج بعيدة المدى ، اذ أدى الى المساهمة فى الازدهار الاقتصادى لمملكة بيت المقدس ، وحافظ على الدور الهام الذى لعبته المملكة فى النشاط التجارى ، خاصة فى القرن الثالث عشر (٢) .

وقد استأنف ملوك بيت المقدس تلك السياسة الناجحة ، فوضع فولك (١١٣٠ - ١١٤٣ م) فى الاعتبار ، ضرورة تأمين مواقع الصليبيين شرقى البحر الميت ، من أجل احكام السيطرة على طرق القوافل بين مصر والشام وشبه الجزيرة العربية ، لذلك وافق على تشييد حصن شرقى البحر الميت عام ١١٤٢ م على تل فى صحراء البتراء Petra Deserti اشتهر باسم حصن الكرك ، وكان لموقعه من الاهمية ما هيا له السيطرة على الطرق الوحيدة المسالكة ، الممتدة من مصر وغربى بلاد العرب الى الشام ، فضلا عن أنه لم يكن شديد البعد عن مخاضات نهر الاردن الأدنى (٣) . وبهذه الوسيلة اشتدت قبضة الصليبيين على طريق القوافل التجارية ، خاصة بعد أن اضحى أرناط سيديا لحصن الكرك . فقد دأب على مهاجمة القوافل المتجهة من دمشق الى القاهرة ، وطريق الحجاج الى مكة المكرمة . وبذل صلاح الدين الايوبي محاولات عدة من أجل الاستيلاء على حصنى الشوبك والكرك ، منها محاولة عام ١١٧٣ م التى فُرض فيها الحصار على الكرك ، ولكنه سرعان ما رفع الحصار ، وقفل راجعا الى مصر (٤) .

(١) Grousset : Hist. des Croisades. T. I. p. 540

(٢) Ibid : pp. 540-541.

(٣) رنسيما : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ - ص ٢٧١ .

(٤) Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury Ier p. 305

أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٥ - ص ٥٦ .

وعلى الرغم من المعاهدات التي أبرمت بين صلاح الدين والصليبيين ، للسماح بمرور القوافل التجارية الآتية من مصر الى الشام ، الا أن ارناط كثيرا ما نقض تلك الاتفاقيات بقطع الطريق على القوافل التجارية ؛ ولم يبال بالسمعة السيئة التي لصقت به كناقض للمعاهدات ، فمن دواعي سرورة الاستيلاء على قوافل التجار والحجاج في طريقهما من الشام الى مصر ومكة (١) . ففي عام ٥٨٢ هـ انتهز فرصة مرور قافلة ضخمة متجهة من مصر الى الشام ، « وفيها خلق عظيم ، ومال كثير فاستولى على الجميع قتلا واسرا ونهباً » (٢) .

وفي تلك الاثناء ، كان ارناط قد خرج بمشروع صليبي في البحر الاحمر الغرض منه تدمير مكة والمدينة من ناحية ، والسيطرة على تجارة ذلك البحر من ناحية أخرى (٣) . وبدأ ارناط تنفيذ مشروعه بالاستيلاء على ايلة عام ١١٨٢ م ، ذلك المركز الهام الذي استرده صلاح الدين عام ١١٧٠ م ، والذي كان بوسعه تهديد الثوبك والأراضي الصليبية في وادي عربة . ولما كان من المتعذر على الصليبيين الاحتفاظ بأيلة دون السيطرة على جزيرة فرعون المواجهة لها في خليج العقبة ، فقد شرع ارناط في بناء عدة سفن حملت أجزاءها مفككة على ظهور الجمال ، حتى خليج العقبة حيث فككت (٤) .

ولم يكد يتم تركيب السفن الصليبية ، حتى استولى بعضها على جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) ، واخذ البعض الآخر يقوم بالاغارة على الموانئ المصرية الصغيرة على البحر الاحمر ؛ ومن الموانئ التي أغار عليها ارناط ميناء عيذاب المواجه لميناء جدة (٥) . وهكذا تنبه الصليبيين الى المكانة التي احتلتها تجارة البحر الاحمر ، فحاولوا تحطيمها (٦) ، لكن صلاح الدين الأيوبي

(١) Lane — Poole : Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem.

(٢) ابن أبيك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ص ٥٠ - ص ٥١ .
 سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٨٩ .
 (٣) أبي الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٦٥ .
 (٤) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٦٦ - ص ١٦٧ .
 (٥) ابن أبيك الدواداري : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٧١ .
 (٦) محمود الحويري : أسوان في العصور الوسطى ، ص ١٠٥ .

أسرع بإصدار تعليمات عاجلة الى أخيه العادل ، فاعد الأخير اسطولا قويا ، اسند قيادته لحسام الدين لؤلؤ ، الذى استطاع احباط تلك المحاولة الصليبية (١) . وعلى الرغم من فشل محاولة ارناط ، فقد عاد الى قلعته الكرك ، واقام فيها ، « كالذئب المجروح يلحق جراحه » ، ولم تتغير طبيعته ، فعاد الى الهجوم على القوافل التجارية التى تمر بجوار قلعته (٢) .

على أن ما قام به ارناط الصليبي لايؤخذ حكما عاما على جميع الصليبيين فى القرن الثانى عشر . فالواقع أن المدن ببلاد الشام قد ازدهرت ، وتمتعت بنشاط كبير فى المجال الاقتصادى (٣) . ويشهد على ذلك الرحالة ابن جبير (٤) الذى قال : « ومن أعجب ما يحدث به فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسببهم يدخل الى بلاد المسلمين . كذلك يقول ابن جبير : « ومن أعجب ما يحدث أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى (فرنجة) ، وربما يلتقى الجمعان ، ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك . وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض . وللنصارى على المسلمين جزية يؤدونها فى بلادهم . وتجار النصارى أيضا يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الاحوال . واهل الحرب مشتغلون بحروبهم ، والناس فى عافية . والدنيا ان غلب (٥) » . وقصة التاجرين الثريين من دمشق ، وهما نصر بن قوام ، وأبى الدرياقوت العطاى خير دليل على ذلك أيضا ، فتجارتها كلها بهذا الساحل الافرنجى ، ولا ذكر فيه لسواهما . فالقوافل صادرة وواردة ببضائعها ، وسدانها فى الغنى كبير ، وقدرهما عند امراء المسلمين

(١) ابن بهادر : فتوح النصر ، ج ١ ، ورقة ٢١ - ورقة ٢٢ .

سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٦٩ .

Harold Lamb : The Crusades. p. 61

(٢)

Ziadeh : Urban Life in Syria. p. 61

(٣)

(٤) الرحلة ، ص ٢٧١ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٦٠ - ص ٢٦١ .

والأفرنجيين خطير (١) » . والواقع أن النشاط التجاري سار جنبا الى جنب مع التوسع الحربى . وكانت التجارة تمر خلال الصفوف العسكرية بمقتضى اتفاق متبادل ، وحرص الجناذبان الاسلامى والصليبي على ضمانه الامن للتجارة المتبادلة بينهما . ففى صلح الرملة الذى عقد بين صلاح الدين الايوبى وريتشارد قلب الاسد فى ٢ سبتمبر عام ١١٩٢ م ، اضحى للمسلمين والصليبيين الحق فى أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الآخر « ورحل جماعة من المسلمين الى يافا للتجارة (٢) » .

وبعد وفاة صلاح الدين الايوبى فى مارس ١١٩٣ م (صفر ٥٨٩ هـ) شهدت بلاد الشام فترة هدوء نسبى ، ولم ينزع المسلمون للاعتداء ، لما جنوه من أرباح نتيجة ازدياد النشاط التجارى . والمتتبع لاتفاقيات الهدنة (٣) التى عقدت بين أبناء صلاح الدين والصليبيين ، يستشف منها حرص الفريقين على الرخاء المادى وترف الحياة . والتاب أن الصليبيين فى بلاد الشام فى القرن الثالث عشر ، لم يكن لهم الرغبة فى قدوم حملات صليبية جديدة ، فقد غلبت عليهم الصفة الشرقية . وانصاعوا الى حياة الخمول والبذخ ، وأبدوا الرغبة فى التعايش السلمى مع المسلمين ، مما كان له أبعاد الاثر فى ازدهار التجارة . وبمعنى آخر يمكن القول أن « الروح الصليبية » فى منتصف القرن الثالث عشر ، حلت محلها « الروح أو النشاط الاقتصادى (٤) » .

ومن الجدير بالذكر ، أنه على الرغم من سيطرة الفرنجة على بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لم يكن لهم فى التجارة الداخلية الا نصيب ضئيل . إذ ان المتاجر جلبها من الداخل الى الساحل تجار مسلمون

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨١ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ١١٠ .

Thompson : Econ. and Soc. History. Vol. I p. 380.

(٣) ابن واصل مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب . ج ٢ صفحات ٧٨ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، واماكن أخرى متفرقة .

(٤) Richard : Le Royaume Latin. p. 274

أو مسيحيون وطيون ، وفي شمال الشام نقلها الى الساحل من انطاكية ايضا .
تجار نورمان وارمن (١) .

واستطاعت دولة المماليك ان تشعر العالم الاسلامي بأهميتها في الشرق الادنى ، فقد حرصت على رفع راية الجهاد ضد البقايا الصليبية بالشام من ناحية ، والمغول من ناحية أخرى . وجاءت بداية هدم الكيان الصليبي بالشام على يد السلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) ، الذي رجحت كفته على كفة الصليبيين بالشام ، مما أدى بفرنجة الساحل في يافا وبيروت عام ١٢٦٠ م (٦٥٩ هـ) الى طلب تجديد الهدنة التي كانت مقررة في الأيام الناصرية أي في صلح الرملة عام ١١٩٢ م ، فوافقهم على ذلك ، فأمنت الطرق على التجار ، وبالإضافة الى ذلك ، كتب الى أمرائه بحفظ البلاد حتى حدود العراق (٢) . كما حرصت مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا ومقدمو منظمته الاستبтарыة والداوية ، على عقد هدنة مع السلطان المنصور سيف الدين قلاوون عام ١٢٨٣ م (٦٨٢ هـ) ، لمدة عشر سنين وعشر أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، لحماية جميع التجار في عكا وصيدا وعثليت (٣) . وإلى المماليك يرجع الفضل في أن تجارة الشام الداخلية ، أضحت كلها في أيدي المسلمين ، لا سيما بعد الاستيلاء على عكا عام ١٢٩١ م (٦٨٩ هـ) ، آخر المعازل الصليبية بالشام . وقد ذكر المؤرخون أن السبب المباشر لفتح عكا على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، هو ثورة جماعة من الفرنجة بعكا ، فقتلوا جماعة من تجار المسلمين ، كانوا قد قدموا للتجارة ، وخوفا من غضبة السلطان المملوكي ، زعم سكان عكا من الفرنجة « أن ذلك انما فعله الفرنج الغرب (الوافدين الجدد) ، فكان ذلك من أكبر الأسباب التي أوجبت فتح عكا (٤) .

(١) Heyd. Histoire de Commerce., Vol. I pp. 393—400

(٢) ابن بهادر : فتوح النصر ، ج ١ ورقة ١٠٢ .

(٣) ابن الفرات : تاريخه ، المجلد السابع ، ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٩٨٥ - ص ٩٩٢ .

(٤) ابن الفرات : تاريخه ، المجلد الثامن ، ص ٩٢ .

ابن المحاسن : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، حوادث عام ٦٩٠ هـ .

ثانيا - النشاط التجارى للمدن الايطالية بالشام :

عاش الغرب الاوروبى حتى القرن الحادى عشر على النشاط الزراعى ، ثم كان أن ظهرت فى ذلك القرن حالة من السلام والاستقرار . مكنت التجار من مباشرة نشاطهم ، وبالتالي ساعدت على ازدهار المدن (١) . ومد ظل النشاط التجارى قائما بين المدن الايطالية من ناحية ، وارضى الدولة البيزنطية من ناحية أخرى ؛ ويمكن القول أن ذلك النشاط انحط الى أسفل درجاته فى القرن العاشر الميلادى ، وظل على ذلك حتى بدأت الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر . لتعمل على تحطيم نظام الضياع ، وتشجيع التجارة بوجه خاص ، فظهرت امالفي وجنوه وبيزا ومرسيليا وناربون وبرشلونة ، لتنافس البندقية فى ذلك النشاط (٢) . والثابت أن تجار ايطاليا ، كانوا فى نهاية القرن العاشر . قد استفادوا من جماعة الامبراطورية البيزنطية لهم ، فأسسوا علاقات تجارية مع مصر والشام (٣) . وفى اواخر القرن الحادى عشر . تحركت تجارة الغرب الاوروبى من النظام الاقطاعى فى اوربا ، بارتباطها بظروف أفضل ، فالدعوة الى الحروب الصليبية . التى قامت بها الكنيسة ، انتزعت الغرب من عزلته القديمة . ووجدت التجارة فرصتها فى مواكبة الحملات الصليبية من ناحية ، ومرافقة الحجاج الى الارض المقدسة من ناحية أخرى (٤) .

وقبل تحرك الحملة الصليبية الاولى الى هدفها ببلاد الشام . نالت المدن الايطالية تسديدة الحذر ، وبالغة الميل الى التمهل فى بذل ما وعدت به من مساعدة ، لعدم تقنتها فى نجاح الحملة الصليبية الاولى . ولكن المدن الايطالية لم تغير رأيها الا بعد أن أدركت أن الحرب الصليبية الاولى ، تبسر بالنجاح واحراز النصر ، لاسيما بعد الاستيلاء على مدينتى نيقية وانطاكية . فبادرت المدن التجارية الايطالية الثلاث : بيزا والبندقية وجنوه بارسال أساطيلها الى الشرق الأدنى لمساعدة الصليبيين ، مقابل امتيازات فى كل

Thompson : op. cit. Vol. I p. 380 (١)

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

Thompson : op. cit. Vol. I p. 380 (٣)

Boissonade : Life and Work in Medieval Europe. (٤)

مدينة أسهمت تلك المدن في الاستيلاء عليها • ورحب الصليبيون بتدخل المدن الإيطالية لانتقارهم الى القوة البحرية ، التي لولاها ما استطاعوا اخضاع المدن الساحلية بالشام من جهة ، أو الاتصال بالغرب الاوروبى من جهة أخرى (١) •

ففى عام ١٠٩٧ م أبحر اسطول جنوى الى انطاكية ، حاملا معه المؤن والامدادات العسكرية ، وبعد ذلك بسنتين ارسلت بيزا سفنا بأوامر من البابا من أجل المساعدة في انتزاع بيت المقدس من المسلمين • ومنذ ذلك الوقت فتح البحر المتوسط كل منافذه أمام التجارة الغربية ، وبالأحرى أعيد فتحه القوى البحرية الغربية مثلما كان الحال أيام الرومان (٢) • وعلى الرغم من ان النتائج التي استهدفت الحركة الصليبية تحقيقها ، كانت سريعة الزوال ، اذ استطاع المسلمون استعادة اراضيهم ، وطرد البقايا الصليبية ، فمن الملاحظ ان البحر المتوسط ظل في أيدي دول الغرب الأوروبى ، فهي التي أضحت مهيمنة عليه ، وعلى نشاطه التجارى دون منازع (٣) •

وكما رأينا من قبل ، أن استيلاء الفرنجة على بيت المقدس عطل طرق التجارة البرية من بلاد الشام الى مصر وغرب شبه الجزيرة العربية وبالعكس ، فقد رأى الصليبيون لزاما عليهم السيطرة على المنافذ البحرية للساحل الشامى لا سيما فلسطين ، ولم يكن في استطاعتهم ذلك الا بمساندة الاساطيل الإيطالية • لهذا نلاحظ أنه بمجرد ان رسا اسطول جنوى ضخم بميناء يافا فى يونيه عام ١١٠٠ م ، أسرع جودفرى باستقالة ، ودارت المفاوضات بينه وبين البنادقة ، وانتهت الى موافقة البنادقة على بذل المساعدة للصليبيين ، وفى نظير ذلك يكون لهم الحق فى حرية التجارة وانشاء كنيسة وسوق ، فضلا عن ثلاث الخنائم فى كل بلد يساهمون فى الاستيلاء عليه (٤) • وبعد وفاة جودفرى اتفق بلدوين الاول عام ١١٠١ م مع الجنوبيين الذين يمتلكون اسطولا اكبر من اسطول منافسيهم البيازنة ، اتفق معهم على أن يخدموه مدة فصل

Heyd : op. cit. Vol. I pp. 131—135

(١)

Pirenne : Med. Cities. p. 92

(٢)

Ibid. pp. 92—93

(٣)

Recueil des Historiens des Croisades. occ. Vol. I.

(٤)

pp. 272—273

من السنة . ويتقاضوا مقابل ذلك ثلث كل ما يتم الاستيلاء عليه من غنائم، وإن يكون لهم شارع في حى السوق بكل مدينة يتم فتحها ، ولم يكد الاتفاق يتم، حتى تحركوا لمهاجمة ارسوف ، فهاجمها بلدوين من جهة البر ، والجنويون من جهة البحر ، ولم تلبث أن انهارت ارسوف ، ووضع بلدوين يده عليها (١) . وفي مايو سنة ١١٠٣ م (٤٩٧ هـ) فرض بلدوين الحصار على ميناء عكا ، بمساعدة اسطول جنوى ضخمة ، اتفق مع قائده على ان يعطيهم ثلث الغنيمة وامتيازات تجارية . وتمكن بعد عشرين يوما من الحصار الاستيلاء على عكا (٢) . وعلى الرغم من ان ميناء عكا يبعد عن العاصمة بحوالى مائة ميل ، الا انه كان ميناء صالحا لرسو السفن في كل الفصول ، واضحى الميناء الرئيسى للمملكة . بدلا من يافا ، وجرى فيه شحن ما يرد من دمشق من السلع الى الغرب . وام تتوقف الحركة التجارية في عكا بعد سقوطها في ايدي الفرنج (٢) . واستداع البيزنطة الحصول على امتيازات تجارية نظير مساعدة تانكرد الوصى على انطاكية . في انتزاع اللاذقية من البيزنطيين . وتشمل هذه الامتيازات ان يجعل لهم تانكرد حيا في كل من مدينتي اللاذقية وانطاكية، فضلا عن اطلاق حرية التجارة . والاعفاء من المكوس في كل البلاد التابعة له، وقد اوفى تانكرد بعهده بعد سقوط اللاذقية عام ١١٠٨ م (٤) . ولم يتمكن الفرنجة الاستيلاء على طرابلس في شمال الشام عام ١١٠٩ م (٥٠٢ هـ) ، الا بمساعدة الاسطول الجنبى . وكافا برتراند صاحب داراباس ، بان صار للجنوبة حيا في طرابلس وحسن الكند اسطبل *Castrum Stabulari* ، الذى يقع على بعد عشرة اميال الى الجنوب من طرابلس ، بين انفه والبترون ؛ فضلا عن ذلك منحهم ثلثى مدينة جبيل . ومن قبل اعطاهم ريموند الصنجبل ثلث تلك المدينة عام ١١٠٤ م . عندما ساءموا في اسقاطها . وبذلك صارت

(١) *Recueil des Historiens des Croisades. occ. Vol. IV* pp. 452-453

(٢) ابن القلائسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٣ - ص ١٤٤ .

Jorga : *Brève Histoire des Croisades*. pp. 129-130

(٣) رنسيما : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

Heyd : *op. cit. Vol. I* pp. 145-146 (٤)

جبيل مستعمرة جذوية (١) • ونابع الصليبيون استيلائهم على المدن الساحلية ذات الطابع التجارى الهام • فبادر بلدوين بفرض الحصار على مدينة صيدا فى أكتوبر عام ١١١٠ م ، وبفضل مساعدة الاسطولين البندقي والجنوى ، جرى الاستيلاء على المدينة فى ديسمبر عام ١١١٠ م ، وحصل البنادقة مقابل ما ادوه من خدمات على امتيازات • بان جعل لهم كنيسة وبعض الممتلكات فى صيدا (٢) •

ولم يتبق للصليبيين من المدن الساحلية سوى عسقلان وصور ، فالتمس بلدوين المساعدة من البنادقة ، وفى آخر مايو عام ١١٢٣ م ، وصل اسطول البنادقة يتألف من مائة سفينة حربية ، وبعد ان دارت المفاوضات قرر الصليبيون ان ينازله دسور أولا ، لان ميناءها يعتبر خبر الموانىء الواقعة على امتداد الساحل ، بالاضافة الى انه يفوق عسقلان فى الاهمية التجارية كما انه كان الميناء الذى ترد اليه محاصلات دمشق • على ان شروط البنادقة لتقديم مساعدتهم استهدفت الحصول على امتيازات تجارية مبالغ فيها هذه المرة ، فاصروا على ان يكون لهم فى كل مدينة بالملكة شارع وكنيسة وحمامات وفرن ، ويصبح لهم الحرية فى استخدام موازينهم ومكاييلهم فى اعمالهم التجارية لادين انفسهم فحسب ، بل مع سائر الذين يتعاملون معهم وينبغي ايضا اتفاههم من كل الضرائب فى سائر انحاء المملكة ، وتقرر أيضا ان يصير لهم ثلث كل من مدينتى صور وعسقلان متى ساهموا فى الاستيلاء عليها • وفى نذير ذلك واذى البنادقة على دفع ثلث ما يتقاضونه من الحجاج من الاجور للخرانة الملكية (٢) • وفى يوليو عام ١١٢٤ م ، سقطت مدينة صور ، بعد ان ضيق عليها الحصار من البر والبحر ، وأقلع البنادقة راجعين بعد ان حصلوا على ما ارادوا من امتيازات • وبسقوط صور تم وضع الأساس المتين لتجاره البندقية فى الشرق •

-
- (١) ابن الفلاس : المرجع السابق ، ص ١٦٣ - ص ١٦٤ •
 Grousset : op. cit. Vol. I pp. 359--360.
 Heyd : op. cit. Vol. I p. 148 (٢)
 (٢) رتسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٦٥ - ص ٢٦٨ •
 سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥١٨ - ص ٥٢٢ •
 C. Med. H. Vol. I pp. 411-413

وهكذا ربطت مملكة المقدس نفسها بالبحر ربطا متينا ، وباتت تتصل بالغرب الاوربي عن طريق البحر ، وبواسطته استطاعت الحصول على ما تحتاج اليه من امدادات بحرية ومادية . وقد قامت المدن الايطالية الثلاث البندقية وجنوه وبيزا ، بدور فعال ، في ربط الشام الصليبية بالغرب الاوروبي ، واذا كانت تلك المدن قد بذلت المساعدة للصليبيين ، فانها لم تفعل ذلك بسبب وازع ديني ، وانما حصلت نظير ذلك - كما رأينا - على امتيازات تجارية هامة .

وفي الوقت الذي استطاع فرنجة الشرق السيطرة على الجزء الشرقي من البحر المتوسط ، كان التجار الايطاليون هم اصحاب السيادة في نقل المحاصيل الشرقية بين موانئ الشرق وموانئ الغرب (١) . والثابت ان الحركة الصليبية - بعد نجاحها - استطاعت ان تحول البخر المتوسط الى بحيرة لاتينية، وعلى هذا اطلقت الجمهوريات الايطالية ومدن بروفنس وقطالونيا العنان للمنافسات فيما بينهما (٢) . ومن المحتمل ان مرسيليا كانت المدينة الوحيدة من بين مدن جنوب فرنسا ، التي استطاعت ان تنافس المدن الايطالية ، وان تحول جزءا من تجارة الصليبيين المبكرة الى مينائها (٣) . ففضلا عن الدور الذي لعبته مرسيليا خلال الحروب الصليبية ، هناك العديد من الادلة التي تثبت نجاح مرسيليا في الشام . اذ في عام ١١١٧ م حصل تجار مرسيليا على امتياز بان يكون لهم «حى» في بيت المقدس لا يشاركون فيه غيرهم ؛ وفي عام ١١٥٢ م منح الملك بلدوين الثالث امتيازا لاهالى مرسيليا ، باقامة مصانع لهم في كل موانئ فلسطين وتأسيس حى لهم في صور ؛ وبعد ان استرد المسلمون مدينة بيت المقدس على يد صلاح الدين الايوبي ، جدد جباى لوزيجنان حقوق الامتيازات لمرسيليا ، بأن اعفى سفنها الكبيرة والصغيرة من كل رسوم الموانئ ، وصار لهم محكمتهم الخاصة بهم في عكا (٤) .

Carl Stephenson : Med. History. p. 580

(١)

Loissenade : op. cit. p. 174

(٢)

Thompson : op. cit. Vol. I p. 401

(٣)

Thompson : op. cit. pp. 401—402

(٤)

والامتيازات التي حصلت عليها المدن الإيطالية كانت سخية ، معفاة تماما من أية أعباء ، غير ملتزمة بالنظم الاقطاعية للفرنجة ببلاد الشام ؛ وقد تضمنت هذه الامتيازات منحة « الحى » Quarter الذى كان يشكل مقاطعة أو جزءا من الحكومة الأم في الارض المقدسة ، مستقلة عن السلطة الشرعية الملكية (١) . وكان لكل مجموعة من التجار تنتمى الى مدينة ايطالية ما ، وكيل خاص بها Bailiff لرعاية مصالحها التجارية ، وكان لتلك المجموعات أيضا موازينها ومقاييسها الخاصة المتداولة في الوطن الأم (٢) .

ومما لا شك فيه أن المستعمرات التجارية الإيطالية ببلاد الشام ، كانت تدين بالولاء والاخلاص لحكوماتها الوطنية ، لانتق في مملكة بيت المقدس الاقطاعية ؛ وطالبت تلك المستعمرات مملكة بيت المقدس باستقلالها التام ، فحصلت عليه ، لأن الصليبيين كانوا لا يستطيعون الاستغناء عن أساطيلهم ، ومن ثم منحهم إعفاءات . وهكذا أنشئت الفنادق Fandachi أو الأحياء الأجنبية المستقلة في موانئ الشام ، وكلمة فندقو Fondaco مشتقة من الكلمة اليونانية باندوخيون Pandocheion وهى التى تعنى مركز أو محطة تجارية ، ثم حرفها العرب بعد ذلك الى فندق Funduk والإيطاليون الى فندقو Fondaco (٣)

والفندق في المقام الأول مجتمع متحد للتجارة ، يحتفظ في البلاد الأجنبية بالعادات الاجتماعية والنشاطات التى يزاولها في الوطن الأم ، أى يجعل الفرد يشعر أنه يعيش في بلده الاصلى ؛ وفي داخل السياج المسور ، وهو غالبا مساحة كبيرة ، وجد دائما : كنيسة ، وشارع ، ومكان للسوق ، وميدان ، وحمامات ، ومخابز ، ومصانع للجة ، ومنزل للوكيل التجارى ، ومستودعات ضخمة لتخزين البضائع ؛ وقد شغل الفندق – أو المؤسسة – عادة مساحة تبلغ الربع الكامل لمدينة أو ضاحية منها (٤) . وقد عاش التجار في تلك الفنادق.

Loc. cit. (١)

Loc. cit. (٢)

Thompson : op. cit. Vol. I p. 402 (٣)

Loc.cit. and Day : A History of Commerce. P. 87 (٤)

وفقا لقوانينهم الخاصة ، وهو امتياز حرصوا دائما ان تحتوى عليه براءة الامتياز ، وفي بعض الأحيان كان يضاف شرط هام ، يقضى بأنه اذا جرى قيام دعوى قضائية بين مواطن وأجنبي ، فان القضية ينبغي ان تعرض أمام محكمة اجنبية تحكم طبقا للقانون الذى يتبعه الأجنبي (١) . ويمثل هذه الحقوق التى حصل عليها التجار الايطاليون كان من السهل عليهم ان يحتكروا تجارة الشرق . ومن الجدير بالذكر ان المستعمرات الإيطالية ببلاد الشام كانت فى ايدي موظفين من اعظم العائلات الإيطالية ، يعينون من قبل حكومة الوطن . وقد اطلق على الجنوية والبيازنة - نيم القنصل Consoli وسمى البنادقة منهم باسم النواب (الوكلاء) Baili (٢) .

والثلاثة الكبار -- البندقية وجنوة وبيزا -- احتل كل منهم مكانة اختلفت عن الاخرى فى موانئ، الشام وفلسطين ، بمعنى ان البندقية تركز نشاطها التجارى - بشكل اعظم - فى البحر الايجى ، والقسطنطينية ، وموانئ آسيا الصغرى من الشرق ؛ وفى الشام احتل النشاط التجارى لجنوة المرتبة الاولى، تليها بيزا ، ثم مالش حتى تسربت اليها مرميريا (١) . وقد اهتم البعض من التجار الايطاليين بالحصول على اسواق وهران فى المدن الداخلية (٢) . أما البنادقة فلم يهتموا بالحصول على مراكز لهم فى المدن الداخلية ، عدا مدينة القدس ذاتها ، فى حين اهتموا بتركيز نشاطهم فى المدن الساحلية وبخاصة عكا ثم صور وصيدا وحيدا بعد ذلك (٥) . ولم تقتصر النافع التجارية للصليبيين على المدن الإيطالية ، فمرسيليا - كما قلنا - تمتعت بامتيازات مشابهة لمنافستها فى فلسطين ، واستفادت من الارباح الناجمة عن نقل الحجاج والجنود (٦) ؛ ولم يقف الامر عند حدود مرميريا ، شتى المراحل التى انشأها عبر ظهرت الاساطيل الانجليزية والفلمنكية والالمانية والدانمركية والنرويجية فى البحر المتوسط . أما الاسبان ، فقد كان دورهم ضئيلا فى الحروب الصليبية،

Thompson : op.cit. Vol. I P. 402

(١)

Ibid : pp. 402 403.

(٢)

Ibid. P. 404

(٣)

Ibid. Loc. cit.

(٤)

(٥) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٢٢ .

Archer : The Crusades, P. 437

(٦)

فقد ظهر التجار من برشلونة في صور خلال القرن الثاني عشر ، بيد أن تجارة هونتبلية في الشام الفرنجية ، كانت أعظم أهمية منها ، إذ حصلت على إعفاءات ، وصار لها قنصل في عكا وطرابلس . كما أن السوريين والأرمن واليهود ، كانوا منافسين خطرين للجمهوريات البحرية الإيطالية ذات الشهرة والاختصاص في التجارة ، حتى أن المسلمين كان لهم بيوت تجارية في المدن الأفرنجية (٤) .

وعلى الرغم من أن الإيطاليين ساعدوا الصليبيين في فتح المدن ، ومن ثم حصلوا على مزايا هائلة في الأرض المقدسة ، فإن اعتنابهم الرئيسي بالتجارة ظل مستمرا في مصر . فهم لم يعقدوا بالشام صفقات توازي ما عقده في الاسكندرية التي حجز فيها الإيطاليون طيلة العصر الوسيط كله في أحياء ضيقة عليها رقابة شديدة . والواقع أن تجارة الإيطاليين مع الاسكندرية في ذلك الوقت ، ضمنّت لهم التجارة المربحة للبحر الأحمر ، ولهذا فإن توقف الصليبيين وانحسارهم ببلاد الشام ، تم طردهم في النهاية ، كل ذلك لم يلحق إلا بالتجارة الإيطالية (٢) . ولا يخفى أن الحجم الفعلي للتجارة التي تجرى في موانئ الشام الفرنجية ، يقل عن ذلك الذي كان يمارس في القسطنطينية والاسكندرية . وعلى أية حال ، فإن النشاط التجاري للمدن الإيطالية ، سواء بالاشتراك مع الصليبيين أو من دونهم ، جعل لهم السيادة النامة على البحر المتوسط (٣) .

غير أنه لا ينبغي أن ننسى ، أن الحركة الصليبية في بلاد الشام ، أدت إلى ازدياد الثروات للمدن الإيطالية جنوة وبيزا والبندقية ، فضلا عن برشلونة وناربون ومرسيليا وغيرهم . فقد قامت أساطيل تلك المدن بنقل الحجاج والصليبيين من ناحية ، والتجارة في السلع الشرقية التي نقلوها إلى الغرب

Thompson : op. cit. Vol. I P. 425

(١)

Chalandon : op. cit. P. 360

(٢) توفيق اسكندر : بحوث في التاريخ الاقتصادي ، ص ١٧٦ .

(٣) توفيق اسكندر : نفس المرجع والصفحة .

من ناحية أخرى (١) . ولم تكن السلع التي أجتازت موانئ الشام حتى السنوات المتأخرة من القرن الثاني عشر بالغة الضخامة . فرسوم الديوان (الجمرک) على السلع العابرة ، لم تتجاوز عشر قيمتها ، ولهذا كان من اليسير أن ندرك السبب في أنه قل أن عمرت خزانة الشرق الفرنجي بالمال ، وفي نزوع ملوك بيت المقدس في معظم الأحوال إلى القيام بالغارات في الأوقات التي يتطلب فيها الشرف والدبلوماسية منهم المحافظة على السلام (٢) . ويعتبر القرن الثاني عشر ، والعشرات الأولى من القرن الثالث عشر . العصر الذهبي لما جنته الجمهوريات الإيطالية من أرباح ببلاد الشام . غير أنه من المستحيل القول أن للصليبيين في بلاد الشام علاقة بتطور التجارة الأوروبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فمن الواضح أن سلع الشرق من الحرير والسكر والتوابل وغيرها ، وصلت إلى أوروبا قبل قيام الحروب الصليبية ، وكانت أمالفي والبندقية هما المدينتان الرئيسيتان اللتان أمدتا الغرب الأوروبي بالسلع الكمالية . وبخروج أمالفي من السباق ، نتيجة الغزو النورمانى لجنوب إيطاليا ، أدى إلى تفوق البندقية التجارى في الفترة التي بدأت فيها الحروب الصليبية (٣) .

ومن الجدير بالذكر ، أن العلاقات كانت بين المدن الإيطالية البحرية الثلاث - جنوة وبيزا والبندقية - لم تكن على صفاء مطلقا ، بسبب التنافس على المصالح التجارية . وقد انتقلت هذه الخصومات إلى بلاد الشام . حيث اشتد النزاع بين المدن الثلاث ، بل وصل الأمر إلى حد الاشتباكات في شوارع عكا ، وتعداه إلى حد التدخل في النزاعات القائمة بين القوى السياسية في بلاد الشام ، وليس من شك في أن الخصومة بين المدن الإيطالية ، وجشعها الذي

(١) Boissonade : Life and Work in Med. Europe. P. 174
C. Med. H. Vol. V. P. 329

سونيا هار : فى طلب التوابل ، ص ٤٢ - ص ٤٣ .
(٢) La Monte : Feudal Monarchy. PP. 171 - 173

(٣) C. Med. H. Vol. V. Pp. 328 - 329

لا ينطفئ ومنازعاتها الحادة ، كل ذلك أدى الى انهك القوى الصليبية بالشام ، واودى بالبقية الباقية منها (١) .

ومن الامور التي أثرت في النشاط التجاري لموانئ الشام تأثيرا خطيرا في القرن الثالث عشر ، كانت غزوات المغول ، اذ شجع المغول التجار على اتخاذ الطريق البري عبر امبراطوريتهم من الصين الى تركستان ، فموانئ البحر الاسود أو ميناء اياس على البحر المتوسط . كذلك أدى غزوهم للعراق الى اغلاق طريق الخليج الفارسي فبغداد فدمشق ، الامر الذي اثر في تجارة الشام تأثيرا خطيرا (٢) .

ثالثا - طرق التجارة البرية والبحرية المؤدية الى الشام :

سلكت تجارة الشام على زمن الحروب الصليبية عدة طرق برية وبحرية، انتهت الى الساحل الشرقي للبحر المتوسط . فعلى ذلك الساحل انتهت الطرق البرية التجارية الآتية من الشرق الأقصى ، ومن الخليج الفارسي ، ومن البحر الأحمر في الفرع الممتد من ايله عبر سيناء والشام ، وكذلك الفرع القادم جنوبا من آسيا الصغرى والفرع القادم من أوروبا برا ، ثم الطريق البحري الرئيسي من غرب أوروبا وإيطاليا (٣) .

ومن أشهر الطرق البرية المؤدية الى الشام ، والتي سهلت على التجار نقل الحاصلات والبضائع هي : -

١ - طريق الخليج الفارسي - بغداد : وهو أقدم الطرق البرية وأهمها في العصور الوسطى ، يبدأ من رأس الخليج الفارسي ، ثم يتجه بفروعه النهرية أو البرية من البصرة الى بغداد حيث يتفرع فرعين : يتجه الأول شمالا الى ديار بكر ، ويتجه الثاني غربا الى دمشق ، ومنها تخرج فروع

(١) Thompson : op. cit. Vol. I Pp. 420 - 421

سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١١٠٥ - ص ١١٠٦ .

شارل ديل : البندقية ، ص ٥١ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١٢٦٢ - ص ١٢٦٤ .

(٣) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها أو آخر العصور الوسطى ص ١٤٦

الى موانى ساحل البحر المتوسط ، ثم جنوبا الى مصر ، وفرع يتجه شمالا
بغرب الى حلب ، ثم الى آسيا الصغرى ، ليلتقى بالطرق القادمة من وسط
آسيا برا ، ويتحد معها الى القسطنطينية (١) احد نقاط الاتصال بين الشرق
والغرب على زمن الحروب الصليبية (٢) . وقد فقد ذلك الطريق أهميته في
القرن الثالث عشر بسبب الغزو المغولى ، الذى قلب العالم الآسيوى رأسا على
عقب ، والذى انتهى بقيام امبراطورية المغول ، التى امتدت من بكين وقرقورم
على بحيرة بيكال حتى الشام (٣) . ولم يلبث المغول ان نسجوا التجار على
ان يسلكوا الطريق البرى الاتى من الصين ، ثم يجتاز تركستان ، ثم يمضى
الى جنوب بحر قزوين ، ويخترق فارس الى طرابيزون على الساحل الجنوبى
للبحر الاسود ، او الى اياس فى مملكة قلايقية بأرمينية ، ومن الطبيعى ان
تطور اياس يقلل من أهمية الموانى الفرنجية (٤) .

٢ - طريق الشام - مصر : يتجه ذلك الطريق من دمشق الى طبرية،
ثم الى اللجون ، ثم الى الرملة ، ومن الرملة الى غزة ، ثم الى العريش ، ثم
الى الفرما ، ثم الى القاهرة (٥) . وقد كانت القوافل التجارية تسلك ذلك
الطريق الى ان قامت الحروب الصليبية ، وبنى بلدوين حصن الشوبك ، ومن
ثم أخذ يوجه ثماراته على العريش ، مما أدى الى اغلاق ذلك الطريق من ناحية،
وسيطرة الصليبيين على طرق القوافل من ناحية أخرى . ولما استرد المسلمون
بيت المقدس على يد صلاح الدين ، عادت القوافل التجارية الى طريق
الساحل (٦) .

٣ - طريق القسطنطينية - انطاكية : وهو طريق برى ، يبدأ باخراق
جبال طوروس خلال الدرب الكبير المعروف بابواب قيليقية ، الى قيليقية ، ثم

(١) Day : op. cit. P. 84

معيم زكى : المرجع السابق ، ص ١١٧ - ص ١١٨ .

(٢) C. Med. II. Vol. IV P. 762

(٣) ديل : البندقية ، ص ٦٢ .

(٤) Heyd : op. cit. Vol. II Pp. 70 - 74

(٥) المقرئى الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(٦) نفس المكان .

يجتاز سلسلة جبال أمانوس الى انطاكية خلال الدرب ، المعروف باسم أبواب الشام (١) .

٤ - طريق وسط آسيا : ويبدأ ذلك الطريق البرى من وسط آسيا ومن الهند عبر جبالها وممراتها الى نهر الأثيل ، وتقابل مع القوافل الوافدة من الصين ، ثم يسيران معا حتى بخارى ، حيث يتفرع فرعين : الاول الى بحر قزوين ، والثانى يتجه الى البحر الاسود وموانيه ، ثم القسطنطينية وأوروبا ، وتخرج منه فروع جانبية الى حلب ساحل البحر المتوسط (٢) .

٥ - طريق اليمن - مكة - الشام : وهذا الطريق فى غربى شبه الجزيرة العربية ، تقطعه القوافل بهذا البحر الاحمر ، من اليمن حتى تصل الى مكة ، ومنها الى البتراء شمالا ، ومن البتراء الى اسواق الشام أو مصر أو بلاد ما بين النهرين (٣) . وقد استخدمت شبه الجزيرة العربية ، منذ القدم كمحطة تجارية للعبور بين الهند وأوروبا ، عن طريق مصر والشام (٤) .

٦ - الطريق البرى من غرب أوروبا الى المشرق : ويبدأ هذا الطريق من بلاد الاندلس الى طنجة عبر مضيق جبل طارق ، مجتازا المغرب الاقصى والوسط والادنى عن طريق تونس ، حتى يصل الى مصر ، ثم يتجه الى بلاد الشام مارا بالرملة ودمشق (٥) .

وعلى أية حال ، فاننا اذا امعنا النظر فى خريطة قارة آسيا ، لوجدنا أن بلاد الشام كونت حازا الى حد ما ، بين آسيا والبحر المتوسط ، فعن طريقها ظلت الطرق التجارية متصلة بأوروبا (٦) .

(١) رنسيما : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٩ - ص ٢٧٠ .

(٢) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

(٣) على السليمان : النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٤) Nau : Les Arabes Chrétiens, P. 7

(٥) جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، ص ١٥٠ .

(٦) Thompson : op. cit. Vol. I P. 404

أما الطرق البحرية التجارية المؤدية الى الموانئ الشامية ، على الساحل الشرقى من البحر المتوسط ، فمن الجدير بالذكر ، انه لم تكن هناك طرق مباشرة بين شرقيه وغربيه . وانما تخرج السفن من المدن الايطالية وجمهورياتها متفرعة غربا الى غرب اوروبا ، وشرقا الى مصر والشام والاناضول ، مارة بمراكز عدة : فمن البندقية شمالى الادرياتى تخرج السفن فى طريقين ، يسير الاول بحذاء ساحل دلماشيا مارا براجوزا ، ثم الى كورفو ويدور حول شبه جزيرة المورة ، وعندها ينقسم قسمين يتجه احدهما الى ساحل الشام مارا بكريت ورودس وقبرص وموانئ بيروت وطرابلس الشام وعكا ، ويتجه الآخر الى الاسكندرية مباشرة ، أما الفرع الآخر فينتجه غربا (١) .

ومن الطرق البحرية الى وصلت الى موانئ الشام ، طريق بحرى من الشرق الاقصى الى البحر الاحمر ، ثم يتجه شمالا بعد ان يترك البحر الاحمر ، عبر سيناء الى دمتشق ، ثم موانئ ساحل البحر المتوسط .

ومنذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، بعد غزو المغول لغرب آسيا ، وتعطيل الطريق التجارى البرى من وسط آسيا ، وطريق البحر الاحمر من اكثر الطرق التجارية اهمية بين الشرق والغرب ، فهو بعيد عن ميادين الحرب بين المغول والمماليك (٢) .

وبلغت حركة الملاحة البحرية القادمة الى موانئ الشام بالساحل الشرقى من البحر المتوسط ، على زمن الحروب الصليبية ، درجة عالية من الازدهار والنشاط . ومن المشاهد ان الملاحة فى البحر المتوسط ، اصبحت احتكارا على سفن الجمهوريات الايطالية البحرية وسفن الغرب الاوروبى ، ذلك لأن الفرنجة نجحوا ، بمساعدة الجمهوريات الايطالية ، فى فرض حصار بحرى على السفن الاسلامية فضلا عن انهم بذلوا أقصى جهودهم لانتزاع الموانئ الفلسطينية من ايدى مصر (٢) . وقد نشطت حركة نقل الحجاج بعد قيام الكيان الصليبي ببلاد الشام ؛ فمما لا ريب فيه ان الحجاج فضّلوا

(١) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

(٢) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٢٤ - ص ١٢٥ .

Grousset : op. cit. T. I P.185

(٢)

الطريق البحري ، لأن الطريق البري عبر الاناضول كان مازال معرضا للخطر ، ولا يستطيع اختراقه الا جماعة جيدة التسليح (١) . بيد أن الحاج الذي كان يفضل الابحار الى الاماكن المقدسة ، لابد له في هذه الحالة أن يحصل على مكان له في سفينة ايطالية ، ووصلت اجور السفر بحرا الى حد بالغ الارتفاع . وقد يجتمع عدد من الحجاج سويا ، فيستأجرون السفينة بأكملها . على أن الحاج القادم من شمال فرنسا او انجلترا ، كان من الاوفر له أن يرتحل في قافلة صغيرة من السفن المتجهة الى الشرق ، ولكن ذلك الطريق كان محفوا بالاطار ، اذ قد تتعرض تلك السفن لهجمات القراصنة المسلمين المتربصين في بوغاز جبل طارق ، وعلى كل حال ، فان الجماعات الكبيرة من الحجاج ارتكنت على اساطيل المدن التجارية الكبيرة .

وتميزت سفن البحر المتوسط التي قامت بنقل الحجاج الى موانئ الشام ، بفخامتها وتفوقها على أية سفن أخرى . غير أنه من الصعب الاعتقاد أن بعض تلك السفن استطاعت نقل الف حاج أو الف وخمسمائة حاج على ظهرها (٢) . ومن المحتمل أن السفينة استطاعت نقل ما يربو على مائة حاج ، اذ من المؤكد أن حمولتها تراوحت بين اربعمائة وخمسمائة طن . وتحسنت الملاحة تحسنا هائلا ، واخذت اسرع السفن مجرى مستقيما ، بدلا من أن تظل قريبة من الساحل ، جارية من خليج الى خليج ، ومن جزيرة الى أخرى ؛ واستطاعت السفينة السريعة الكبيرة ذات المجاديف ، في حالة تيسر الطقس المعتدل ، وهدوء البحر ، أن تبحر من مرسيليا الى عكا ، خلال خمس عشرة يوما (٣) .

ويرتبط ببداية الحروب الصليبية ، التقدم الهائل في قوانين الملاحة البحرية بسفن البحر المتوسط ، وتتعلق تلك القوانين ببناء السفينة واعدادها وحمولتها (٤) . ويرجع الفضل الى الصليبيين ، في وضع الاصول الاولى

(١) رنسيان : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ .

Day : op. cit. P. 71 & (٢)

Boissonade : op. cit. P. 174

Thompson : op. cit. P. 430 (٣)

Ibid, loc. cit (٤)

للقانون البحري التجاري ؛ وقد احتوت قوانين بيت المقدس على مجموعة من النظم والقوانين البحرية ، نستدل منها على التنظيمات التي وضعها ملوك وامراء غرب أوروبا لأساطيلهم في البحر (١) . وعرفت الملاحة البحرية . تأسس « قانون السفن » Ship Law الذي نظم العلاقة بين البحارة والمسافرين (٢) .

ومن الصعوبات التي واجهت النقل البحري في ذلك الوقت العرف المتبع ، وهو انه اذا جنحت سفينة ولقى الموج بها او ببضائعها على الساطئ ، فانها تصير غنيمة لصاحب الارض التي جنحت اليها السفينة (٣) . ففي عام ١١٧١م (٥٦٧ هـ) ، ابحرت بعض السفن من مصر الى الشام ، وعند رسوها في ميناء اللاذقية ، استولى الفرنجة على سفينتين محملتين بالامثلة والتجار المسلمين ؛ وكان الفرنجة قد وقعوا هدنة مع نور الدين محمود ، فاما بلغة خبر السفينتين ، طالبهم بهما . ولكنهم احتجوا عليه بأن الركبين قد دخلهما ما البحر اكسر فيهما . وان « السادة جارية بأخذ كل مركب يدنا » (٤) .

وقد حدث ايضاً لاسرة اسامة بن منقذ ان ابحرت في سفينة فرنجية من دمياط الى الشام ، وعندما دنت السفينة من عكا ، خرج اليها رجال ملك عكا ، وكسروها بالمؤوس ، ونهبوا كل ما فيها من اموال وهتاع . بحجة انها انكسرت ، ومن حقهم نهبها (٥) . وعلى هذا فقد حرص السلاطين المسلمون في معاهداتهم مع الفرنجة ، على ان تنقذ السفن متى تعرضت للغرق في المياه ، وترد الاموال لاصحابها ، وخير معاهدة لذلك ، تلك التي عقدها السلطان الملك المنصور قلاوون مع الفرنجة في ٣ يوليو ١٢٨٣ م (٦٨٢ هـ) (٦) .

ويتصل بموضوع النقل البحري التجاري في البحر المتوسط ، نظام قوافل السفن الموسمية . فلا تكاد تخلو معاهدة من معاهدات العصور الوسطى

(١) Archer : op. cit. P. 438

(٢) Thompson : op. cit. P. 430

(٣) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٢٠ - ص ٢٢١ .

ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٦٧ هـ .

(٥) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٣٤ - ص ٢٥ .

(٦) ابن الأثير : السلوك ، ج ١ ص ٩٨٥ - ص ٩٩٢ .

من الإشارة إليها في مجال عددها ومواعيدها ونظمها ، وهى المعروفة في تاريخ البندقية التجارى البحرى باسم نظام « المدة » وهو يقابل كلمة « قافلة » بحرية تجارية (١) . ومن القوافل التى كانت للبندقية قافلة الشام ، التى كان وصولها الى الشرق اىذانا بعودة النشاط الى الصفقات التجارية ، وكذلك كانت عودتها من الشرق ينتظرها الاهالى بفارغ الصبر (٢) . وقد رتبت البندقية مواعيد سفر سفنها التجارية الى الشام بما يتفق الى حد كبير مع أوقات هبوب الرياح ، ومع ترتيب عقد الاسواق الموسمية فيها ؛ وانتظمت رحلات سفنها في اربع دراحل ، ففى الرحلة الأولى تخرج السفن من البندقية في شهر يناير لتصل موانئ شرق البحر المتوسط في شهر مارس ، ثم تقوم من هذه الموانئ بعد توسيق سفنها في شهر ابريل لتصل للبندقية في شهر يونيو ، ولدى عودتها للبندقية تتجهز للرحلة الثالثة التى تبدأ في شهر يوليو وتصل مقصدها في شهر سبتمبر ، وتعود في شهر اكتوبر لتصل البندقية في شهر ديسمبر ، وتتجهز للرحلة في شهر يناير ، وهكذا (٣) .

وطوال العصور الوسطى ، ظلت الشام منطقة عبور للتجارة الشرقية والغربية ، وعرف هذا النظام باسم « تجارة العبور أو الترانزيت » ، فتصل السفن الاوروبية لموانئ الشام ، حيث تجد تجار المنطقة ، وقد جلبوا المتاجر والسلع الشرقية من الهند والشرق الاقصى ووسط آسيا وافريقية ، فيتوالون نقلها الى أوروبا (٤) .

رابعا - أهم المراكز التجارية :

من المعروف أن العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ، وجدت قبل الحروب الصليبية بزمان طويل ، ولكن الغزو الصليبي لبلاد الشام أثر فيها بشكل خاص . اذ صارت تجارة البحر المتوسط كلها - بوجه التقريب - في

-
- (١) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .
 - (٢) شارل ديل : البندقية ، ص ٢٨ - ص ٢٩ .
 - (٣) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .
 - (٤) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

أيدى الجمهوريات البحرية الإيطالية ومدن جنوبى فرنسا (١) . وقد استقر فى المدن الشامية ، لاسيما الساحلية ، العديد من التجار الاوروبيين والارمن واليهود ، بالاضافة الى الوطنيين . ومما زاد فى الاقبال على الاستقرار ، أن الشام ، نقطة اتصال بين تجارة الشرق وتجارة الغرب ، فعن طريقه أنتت سلح وحاصلات آسيا الوسطى والشرق الاقصى . هذا بالاضافة الى الوافدين من حجاج الغرب الأوربي والمغامرين وغيرهم .

وفى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كانت مدن وموانى الشام مراكز emporia لتجمع السلع ، أقام فيها التجار للاشراف على مصالحهم التجارية . وفى خلال القرن الثانى عشر ، ازدهرت على الساحل بعض المدن الواقعة تحت سيطرة الصليبيين مثل عكا وصور وببيروت وطرابلس وانطاكية والملاذقية ؛ كذلك كانت حلب ودمشق وحماه وحمص أهم المراكز التى كانت فى أيدى المسلمين (٢) . وشاهد القرن الثالث عشر اختفا ، أهمية مدن تجارية مثل عسقلان وانطرطوس وجبله ، وتضاؤل أخرى مثل يافا والملاذقية وصيدا ؛ وفى الداخل عانت حمص نفس الأفول ، ويرجع السبب فى ذلك الى زوال النفوذ الايوبى ، فضلا عن الغزو المغولى للشرق الادنى ، مما ادى الى تقييد خريطة الشرق التجارية (٣) . وعلى اية حال ، فان مدن عكا وصور وببيروت وطرابلس وانطاكية ، ظلت تؤدى عملها حتى زوال الكيان الصليبي : اما حلب ودمشق ، فقد ظلتا - الى حد ما - المراكز الرئيسية للنشاط الاقتصادى فى الأجزاء الداخلية من الشام (٤) .

وكانت عكا أهم المدن الساحلية ببلاد الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لها ميناء آمن صالح لرسو السفن (٥) ، تمتعت بنفوذ تجارى

Chalandon : op. cit. P. 359

(١)

Ziadeh : Urban Life in Syria. P. 134

(٢)

Loc. cit.

(٣)

Loc. cit.

(٤)

Ziadeh : op. cit. P. 135

(٥)

عظيم ، فاق أى ميناء آخر ، وقد شبهها ابن جبير فى عظمتها بمدينة القسطنطينية ، لأنها كانت « مجتمع السفن والرفاق » وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطىء الأقدام (١) ، كما وصف أبو المحاسن (٢) عكا قائلاً : « كانت مظنة التجار » . وتعتبر عكا انشط الموانىء فى التجارة ، وكانت الميناء الطبيعى لدمشق ، ولم تستخدم فحسب لمنتجات مصانع دمشق وأراضى حوران الخصيبة بل افاد منها ايضا ، التجار القادمون من اليمن ، الذين سلكوا طريق الحجاج بحذاء حافة ساحل بلاد العرب ، وآثر الوافدون الى الاماكن المقدسة - بحرا - النزول بها لا بيافا ؛ على أن العيب الوحيد فى ميناء عكا ، هو أن الميناء الداخلى بلغ من الصغر انه لم يتسع للسفن الكبيرة فى ذلك الوقت ، فكان من الضرورى أن ترسو تلك السفن خارج حاجز المياه ، فتعرض للرياح الجنوبية الغربية ، واما أن تمضى ازاء الساحل الى ميناء صور الذى يفوق ميناء عكا اتساعا وأمنا (٣) .

وازدهرت بيروت على عصر الصليبيين ، كمدينة غنية ، قوية ، مزدهمة ، تميزت بميناء ممتاز (٤) . ويصفها ابن حوقل قائلاً : « وتجارات البحر عليها دائرة واردة وصادرة » (٥) ، وجمرك بيروت من اغنى جمارك الشام واحفلها . وتمر به السلع التى تصل الى دمشق من البحر المتوسط أو التى تخرج منها الى أوروبا ، كما انه السوق الطبيعية لمنتجات دمشق المحلية (٦) .

واستحققت اللاذقية عن جدارة ، أنها خير ميناء فى شمال الشام ، نظرا لأنه صالح لكل مناخ وطقس ، على الرغم من أن السويدية الواقعة على مصب

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٥ .

(٣) رنسيما : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٦١٠ .

(٤) Ziadeh : op. cit. PP. 135-136 .

(٥) المسالك والممالك ، ص ١٧٦ .

(٦) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٤٨ - ص ١٤٩ .

نهر العاصي كانت أكثر منالا لأنطاكية وحلب ، وفضلا عن ذلك ، فان ميناء اللاذقية ، كان على اتصال سهل برودس وقبرص (١) .

ومن أهم المراكز التجارية في شمالى الشام ، مدينة حلب ، التى تقع في أرض سهلة ، غزيرة المياه ، على بعد عشرين فرسخا من الفرات ؛ ومنذ عهد بعيد موغل في القدم ، كانت حلب نقطة يلتقى فيها الطريق الآتى من الخليج الفارسي حتى نهر الفرات ، مع طريق القوافل الآتى من آسيا الوسطى . حيث تنقل السلع الى موانئ البحر المتوسط (٢) . كذلك كانت حلب مركزا اتجمع القوافل التجارية الآتية من آسيا الصغرى والشام ، مارة الى بغداد وفارس والهند داخل آسيا (٣) . وتميزت حلب بثرائها الهائل على زمن الحروب الصليبية ، وعمرت بالأسواق الواسعة ، والقيصر والحمامات ، ودأب التجار على جلب مختلف الحاصلات اليها ، وظلت محتفظة بأهميتها التجارية حتى الغزو المغولى ، ومع أنها قاست الكثير على يد المغول ، الا أنها سرعان ما استعادت مركزها (٤) . ومن خصائص أسواقها ، أن ما يعرض بها من سلع ينفذ ساعة وصوله ، وفاقت في ذلك القاهرة ، « اذا حضر اليها مائة حمل حرير ، فانه يباع في يوم واحد ، ويقبض ثمنه ، ولو حضر الى القاهرة التى هى أم البلاد عشرة احمال لاتباع في شهر وعلى هذا ففس ! (٥) » .

واحتل ميناء طرابلس أهمية بالغة في تجارة الشام الخارجية والداخلية . وهو مخرج تجارة منطقة حلب ، وصلة التجار الأجانب من آسيا وأوروبا ، والوطنيين من حمص وحلب ودمشق وحماه وبعبك (٦) . ويصل الى ميناء طرابلس تجار الفرنجة ، محملين بمختلف السلع (٧) ؛ وطرابلس كمدينة ، كانت عامرة بالأسواق والفنادق والمصانع (٨) .

Ziadah : op. cit. P. 66 (١)

Thompson : op. cit. Vol. I P. 360 (٢)

Loc. cit. (٣)

Ziadah : op. cit. P. 136-137 (٤)

(٥) ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ حلب . ص ٢٥٤ .

(٦) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٧) ابن الشحنة : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .

Ziadah : op. cit. . 136 (٨)

ولاريب أن ميناء صور قد احتل المركز الثانى على الساحل ، خلال الوجود الصليبي ببلاد الشام ، وأتى اليه التجار من جميع انحاء العالم ، مما أدى الى تأثير فيتري Vitry بالعدد الهائل من السفن الراسية في الميناء (١) . ويبدو أن صيدا لم تكن قادرة على منافسة عكا وصور في عهد الصليبيين (٢) . وتعتبر صيدا منفذا لدمشق (٣) .

ودمشق كانت من المدن البالغة الاهمية ابان الحروب الصليبية ، فهي مستودع تجارة وسط آسيا الى أوروبا ، وتنتصل بالبحر المتوسط بطريق ميناء بيروت الذى يبعد عنها مسبرة يومين (٤) . وأمتلات دمشق بالتاجر الكبيرة ، والاسواق الكاملة العاهرة بالحاصلات ، وما من شئ يرغب المرء الا وجده في أسواقها ، ولم يكن يفوق ثروتها وتجارنتها الا القاهرة (٥) .

وانطاكية من المدن القديمة التى تقع في شمال الشام ، وسط سهل خصيب في الحوض الأدنى لنهر العاصى Orontes (٦) . وتصب في انطاكية الطرق الأرمينية وأعلى الجزيرة ، الأمر الذى أدى الى أن أضحت تلك المدينة المستودع الرئيسى للحاصلات الواردة من الهند والصين ، فضلا عن كونها أحد المراكز الكبيرة للتجارة الشرقية بالنسبة للغرب (٧) . ولكن سقوط تلك المدينة في أيدي المغول عام ١٢٦٨ م ، أصابها بلطمة ، جعلتها تفقد أهميتها التجارية ، فنظرا لان الحد الفاصل بين امبراطورية المغول وسلطنة المماليك يمتد على نهر الفرات ، لم تعد التجارة القادمة من العراق والشرق الاقصى تجتاز حلب ، بل التزمت بلاد المغول ، وانتهت الى البحر المتوسط عند ايباس في قيليقية (٨) .

(١) Ibid. 135

(٢) Ibid. 136

(٣) أحمد عارف الدين : تاريخ صيدا ، ص ٧٧ .

(٤) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٤٧ - ص ١٤٨ .

(٥) Ziadeh : op. cit. P. 137

(٦) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة انطاكية .

(٧) Hulme : The Middle Ages. PP. 479 - 480

(٨) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٥٥٩ .

٥. خامسا - اهم السلع التي كانت هجور النشاط التجاري :

لعبت بائذ الشام - كما راينا - على زمن الحروب الصليبية ، دور الوسيط : التجاري في نقل السلع والحاصلات بين الشرق الادنى والاقصى من جهة وبين الغرب الاوروبي من جهة اخرى . ومما زاد في اهمية ذلك الدور الطرق البرية والبحرية التي تمر عبر بلاد الشام . وتجمعت في اسواق تلك البلاد مختلف الحاصلات ، التي قام بنقلها الجمهوريات الايطالية البحرية ، ومدن جنوب فرنسا ، فضلا عن التجار الوطنيين .

وقد اولع الغرب الاوروبي بالسلع الشرقية ، واشتد اقباله عليها ، خاصة التوابل التي حازت المكانة الاولى بين تلك السلع حتى نهاية العصور الوسطى ، وقد اعتاد الغربي استعمالها في الاطعمة منذ الحروب الصليبية ، اما لشدة البرد في اوروبا ، او لتبئل الطعام وحفظه ، او لاستعماله كعقار طلي (١) والواقع ان التوابل التي استوردت من وسط اسيا والشرق الاقصى ، صارت من الضروريات في الغرب الاوروبي على زمن الحروب الصليبية ، اذ أحدثت تغييرا في عادات النبلاء والاشراف ، وساهمت في توفير وسائل الراحة والرفاهية للغرب الاوروبي (٢) . واستعملت التوابل بصفة مستديمة في طهي الطعام وصنع النبيذ والبيرة المتبلة ، وان ساعات الشتاء لتبدو طويلة لمن لم يساعد الحظ على احتساء فنجان من شراب دافئ مزج بشيء من التوابل والبهارات فالفلفل ، والجنزبيل ، وجوزة الطيب ، والقرنفل ، والقرفة ، كلها كانت مبعث انتعاش للقلوب ودواء للأمراض (٣) . وبالإضافة الى ذلك الأفاوية التي استخدمت في الأغراض الطبية : الراوند والألوية (الصبر) الذي استخدم كمسهل ، والبلسم ، واللبن الجاوي الذي استخدم في الطب وصناعة العطور ، والكبابة (حب العروس) الذي استخدم في علاج الاضطراب البسولي ،

(١) توفيق اسكندر : المرجع السابق ، ص ١٤٠

(٢) Thompson : op. cit. Vol. I PP. 430-431

(٣) سوزيا هاي : في طلب التوابل ، ص ٢٢ .

١٣٣

والكاثر (١) • ومن الواضح أن أوروبا الغربية لم تتصل عن كئيب بصور الحياة في الشرق إلا بعد قدوم فرسانها الصليبيين ، لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وترتب على ذلك ازدياد الحاجة للتوابل بصورة ملموسة ، ومن أجل التوابل ، ظلت بلاد الشام الهدف الأول للسفن الأوروبية ، إلى أن جاء اليوم الذي تم فيه اكتشاف طرق بحرية جديدة ، تمكن البرتغاليون من خلالها ، إمداد أنفسهم بالتوابل من منابعها مباشرة (٢) •

وعلى عصر الحروب الصليبية ، ذاع صيت الشام في صناعة الزجاج والتحف الزجاجية ، لوفرة المواد الأولية اللازمة لهذه الصناعة ، واحتلت صور وحلب ودمشق وانطاكية ، مكانة فائقة ، كما صنع الخزف في عدة أماكن من الشام (٣) • وأدعى الأوروبيون قطن الشام لجودته ، ومن المدن التي تفوقت في زراعته حلب وحماه ، لخصوبة أراضيها (٤) • واحتكر التجار الجنوبيون والبنادقة تجارة الشب في ميناء عكا (٥) •

ومن أهم منتجات الشام قصب السكر ، الذي لم يكن معروفا في أوروبا قبل الحروب الصليبية ، فلما أتى الصليبيون إلى الشام تفوقوه لأول مرة ، خلال حصار انطاكية من ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧ م إلى ٢٨ يونيو ١٠٩٨ م ، فقد كتب وليام المالدسبري William of Malmesbury « زادت غزارة الأمطار من الأمناء ، ولما كان الكثير من التعساء لا يملكون سوى ما يرتدون ، ماتوا من قسوة البرد ، إذ لم يكن لديهم غطاء يلتحفون به لأيام عديدة ، ولوحظ النقص في الخيم والأخشاب ، ومن أجل تهدة غائلة الجوع ، وجد التعساء ضالتهم في نبات حلو ، صاروا يعضغونه باستمرار ، أطلقوا عليه عصا وعسل Cannamel وقد تحدث البيرت الأكسي Albert of Aix عن قصب السكر قائلا : «يزرع

(١) Day : op. cit. p. 80

(٢) Pirenne : Economic and Social History of Med. Europe. P. 143

(٣) زكي محمد حسن : الفنون الإسلامية ، ص ٦٠٧ • سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ، ص ١٩٠ - ص ١٩١ •

(٤) Heyd : op. cit. Vol. I P. 612

(٥) Ziadah : op. cit. P. 135

• بهذا النوع من العشب سنويا بمجهود كبير • وعندما ينضج يسحقه أهل الشام في هاون ، ويصفون العصير ، ثم يضعونه في أوان حتى يتجمد ويتصلب . فيشبه الجليد أو الملح الأبيض ، ويطلقون على تلك العصى السكر (Zucra) (١) . وتعلم الصليبيون من السكان الوطنيين طريقة استخراج السكر من القصب ، واشتهرت طرابلس وبيروت وصور بزراعته ، وتعتبر الأخيرة المركز الرئيسي لصناعته ؛ ومعظم ما كان يستهلك من السكر في أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، جاء من بلاد الشام (٢) • وقد استخدم سكر الشرق الفرنجي في الغرب الأوروبي في العلاج وعلى الموائد الشهية ، بدلا من عسل النحل الذي كان شائع الاستعمال قبيل الحروب الصليبية ، واهداء قطعة من السكر في ذلك الوقت ، يعني ذلك مدى الذهب الذي للمهدي إليه (٣) •

وعلى الرغم مما اشتهرت به فلسطين من اشجار الزيتون ، فمن الراجح أن زيت الزيتون ، لم يصدر الى الغرب الأوروبي الا في كميات ضئيلة ؛ وفي نفس الوقت شوهدت فواكه فلسطين النادرة مثل الليمون الحلو • والرمان ، على موائد الأغنياء في ايطاليا (٤) •

وشملت السلع التي وصلت الى أسواق بلاد الشام العطور ، والبخور ، ومن أنواعها : عود اللند ، والاسك ، وخشب الصندل ، والعنبر ، والبخور ، واللدن ، والمصطكى ، وقد ورد معظمها من أسواق الشرق الأقصى (٥) •

ولا ريب أن مدينة بيت المقدس أحرزت شهرة هائلة على أيام الحروب الصليبية ، لما لها من مكانة دينية في قلوب المسيحيين • لهذا شهدت فترة

(١) Thompson : op. cit Vol. I. 395

(٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٦١ •

المقدس : أحسن التقاسيم في معرفة الممالك ، ص ١٨٠ •

Heyd : op. cit. Vol. I PP. 178 - 179

Day : op. cit. P. 80 (٣)

Heyd : op. cit. Vol. I PP. 177 - 178 (٤)

(٥) نعيم زكي : المرجع السابق ، ص ٦٢٦ •

الحروب الصليبية العديد من الحجاج الوافدين الى الارض المقدسة . ومن الطبيعي أن الحاج راqqته في تلك المدينة التحف الفنية الشرقية ، تعرض في الحوانيت الصغار ، منها التحف الفنية المسيحية ، والمسابع ، والصلبان ، والمصابيح الدينية ، والصور ، والايقونات (١) . وربما اشترى الحجاج مذاخرا (علبا) عربية الطراز لحفظ المخلقات المسيحية . أو لبسوا ونقلوا المنطقات الشرقية ذات الاكياس الى باريس بغية تقليدها (٢) .

وتجارة العبيد أو الرقيق ، وهى تجارة الانسان فى أخيه الانسان ، كانت فى أيدي التجار البنادقة والجنوية ، الذين أثروا ثراء فاحشا من جراء مزاولتها ، ووصل مندوبون عنهم الى البلاد البعيدة ، حتى بلغوا بلاد ماوراء النهر ، ولهذا اضحى سوق الرقيق يقوم عليه تجار جنوة والبندقية ، يضم أصنافا مختلفة ، والوانا غير متجانسة ، منهم الارمنى والنوبى والقوقازى والفارسى والهندي والديلمى ، واليونانى والروسى ، وقد اشئت الاقبال على شراء الرقيق اقبالا عظيما ، مما يدل على مغالة النحاسين فى الأثمان ، وكثرة الضرائب لتي يدفعها التجار عن الرؤوس التى يجلبونها ونوعها (٣) . وقد وجدت فى الشام اسواق لبيع الرقيق فى المدن الكبيرة ، مثل عكا (٤) .

ومن المصنوعات الهامة التى عرفت بها بلاد الشام ابان الحروب الصليبية ، المنسوجات . صحيح أن أوروبا كانت على مقدرة كافية فى صناعة السلع الكتانية والصوفية التى صدرتها بكميات معقولة الى آسيا ، ولكن مهارتها الفنية كانت عاجزة فى مصنوعات القطن والحرير ، لعدم وجود الحرفيين أو الصناع الماهرين البارعين فى تلك الصناعة ، لهذا استوردت أوروبا كميات كبيرة من الاقمشة الجاهزة من الشام . وقد احتاج أصحاب المناصب الرفيعة فى الكنيسة ، والامراء ، للملابس المطرزة بالقصب أو بالذهب أو بالفضة ،

Pierre Loti : Jerusalem. P. 53

(١)

(٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٣ .

(٣) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ١٤٨ .

Richard : Le Royaume Latin. P. 122

(٤)

والقטיפية والاطلس (الساتان) التي تفوقت على جميع المنسوجات الغربية ، وكل تلك الملابس كانت ترد من الشام (١) . وقد انتجت مدن شامية عديدة ، صناعة المنسوجات ، مثل حمص وحماة وطرابلس وبعبك وحلب وصور ودمشق وانطاكية ، وتفاخرت طرابلس بان لديها ٤٠٠٠ نول حرير ، وكان بها ٢٠٠٠ عامل ، يعملون في صناعة المنسوجات الحريرية (٢) . وكثر الطلب في أوروبا على حرير الشرق المعروف باسم البروكار ، والذي كان يجلب من الاسكندرية ، وطرابلس ودمشق وانطاكية (٣) . وبعض المنسوجات الحريرية ، خلدت أماكن صناعتها الاصلية ، فالموصلين من الموصل والدماسك من دمشق (٤) .

ومن الصناعات التي وجدت في الشام على زمن الحروب الصليبية ، صناعة الورق ، واشتهرت دمشق وحلب بها (٥) ؛ وعندما عرف الأوروبيون الورق عن العرب ، أطلقوا عليه اسم « الصحائف الدمشقية » *Charta Damascena* نظرا لأن دمشق كانت سوقا رئيسيا لتجارة الورق (٦) . كذلك كان الصابون من الصناعات التي انتشرت في انطاكية وطرسوس وعكا (٧) . ومن المرجح أن الأوروبيين قد اقتبسوا صناعة الحلى المنقوشة ، من تلك السلع العربية التي دخلت أوروبا ، عن طريق التجارة ، أو التي جلبها معهم الصليبيون عند عودتهم من الشرق (٨) .

أما السلع التي كانت تأتي من الغرب الاوربي الى بلاد الشام خلال فترة الحروب الصليبية ، كانت تتمثل في الثروات الطبيعية والحاصلات والمواد الخام ، مثل الحديد والنحاس والصوف والعبيد (٩) .

Day : op. cit. P. 83 (١)

Heyd : op. cit. Vol. I P. 179 (٢)

نعيم زكي : طرق التجارة ، ص ٢٤٦ (٣)

Cheyney : The Dawn of a New Era. P. 9 (٤)

Ziadch : op. cit. P. 133 (٥)

٦١، سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ١٨٧

Thompson : op. cit. Vol. I P. 404 (٧)

٨١، سعيد عاشور : النهضة الأوروبية ، ص ٢٧٥

Orton : Outline of Med. History. P. 222 (٩)

وهكذا توافرت في الشام مختلف السلع والمصنوعات التي شاعت في الغرب الأوروبي ، ووجدت اقبالا شديدا لدى شعوب الغرب الأوروبي ، مما أدى الى تشجيع الحروب الصليبية للتجارة الدولية ، والمساهمة في اثرائها .

سادسا - النظم والمعاملات التجارية :

بعد أن استولى الفرنجة على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، وقامت مملكة بيت المقدس الصليبية ، التي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان ، ظهرت مشكلة أرقّت الكيان الصليبي . تلك المشكلة هي التناقص الشديد في اعداد اللاتين ؛ صحيح أن العديد من الصليبيين لا قوا حتفهم خلال الزحف على الشام ، ولكن العديد ايضا فضل العودة الى اوطانه في الغرب الأوروبي بعد وصول الحملة الصليبية الى هدفها .

ومن المعروف أن الصليبيين - وهم قلة - لم يتمكنوا من جلب الأيدي العاملة من الغرب الأوروبي ، بالإضافة الى أنهم احتقروا أعمال الارض . لذلك كانوا مضطرين من أجل استغلال البلاد والقيام بما يلزمهم ، الى التعاون مع الأهالي الوطنيين . وعلى هذا فان الوفاق بين الغالب والمغلوب ، أدى الى ظهور نظام اقتصادي مميز للفرنجة في الشرق (١) . وعلى عهد بلدوين الاول جرى تشجيع أعداد متزايدة من اللاتين على الاستقرار في مملكة بيت المقدس ، فظهرت بها طبقة بورجوازية لاتينية الى جانب طبقة النبلاء ، وصار البورجوازية اللاتينية الحرة التامة في ممارسة التجارة داخل المدينة وخارجها (٢) . ولابد أن فترة الحروب الصليبية ببلاد الشام ، أدت الى اثراء أولئك التجار ، الأمر الذي جعلهم يمتلكون الاراضي والبيوت والعقارات في المدن بوجه خاص (٣) . ولم تلتزم تلك الطبقة الرأسمالية البورجوازية بأية تعهدات تجاه السادة الاقطاعيين في مملكة بيت المقدس الصليبية ، فضلا عن انها لم تلتزم بالواجبات الاقطاعية .

Chalandon : Histoire de la Première Croisade, (١)
P. 301

(٢) رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٢٤٨
Chalandon : op. cit. P. 302 (٣)

والتجار الايطاليون ، أفضل تعبير للطبقة الرأسمالية البورجوازية ، في الشام الصليبي . فالملوك الاوائل لمملكة بيت المقدس الصليبية ، اضطروا تحت ضغط الحاجة ، لمانشدة البنادقة والجنوية والبيازنة ، مد يد المساعدة اليهم لفرض السيطرة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط . ولكن التجار الايطاليين كانوا عمليين ، فنظير المساعدة حصلوا على امتيازات تجارية عظيمة واعفاءات جعلتهم لا يخضعون لأى سيد اقطاعى (١) . اذا لم يقف السادة الاقطاعيون موقف العداء بالنسبة لتلك الطبقة الرأسمالية البورجوازية ، بل على العكس من ذلك فقد تنازلت لها عن جزء من سلطتها السياسية ، وبهذا انهار الصرح الاقطاعى أمام المصالح الخاصة لتلك الطبقة الرأسمالية .

والحقيقة أن التجار الايطاليين وغيرهم ساهموا الى حد بعيد فى انعاش اقتصاديات البلاد . وقد دعت الاحتياجات المالية الناشئة عن التطور الاقتصادى ، الى ايجاد كمية وفيرة من النقد ، وطريقة للتداول الاسرع والأعم . ولم تكد تستقر الامارات الصليبية ، حتى شرع ملك بيت المقدس وأمير انطاكية وكونت طرابلس فى ضرب الدنانير من الذهب ، التى عرفت باسم الدنانير الاسلامية Saracene Besants (٢) ، وقد تم التعامل بها مع البلاد الاسلامية البعيدة عن الشاطئ ، وكان على هذه القطع نقوش عربية ، وبعض آيات صغيرة من القرآن ، وإشارة الى النبی محمد صلى الله عليه وسلم ، وتاريخ هجرى ؛ وقد استمر التعامل بتلك العملة حتى عام ١٢٤٩ م حينما احتج على ذلك البابا انوسنت الرابع (٣) ، فأصدر قرار الحرمان على كل من يتعامل بتلك العملة ؛ وعلى أية حال ، فإن التجار احتالوا على ذلك الخطر بسك عملات مشابهة تحمل نقوشا مسيحية والتاريخ الميلادى ، - وكلاهما باللغة العربية - ، وصليبي فى وسط العملة ، ويوجد حاليا نماذج عديدة لتلك العملة التى بدىء العمل بها عام ١٢٥١ م (٤) . واذا نظرنا الى

Ibid. P. 303

(١)

(٢) رتسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٦١٨ .

(٣) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١١٩ - ص ١٢٠ .

Miller : Essays on the Latin Orient. P. 526

(٤)

العملات التي كانت متداولة في الشام الصليبي لوجدناها مختلفة مثل اختلاف العناصر السكانية بها ، فعندما غزا الصليبيون الشام ، وجدوا بها نقودا بيزنطية وعربية ، استخدموها في التداول حتى لاتنقطع العلاقات التجارية ، وبالإضافة الى ذلك أحضروا معهم كمية كبيرة من مختلف عملات الغرب الأوروبي ، غير أنهم لم يلبثوا أن أسسوا دورا لسك النقود خاصة بهم ، وأشهر العملات التي أصدرها الفرنجة ، العملة الذهبية الرئيسية وهي البيزننت *Bezan* البيزنطي والدينار العربي ، أما العملات النحاسية فلم تسكها الحكومات الصليبية (١) . ولم يكن للمدن الإيطالية البحرية ، أو المنظمات الدينية الحربية ، حق إصدار عملات ، لهذا الحق وقف على حكام الامارات ، وليس للمقطعين الا ان يسكوا نقودا من البرونز لسد الحاجات المحلية (٢) .

وقد أدت ضخامة السيولة النقدية المتبادلة بين التجار ببلاد الشام ، على عصر الحروب الصليبية الى تأكيد وجود المصارف في المعاملات المالية . وكان لمعظم الجمهوريات الإيطالية التجارية في القرن الثاني عشر بنوك ضخمة لها فروع في جميع انحاء مراكز نشاطهم التجاري في الشرق والغرب ، عملت على تسهيل التعامل المالي والتجاري النقدي وغير النقدي بالسندات وخطابات الاعتماد بالشركات (٣) . والحقيقة أن الأعمال المصرفية ، وتداول الاوراق المالية بالشام ، ترجع الى القرن العاشر الميلادي ، عندما صار تعبير السفتجة مألوفا ، والغرض من السفتجة نقل الأموال من مكان الى آخر دون المصارمة باخطار الطريق ، وبنظام السفتجة امكن التعامل المالي والتجاري بين التجار على مسافات بعيدة (٤) ، بحيث اذا كان لاثنيين من التجار أموال عند صراف واحد ، أمكن لأحدهما دفع حساب الآخر بارسال ورقة الى الصراف يطلب منه

Thompson : op. cit. Vol. I P. 404 (١)

La Monte : Feudal Monarchy. pp, 74 - 175 (٢)

Thompson : op. cit. Pol. I P. 406

(٣) نعيم زكي : المرجع السابق ، ص ٣٤٠ .

Fischel : Jewis in the Economic and Political Life,
PP. 17-18

دفع المبلغ لزميله . وعملية نقل الاموال هذه سواء عن طريق النقد أو بالسفاتيح لابد انهما كانت مصدرا للدخل بالنسبة للصرافين ، اذ يمكننا الافتراض انهم تقاضوا عمولة معينة لدفع سفتجة ، كما نعرف انهم اخذوا عمولة لدفع صك Sakk ، وقد اشتهر اليهود والمسيحيون كصيارفه (١) .

وزاولت الطوائف الدينية العسكرية ببلاد الشام أعمال الصيرفة ، الى جانب نشاطاتهم الحربى ضد المسلمين الذين اشتهروا به . فالداوية ، بفضل ممتلكاتهم الشاسعة في جميع انحاء غرب أوروبا ، كان لهم نشاط مصرفى مائل ، اذ عهد اليهم بنقل الاموال من مكان الى آخر ، وايداع الاموال في أحد البيوت التي تنبض الداوية في الغرب الأوروبي (٢) . ولقد عرف الداوية نظام الايداع والسحب ، والودائع النقدية والعينية الثمينة التي ترد الى صاحبها عند الحاجة اليها ، واصدروا الايصالات في المعاملات المالية (٣) . ولم ينته القرن الثاني عشر ، حتى صار الداوية يمارسون عملية اقراض الاموال بفوائد مرتفعة واشتهروا بسمعتهم المالية ، مما جعل المسلمون يولونهم الثقة ، ويبدون من خدماتهم .

وقد تحدثت السياسة الضرائبية ببلاد الشام على أساس ان النشاط التجارى هو المصدر الأساسى للموارد المالية الاقتصادية ، تعتمد على التعامل التجارى والاتجار مع بلاد المسلمين ، لذلك فان الفرنجة اباحوا المرور للتجار والمسافرين ببلادهم . ولكى تخرج السلع المعاد تصديرها ، أو السلع الصناعية المحلية والمنتجات الزراعية ، لابد من دفع رسوم الصادر ؛ وفي حدود النظم الاتطاعية كانت السلع المستوردة والسلع الصناعية ، تصدم بضريبة سوق البيع ، ويتم المعاملة بالمائل بالنسبة للتجار المتجولين ، والتجار اصحاب الحوانيت ؛ وكان من المألوف ان المصنوعات المحلية ، لاسيما الأقمشة والوانى

Ibid. PP. 21 - 22

(١)

Choyuey : The Dawn of a New Era. P. 10-11

(٢)

Boisromade : op. cit. P. 168

(٣)

Lamb : The Crusades. P. 384

الخزفية والأشغال المعدنية ، لابد من دفعها ، ولاتصير صالحة للاستعمال الا بعد دفع الرسوم المقرر (١) . وقد أقام الصليبيون مواضع « تمكيس » على حدود اماراتهم ؛ وأطلق المسلمون على « الجمرک » الديوان ، الذى تعددت مصادر دخله المالى ، فبعضه كان يجبى من القوافل لاسيما القادمة من مصر وبلاد العرب القاصدة دمشق ، وهى قوافل متواصلة السير ، فكانت الضرائب تجبى على أحمالها فى مدينة الداروم ، وهى محطة للتفتيش والتقدير « والتمكيس » (٢) .

ومن الملاحظ أن الصليبيين لم يسيروا على سياسة ضرائبية ثابتة واضحة المعالم . ففى بعض الاحيان عمدوا الى زيادة الضرائب المقررة ، وذلك حين تستنفذ الحرب قدرا كبيرا من الثروة العامة ، كما انهم قد يفرضون ضرائب اضافية اذا دعت احدى الضرورات الحربية ، كاقامة الاسوار ، أو ترميم الحصون . وعلى الرغم من أن كتاب الديوان (الجمرک) من الصليبيين ، الا انه كان يتعين عليهم معرفة اللغة العربية لسانا وكتابة (٣) . ومما لا شك فيه ان الأمراء الصليبيين جنوا مبالغ ضخمة من وراء تلك الضرائب ، غير أنهم بددوها على الكنيسة والمنظمات الدينية الحربية ، وسمحوا أيضا لتلك الثروة أن تسيل من بين أصابعهم ، وتقع فى ايدى موظفين مبتزين ، كذلك استولت الطبقة البورجوازية التجارية الجشعة على جزء منها ؛ وعلى أية حال، فان ثروات ملوك بيت المقدس – بالرغم من قلتها – فاقت ثروات ملوك الغرب الأوروبى المعاصرين لهم (٤) .

ومن الجدير بالذكر ، أن الغرب الاوروبى اصدر قانونا بفرض ضريبة على الممتلكات الشخصية عام ١١٨١ م ، سميت بضريبة صلاح الدين ، وهى

Calandon : op. cit. PP. 349 - 350

(١)

(٢) نخلير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٢ .

(٣) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ١٥٢ .

(٤) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١٥١ – ص ١٥٣ .

Thompson : op. cit. Vol. I PP. 406 - 408

(٤)

محاولة مبكرة لفرض ضريبة من هذا النوع فى التاريخ الاقتصادى لأوروبا، كما أصدر فيليب أوغسطس عام ١١٨٤ م مرسوما بفرض ضريبة مماثلة (١) . كما دفع العالم المسيحى فى الغرب الأوروبى ضرائب ، ارتبطت فى تطورها بالحروب الصليبية ، بعد أن فرضها بعض الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا ، وريتشارد الأول ملك إنجلترا على رعاياهم العلمانيين والكنسيين من أجل الغرض الصليبي (٢) . وهكذا تكون الحركة الصليبية قد ساعدت على إيجاد تقدم ملموس فى النظم المالية فى الغرب الأوروبى . وهو تقدم له خطورته لأنه يعتبر بداية ونواة لنظام الضرائب الحديث (٢) .

وقد خدمت الاسواق التبادل التجارى فى بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية . ذلك أن وجود الكيان الصليبي ادى الى فتح البحر المتوسط - او بالأحرى إعادة فتحه فى وجه السفن الآتية من الغرب الأوروبى . وبالرغم من أن المسلمين تمكنوا من استعادة أراضيهم بعد أن وحدهم صلاح الدين الأيوبي ، فوجهوا الضربة اثر الضربة للصليبيين ، الا ان المسلمين لم يستطيعوا هز المركز الذى حصلت عليه المدن الإيطالية فى الشرق (٤) . ونخرج من هذا الى أن التبادل التجارى ظل قائما ، سواء فى ظل الكيان الصليبي أم بدونه ، واعتاد الفريقان (المسلمون والفرنجة) عقد اسواق تجارية سنوية ، يفد اليها التجار دون نظر للفارق الجنسى أو الدينى (٥) . ومن الثابت أن موافىء الشام عقدت فيها تلك الاسواق فى مواسم ومناسبات معينة، حيث يصل اليها التجار من الشرق والغرب . كما أن المستعمرات الإيطالية فى مدن الشام ، مارست التعامل التجارى فى تلك الاسواق ، كذلك لابد أن القناصل عقدوا الصفقات التجارية بالنقد والمقايضة والبيع المؤجل الدفع . والاسواق السنوية Fairs كانت أحد الملامح الرئيسية للتنظيم الاقتصادى فى العصور الوسطى ، ولعبت دورا هاما فى القرن الثالث عشر ؛ وقد انتشرت تلك الاسواق

(١) Stubbs : Select Charters, pp, 188- 189

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٩ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٢١٥ .

(٤) Pirenne : op. cit. PP. 31- 32

(٥) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

في جميع البلاد ، وتشابهت في سمات أساسية واحدة ، الامر الذي جعلها تعتبر ظاهرة عالمية (١) . ومن الثابت ان الاسواق كانت مراكز للتبادل التجاري. وجذبت اليها اعظم الاسواق السنوية بالمعارض الدولية ، التي يجد فيها كل تاجر الترحيب بصرف النظر عن بلده ، وتحتوى ايضا على كل سلعة تباع أو تشتري ، مهما كانت طبيعتها ، وبالإضافة الى ذلك ، فقد كان من المستحيل عقد أكثر من سوق أو اثنين خلال العام في مكان واحد ، ذلك أن الاستعدادات لتلك الاسواق تأخذ مجهودا ضخما (٢) .

كذلك عقدت بالشام أسواق موسمية ، في مواسم ورود التوابل من الشرق الأقصى ووسط آسيا لأسواق الشام ، وتخضع تلك الاسواق في ذلك لمواعيد هبوب الرياح الموسمية ، وتصل في مواعيد سنوية لا تتغير ، وفي نفس الوقت تصل السفن الأوروبية من الغرب الأوروبي ، لحمل السلع في مواعيد ثابتة. وتعتقد في ذلك الوقت المزادات (٣) .

أما الأسواق المحلية الدائمة بالشام ، فهي التي لم ينقطع فيها البيع والشراء على مدار السنة ، ومن الممكن أن ينطبق عليها اصطلاح «سوق دائم» لها أيام معينة في الأسبوع ، تعقد فيه الصفقات التجارية . وقد غلب على السوق الاسبوعي صفة التخصص ، ببيع اصناف معينة من البضائع ، فهذا السوق يختص ببيع سلعة كذا ، وذلك يختص ببيع سلعة أخرى ... وهكذا؛ ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه برفع اسعار السلعة التي يتجر فيها ، لأن منافسيه على مقربة منه ، كما ان المشتري اذا لم يرقه صنف السلعة أو ثمنها ، فانه يستطيع أن ينتقل في سهولة من متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة . أما عيوب هذا النظام ، فأهمها أن المشتري اذا رغب في شراء عدة اصناف مختلفة من البضائع ، فانه كان يجوب المدينة.

Pirenne : op. cit. P. 97

(١)

Loc. cit. &

(٢)

Pirenne :Medieval Cities.

(٣) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

طولا وعرضا حتى يقضى حاجاته ، لانه لن يجد في السوق الواحد سوى نوع معين واحد من البضائع (١) . ولم تترك حركة البيع والشراء في تلك الاسواق دون رقيب أو حسيب . فهناك المحتسب الذي كان من اختصاصه الطواف بالسوق للتفتيش على البضاعة ، وضبط من يحاول التلاعب في الاسعار أو الاوزان أو المكييل أو غش السلع ، فضلا عن سرعة البت في المخالفات التي ترتبط بالمعاملات التجارية . وقد اشترط في المحتسب ان يكون ذا مهابة ، ثقة في دينه وأمانته (٢) .

وشمة نوع من الاسواق انفردت به بلاد الشام خلال الحروب الصليبية، كثيرا ما ورد ذكره خلال المعارك التي كانت تدور بين المسلمين والصليبيين، على عهد صلاح الدين الايوبي . وهذا النوع عرف باسم « سوق العسكر » ، اقتضت اقامته الاحوال العسكرية ، فقد كان من المألوف عند تخطيط العسكر الاسلامي ، اول ما يفعل اقامة خيمة السلطان ومن حولها خيم امراء الجيش، ويشترط عند ضرب العسكر توافر المياه في ايدي المسلمين ، والازواد والكلاب على تل أو قرية أو في ارض سهلة (٣) . وفي المعارك التي دارت حول مدينة عكا (١١٨٩ - ١١٩١ م) ، شهدت تلك المدينة قيام معسكر للمسلمين ، سار فيه النشاط التجاري جنبا الى جنب مع النشاط الحربي ، ونستدل على ذلك من الوصف الذي اوردته لنا الرحلة عبد اللطيف بن يوسف البغدادي (٤) . عام ١١٩١ (٥٨٧ هـ) قائلا : « كان المشرق الذي في عسكر السلطان على عكا عظيمًا ، ذا مساحة فسيحة . فيه مائة واربعون دكان بيطار . وعددت عند طباح واحد ثمانية وعشرين قدرا ، كل قدر تسع راس غنم . وكانت احظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوفة عند شحنة المشرق واطلها سبعة الاف دكان . وكان في العسكر اكثر من ألف حمام . وكان أكثر ما يتولاه المغاربة ، يجتمع

(١) سعيد عاشور : العصر المالكي ، ص ٢٩٦ - ص ٢٩٧ . المجتمع المحدث

في عصر سلاطين المالكي ، ص ٨٦ .

(٢) الحسن بن عبد الله : اثار الاول ، ص ٦٥ .

(٣) نظير « بعداوى : جيش مصر في أيام صلاح الدين ، ص ٥٩ - ص ٦٠ .

(٤) الافادق والاعتبار ، ص ٨ .

منهم اثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ، ويأخذون الطين فيعملون حوضا وحائطا ، ويسترونه بحطب وحصير ويقطعون حطبا من البساتين التي حوله ، ويحمون الماء في قدور ، وصار حماما يغسل الرجل رأسه بدهنهم وأكثر .
وخلال تضيق الصليبيين الحصار على المدينة ، أتى من قبل الملك ريتشارد قلب الأسد رسل طلبوا فاكهة وثلجا ، فضلا عن التفاوض من أجل الصلح ، وحدث أنهم دخلوا سوق العسكر ، « وتفرجوا فيه ، وعادوا تلك الليلة الى معسكرهم (١) » . ومن الطبيعي أن سوق العسكر كان مؤقتا يجتمع فيه التجار لمدة معينة ، عند حدوث معركة أو فرض حصار طويل ، فاذا ما انتهى الغرض منهما ازيل السوق ، ورحل تجاره .

ومن الافراد الذين اشرفوا على التجارة الخارجية في الساحل الشرقي للبحر المتوسط القناصل التجاريين . وقد دعت الحاجة الى وجود القناصل عندما انتعشت التجارة الدولية ، وتطلب الوضع اقامة التجار في موانئ الشام الفرنجية ، لذلك صار من الضروري أن يقيم القناصل لرعاية التجار من مواطنيهم ، وحسم الخلافات التي قد تظهر بينهم . وأقدم القناصل في الشام الفرنجي ، أولئك الذين عينتهم جنوة في عكا عام ١١٨٠ م ؛ وقد كان هؤلاء القناصل يرأسون المحاكم الجنوية المحلية ، ويصادقون على توقيعات من مواطنيهم ، ويحسمون الخلافات التي تنشأ بينهم (٢) . ويحرم على القنصل الاشتغال بالتجارة لحسابه أو لحساب غيره ، ويرشح لوظيفة القنصل افراد من الاسر الكريمة ، وتجدد المدن التجارية قناصلها في شرق البحر المتوسط عاما بعد عام ، وقد يستقر القنصل في وظيفته ثلاث سنوات ، اذا زكاه مواطنوه التجار ، وكانت بعض الجمهوريات التجارية الايطالية لاسيما جنوة والبندقية ، ترسل لمراكز نشاطها التجاري ثلاثة قناصل ، بحيث يحل كل واحد مكان الذي تنتهي مدة خدمته ، وتهدف من هذا الى تفادي اشكالات الموت

(١) ابري شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ ، لبنان في

التاريخ ، ص ٣٨١ ،

المفاجيء ، او صعوبة المواصلات احيانا ، وكذلك لزيادة مران القنصل في وظيفته (١) .

ولما كانت موانئ الشام الفرنجية قد استقبلت العديد من التجار من مختلف الطوائف والجنسيات والاديان ، فقد استتبع ذلك تعدد اللغات . وفي تلك الموانئ استطاع المرء سماع جميع الالسنه لاوروبا الغربية ، والبلاد الاوروبية المطلة على البحر المتوسط ، لاسيما لغة التجار الايطاليين الذين زحموا الموانئ ، ومن المؤكد ان العديد من السادة الاقطاعيين ، بصرف النظر عن البولانيين (الافراخ) . كانوا على دراية باللغة العربية ، وهى معرفة لازمة للعلاقات بافصالهم والتجارة (٢) . وقد درجت جنوه على ارسال تجارها ، ومن بعدهم مندوبيها الى اغلب الاقطار الاجنبية ، ومن ثم اشحى من الضرورى لها تعليم رجال الاعمال اللغات الاجنبية ، وفي المراكز التجارية لجنوة تواجد المترجمون ، من ذوى القدرة على قراءة وكتابة العربية او اليونانية او الارمنية . ودراسة تجار جنوه ومندوبيها باللغات المتصلة اتصالا وثيقا بالطابع التجارى للمدينة (٣) . ونظرا لتعدد اللغات التى تداولها التجار في موانئ الشام الفرنجية ، فقد نشأت لغة مشتركة Lingua Franca - او خليط - قوامها كلمات من اللغات الفرنسية والاطالية واليونانية والعربية ، كان يجرى التحدث بها في موانئ البحر المتوسط ، وتشبه تلك اللغة المشتركة الرطانة الانجليزية في الموانئ الصينية Pidgin English ؛ ويمكننا القول ان اللغة المشتركة كانت لغة التجارة فقط (٤) .

(١) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ - ص ٢٢٥ .

(٢) Lammens : La Syrie Précis Historique. Vol. I P. 621

(٣) جاك هيرز : جنوه مثل مدن البحر المتوسط في العصور الوسطى ، ص ٥٩ .

(٤) Thompson : op. cit. Vol. I P. 398

الفصل الرابع

الفنون الحربية

اولا - النظم الحربية *

ثانيا - العمارة الحربية *

أولا - النظم الحربية :

يرى البعض في الحروب الصليبية أنها كانت فصلا من فصول الصراع بين الشرق والغرب في العصور الوسطى . وكان اللقاء الحربى أحد وجوه ذلك. الصراع بين الفريقين الاسلامى والصليبي ؛ فريق أتى بقصد الغزو والاستيطان ، وفريق آخر وقف موقف المدافع عن أرضه وراثته . وبين هذا وذاك ظهرت صورة الفنون الحربية لكل منهما ببلاد الشام .

ويلمس المدارس لاحوال الحملة الصليبية الأولى التى انتهت باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م أنها حملة اقطاعية بكل ما انطوت عليه ، قامت على أساس النظام الاقطاعى الغربى الذى ساد أوروبا وأخّر القرن الحادى عشر (١) . والخدمة الحربية للفرنجة فى الشرق تشبه ما جرت به العادة مع مثيلتها فى الغرب الاوروبى ، مع اختلاف طفيف أملت الظروف المستحدثة فى الشام . ففى مملكة بيت المقدس وجب على الفصل أن يؤدي ما عليه من خدمة ، وأن يجهز نفسه بكامل المعدات الحربية اذا دعى للخدمة ، بصرف النظر عن الحد الزمنى الذى تتطلبه الخدمة العسكرية (٢) . واذا كانت مدة الخدمة العسكرية محددة فى الغرب الاوروبى بأربعين يوما ، إلا أنها فى الشرق كانت بخلاف ذلك ، نظرا للتحدى المستمر من جانب المسلمين المحيطين بالصليبيين ، بالإضافة الى أن كل خدمة يؤديها الفصل كانت على نفقة السيد الاقطاعى (٣) .

ومن الناحية النظرية ، كان ملك بيت المقدس يعتبر القائد الاعلى.

(١) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٩٤ - ٩٩ ،

ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية فى الشرق الاوسط فى العصور الوسطى ، ص ٤٧
La Monte : Feudal Monarchy in the Latin Kingdom. (٢)
PP. 141 - 142

العربى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين بمملكة بيت المقدس فى القرنين الثانى.

عشر والثالث عشر الميلادى ، ص ٥ .

(٣) العربى : المرجع السابق ، ص ٦ ،

ابراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

للجيوش ، يقع عليه عبء تنظيم الدفاع عن المملكة ، وله السلطة على الامراء والبارونات (١) . ولكن تلك السلطة كانت ناقصة مبتورة ، اذ انها تحطمت على صخرة فوضى البارونات الذين لم يمثلوا للطاعة ، مما أدى الى الاخلال بالوحدة والنظام ، وانعكس الوضع على نتائج العمليات الحربية (٢) . وظهرت المنافسات بشكل آخر ، عندما تاتي حملات صليبية جديدة الى بلاد الشام في اعداد ضخمة ، فيرفض رؤساؤها وضع انفسهم تحت سيطرة ملك بيت المقدس ، ويقومون بمشاريع كانت تنصف بالطيش في معظم الاحوال (٣) .

والقعود عن تادية الخدمة الحربية ، والتقاعس عن الاستجابة لدعوة الملك ، من الامور الخطيرة في النظام الاقطاعي ، التي تستوجب معاقبة مرتكبها بسحب الثقة منه ، وفسخ العقد العرفي المعقود معه ، فضلا عن مصادرة املكه (٤) . ويلاحظ المرء ان كبار الاقطاعيين الصليبيين في الشام كانوا يرفضون احيانا تقديم الخدمة الحربية للملك ، بل ان البعض منهم لم يتردد في الزحف بجيشه ضد الملك ، عندما تتعارض اطماعه ورغباته الشخصية مع ورغبات الملك (٥) .

واذا كانت الخدمة الحربية هي الاساس الاول لحيازة الاقطاع عند الصليبيين ، وهو ما يتفق مع النظام الاقطاعي في الغرب الاوروبي ، فاننا نجد نفس الامر عند المسلمين في الشام على زمن الحروب الصليبية . والجدير

(١) Longnon : Les Francais d'Outre mer au Moyen Age. P. 122

العريني : المرجع السابق ، ص ٥ .

(٢) Longnon : op. cit. PP. 122 - 123 &

Chalandon : Histoire de la Premiere Croisade PP. 315 - 316 Chalandon : op. cit. P. 317 (٢)

(٤) سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٥١ ، ٥٧ ،

العريني : الاقطاع الحربي عند الصليبيين ، ص ١٤ .

(٥) Chalandon : op. cit. PP. 295 - 296

بالذكر هنا أن النظام الاقطاعي الحربي انتقل كاملا الى الدول التي نبتت وتفرعت في احضان السلاجقة ثم ورثتهم من بعد ، وهذه الدول هي : الدولة الزنكية والدولة الايوبية ، ثم دولة المماليك (١) . وكانت القاعدة المألومة في الدولة السلجوقية قائمة على اعطاء مرتبات المحاربين نقدا حتى منتصف القرن الحادي عشر (٢) . ثم أدى اتساع الدولة وصعوبة الهيمنة عليها ، وارهاق الادارة المالية بباهظ المرتبات ، الى تفكير وزير ملكشاه - نظام الملك - في الاستعاضة عن المرتبات النقدية بالاقطاعات من الارض ، حتى صار الاقطاع الحربي هو القاعدة (٣) . غير أن النظم الاقطاعية في الشرق الأدنى لدى المسلمين اعترفت بوراثة الاقطاع ، لاسيما على عهد نور الدين محمود ، فاذا حدث أن توفي أحد أجناده ، « وخلف ولدا ، أقر اقطاعه عليه » ، وإن كان الولد كبيرا تولى حقوق اقطاعه وواجباته بنفسه ، وإن كان صغيرا رتب معه السلطان رجلا وصيا حتى يكبر (٤) . وقد أدى ذلك النظام الذي وضعه نور الدين محمود الى جعل الاقطاع الممنوح للجندى في وضع مساو للملكية ، مما أدى الى تكالبه في الدفاع عن نفسه والاستماتة من أجله ، فضلا عن تلبية نداء واجبات الحرب في اسرع وقت ممكن ، اذا طلب منه ذلك (٥) .

ومن الواضح أن الخصائص الاستراتيجية للوجود الصليبي بالشام عقب سقوط بيت المقدس على أيديهم عام ١٠٩٩ م ، لم تزد على أنها مجموعة

-
- (١) ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ، ص ٣٠ .
 - (٢) أبو الحسن على : اخبار الدولة السلجوقية ، ص ٦٨ .
 - (٣) الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٥٥ .
 - نظير سعداوى : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ، ص ٢ - ص ٣ :
 - (٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٧ - ص ١٢٨ .
 - المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ص ٢١٥ .
 - ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، ص ١٦٩ .
 - (٥) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٩ .
 - كرد على : خطوط الشام ، ج ٢ ، ص ٦٩ .
 - العرينى : الاقطاع في الشرق الاوسط ، ص ١٤٢ - ص ١٤٣ .
- ويبدو أن المرتبات النقدية ظلت موجودة في العصر الايوبي فقد روى ابن ممتا في كتابه قوانين الدواوين ، ص ٣٦٩ أن عبدة الاقطاعات المقدرة للجندى من الاتراك والاكراذ والتركمان دينارهم الاقطاعي دينار واحد كامل .

متفرقة من المدن والقلاع ، انتظمت سويا في وضع محفوف بالخطر • فدولة الصليبيين في أقصى اتساع لها يمكن تشبيهها بشبه منحرف كبير امتد ضلعه في الشمال من انطاكية غربا الى الرها شرقا ، وضلعه الايمن من الرها الى ايلة على البحر الاحمر ، وضلعه الجنوبي من ايلة الى غزة ، وضلعه الغربى من غزة الى انطاكية ، هذا مع اعتراffa بما في هذا التشبيه من تجاوز ملحوظ. انه ان الفرنجة امثلوا اراضى ومدن خارج حدود تلك الرقعة (١) • والمعروف ان طول بلاد الشام من الشمال الى الجنوب لايتجاوز ٥٥٠ ميلا ، في حين ان عرضها من البحر حتى الصحراء يتراوح بين مائة ومائة وخمسين ميلا (٢) •

أما الخصائص الاستراتيجية للوجود الاسلامى ، فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقا وغربا ، ففي الشمال حلب وحماه ، والى الشرق منهما الموصل وقلاع الجزيرة ، وفي الغرب مصر وما وراءها غربا وجنوبا ، ثم ان القاهرة غدت في عصر الايوبيين قاعدة للتدريب والتموين (٣) •

وقد أدرك الصليبيون منذ ان وطئت اقدامهم ارض الشام أنهم في أمس الحاجة الى اراضى جديدة ، حتى يوطدوا مركزهم • ولا يتيسر ذلك الا اذا توافرت لهم القوة الحربية الكفيلة بتحدى المسلمين ، والقيام بأى عمل حربي ضدهم • ولانستطيع أن نعرف بالتحديد الاعداد التى احتوتها القوة الحربية للصليبيين ، ولكن على سبيل التخمين • فبعض مؤرخى الحملة الصليبية الاولى ، لم يسعه عند رؤية اعداد ضخمة من الرجال ، الا ان يقدر ذلك بمئات الالوف ، وزعم أن عدد قوات الحملة الصليبية الاولى يتراوح بين ٣٠٠ الف ، ٦٠٠ ألف مقاتل (٤) • والبعض اقتصد في تقديره ، فجعل القوة الحربية

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٧٧ •

Hulme : The Middle Ages. P. 181

(٢)

(٣) نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٧٣ •

(٤) العرينى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ٣ •

الضاربة التي وقفت أمام اسوار بيت المقدس ليلة ١٣ - ١٤ يوليو عام ١٠٩٩م. تبلغ ١٢ ألف من الرجال ، و ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ من الفرسان (١) ويشير وليم الصورى الى أن الجيش الصليبي في عسقلان لم يتجاوز ١٢٠٠ فارس، وستون ألف راجل (٢) ؛ وذلك قبل أن يعود الكثير من الصليبيين الى بلادهم في الغرب الاوروبى . ويذكر وليم الصورى ايضا أن جيش جودفرى (ت ١١٠٠) صار لايزيد عن ثلاثمائة من الفرسان ، وحوالى الفين من الرجال (٣) . ومن الثابت أن اعداد المحاربين كانت مرتفعة في الحملة الصليبية الاولى ، كما أن اعداد غير المحاربين كانت مرتفعة ، بمعنى أن الجيش الصليبي احتوى على اعداد هائلة من الفرسان والرجال والصبية والشيوخ ورجال الدين والنساء ، ومن المرجح ان نسبة الوفيات من غير المحاربين كانت مرتفعة خاصة بين الشيوخ والاطفال ، كما ان الفرسان حاقت بهم خسائر فادحة لتعرضهم للخطر خلال المعركة (٤) .

أما بالنسبة لتقدير حجم الجيوش الاسلامية ، فمن المستحيل علينا أن نقدر حجمها ، فالمؤرخون المسلمون مالوا الى المبالغة في تقدير واحصاء عدد الجيوش والقتلى والجرحى والاسرى والمفقودين في المعارك ، وهم في ذلك قد التقوا مع الصليبيين في نقطة واحدة (٥) . ومن المحقق أن الجيوش الاسلامية ، فاقت في عددها الجيوش الصليبية ، وان الاخيرة لم تصل الى الحد الأدنى من حجمها في أى حال . وقد ذكر المقرئى ان الجيش النظامى لصالح الدين تالف عام ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) من ٨٦٤٠ فارسا ، منهم ١١ اميرا ، و ١٥٥٣ قراغلامية - وهم فرسان مزودون بأسلحة خفيفة - ، و ٦٩٧٦

(١) Roymond of Aguilers, in R.H.C. Historiens Occidentaux, Vol. III P. 298

(٢) Recuil des Historiens Croisade. Historiens Occ., Vol. I P. 380

(٣) William of Tyre : A Hist. of Deeds Done Beyond the Sea. Vol. I P. 394

(٤) رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٤٨١ - ص ٤٨٤ .

(٥) نظير سعداوى : ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية ، ص ٢٢ .

من الطواشية - وهم فرسان مزودون بأسلحة ثقيلة - بالإضافة الى الاجناد الوطنيين الذين يتقاضون أرزاقهم من بيت المال (١) .

ولابد لنا في مجال الحديث عن الفنون الحربية على زمن الحروب الصليبية أن نتناول الفئات التي تالف منها كل من الجيش الاسلامي والجيش الصليبي .

والواقع أن الجيش الاسلامي بلغ ذروة تنظيمه على عهد السلطان صلاح الدين الايوبي (١١٦٩ - ١١٩٣ م) . ويلمس الدارس لذلك الجيش أن المصادر التاريخية المعاصرة أوردت لفظين هما العسكر والجند ، استخدمتا في غير دقة ولا تحديد . والمقصود من العسكر على عهد صلاح الدين الجيش النظامي ، أما الجند فهم الجيش الاحتياطي أو الجيش الاقليمي (٢) . ويقوم أفراد الجيش النظامي أو الثابت بالخدمة الحربية بصفة دائمة ، ويتقاضون راتبا منتظما ، ولا يفارقون السلطان ، وحيانا يكلفون بحراسة القلاع والحصون والدفاع عنها . وجعل صلاح الدين هذا الجيش من الاكراد والترك والتركمان ، وهم الذين اعتادوا حياة التقشف والخشونة . وطريقتهم في القتال أن يجعل كل منهم جزدان وجراوة وصواق وبقجة وتركاش ، ممتطيا جواده ويطلق عليهم الفرسان (٣) . أما الجند فهم في الحقيقة عساكر الامراء او مماليك الامراء او اجناد الامراء . فكان على كل امير اذا نشبت الحرب، أن يشترك فيها بجنده ، وبمجرد أن تنتهي الحرب عادوا الى مراعيهم وخيامهم ، وهم لا يتناولون اجرا ثابتا مثل العسكر ، ولكن يأخذون نصيبهم من الاسلاب والغنائم (٤) . وفي الشام وجدت قوات عسكرية لكبار الطوائف الدينية كالدروز والحشاشين ، وتدخل تلك القوات في عداد الجيوش الاقليمية .

(١) المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٨٦ - ص ٨٧ .

(٢) نظير سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ص ٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨ - ص ١٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٢ .

والى جانب هؤلاء ، تكونت فرقة حربية حديثة العهد عرفت باسم « الاحداث » أو أحداث المدن . وهم كثيرون الشبه بالحرس الوطنى فى العصور الحديثة ، وكانوا من الشبان المحاربين المتطوعين من ابناء المدينة ، كما كانوا يعيشون فى ظل نظام خاص ؛ واشتهر الاحداث فى دمشق بنشاطهم فى الوقوف ضد استبداد الحكام المحليين ، وكذلك فى الدفاع عن مدينتهم ضد الغزاة الاجانب ، وازدهر نشاطهم بشكل خاص فى الفترة الممتدة من القرن الرابع الى القرن السادس الهجرى (من القرن العاشر الى الثانى عشر الميلادى) (١) . واتخذ الاحداث رئيسا لهم ، وصارت الرئاسة - فى بعض الاحيان - تتوارثها بعض الاسر (٢) ، وعند قدوم الصليبيين الى الشام ساهم الاحداث فى توجيه الهجمات عليهم . واعتمد نور الدين محمود عليهم اعتمادا كبيرا فى حروبه مع الصليبيين ، على انه منذ بداية النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، صار الاحداث يسمون المتطوعة ، ومن ثم اختفت كلمة احداث ابتداء من عهد صلاح الدين الايوبى ، وحل محلها كلمة المتطوعين (٣) .

ولا ريب أن البدو العرب قد حاربوا ببسالة فى المعارك وحرب العصابات، والغارات المفاجئة ، فضلا عما قاموا به كأدلاء فى الصحارى لمعرفة بالدروب

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاحداث » ،

عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ، ص ٦٦ .

حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ١٠٦ ،

Ziadeh : Urban Life in Syria Under the Early Mamluks.
P. 76

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاحداث » ،

حامد زيان : المرجع السابق ، ص ١٠٦ - ص ١٠٧ .

وقد حدث أن اختير رئيس أحداث حلب من بين اللصوص ، وذلك لدرايته باللصوص والسطار حتى يتعذر عليهم ممارسة نشاطهم داخل حلب (أنظر ابن القيم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ج ٢ ، ص ١٣٨ - ١٣٩) .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاحداث » ،

نظير سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ص ١٥ - ص ١٦ ،

ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٥ .

والمسالك ، واستخدمهم صلاح الدين في مواضع كثيرة • على أن البعض منهم لم يكن مخلصا للجيوش الإسلامية ، ففي عام ١١٧٢ م (٥٧٨ هـ) توجه صلاح الدين من مصر بغرض محاصرة الكرك والشويك ، فوجد جماعة من البدو نازلين بارض الكرك ينقلون الاخبار الى الفرنج ، واذا اغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين (١) وبذلك طعنوا المسلمين من الخلف وآذوهم في خطوط تموينهم ، وطرق مواصلاتهم طمعا في المال •

ومهما كانت العناصر التي ساهمت في تكوين جيش صلاح الدين ، فإنه قسمه الى عدة فرق تشبه اللوات في وقتنا الحاضر ، وتنسب كل واحدة منها الى سلطان سابق، فيقال للمالِك النورية نسبة الى السلطان نورالدين محمود أو تنسب الى احد الفراد العظام السابقين ، فيقال للمالِك الأسدية نسبة الى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين • أما ممالِك صلاح الدين ، فأطلق عليهم عدة أسماء ، فيقال لهم الممالِك الصلاحية نسبة اليه ، أو الناصرية نسبة الى لقبه الملك الناصر • وقد تنسب الفرقة الى جنسية أفرادها ، فيقال الطائفة الكردية نسبة الى الاكراد ، ويتفرع منها طوائف أخرى مثل الهكارية والمهرانية والحمدانية والزرزارية (٢) • ومعظم الجيش الأيوبي كان من الاكراد، ولم يكن في الجيوش النظامية من العناصر المصرية والشامية سوى ما يلحق الحملات الحربية عادة من الفقهاء والمقرئين والصناع (٣) •

على أن المصادر الأيوبية قد خلت من ذكر تفصيلات عن تقسيم تلك الطوائف الى أقسام أصغر منها • ولكن ما جاء في مراجع عصر دولة الممالِك، وهو العصر الذي يمثل اكتمال النظم الحربية ، ما يلقي الضوء على تلك التفصيلات اذ أن اكابر الامراء من له امرة مائة فارس وتقدمة الف فارس ، ومن هذا الفريق يكون اكابر النواب ، وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين؛ ثم امراء الطبلخانات ، ومعظمهم من يكون له امرة اربعين فارسا ، وقد يزيد

(١) سبط بن الجوزي : مراة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٩٣ •

(٢) نظير سعداوى : المرجع السابق ، ص ٢٥ - ص ٢٩ •

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٢٢ - ص ١٢٤ •

على السبعين ، ثم امراء العشراوات ومنهم من يكون له امرة عشرون فارسا ، ولا يعد الا في امراء العشرات ؛ ثم جند الحلقة وهؤلاء لكل اربعين نفرا منهم مقدم (١) . وكان السلطان الملوكي ينعم على امراء المثين بخيول مسرجة ملجمة ، ومن عداهم بخيول عرى ، ولجميع الامراء من المثين والطبلخاناه ، والعشراوات ، الرواتب الجارية في كل يوم من اللحم وتوابله كلها والخبز والشعير لعليق الخيل والزيت (٢) .

أما الجيش الصليبي ، فقد سبق القول أن ملك مملكة بيت المقدس كان على رأسه ، وهو القائد الاعلى للجيش الصليبية حسب النظام الاقطاعي الاوروبي . وقد ساعد الملك في مهام قيادة الجيش ثلاثة موظفين كبار وهم الكوندستابل (الكونستابل) Le Connetable والمارشال Le Maréchal والقهرمان (السنجال) Le Sénéchal (٣) .

والكونستابل هو رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، فهو الذي يجهز للملك رؤساء أو قائدى الجماعات ، وفي حالة غياب الملك عن المعركة ينوب عنه في قيادة الجيش وتنظيمه من أجل القتال . وفي نفس الوقت يعتبر الكونستابل « الرئيس القضائي » فجميع رجال السلاح والفرسان وضباط النظام (السرجنديون) Sergeants خاضعين لسلطته القضائية ، ويستطيع أن يضرب بعصاه أو مطرقة كل جنود المشاة أو الخيالة الذين لا يرجعون الى أصل نبيل في حالة عدم اطاعتهم الاوامر ، غير أنه ليس من حقه رفع يده على فارس من أصل نبيل متحالف مع الملك ، ولكن ذلك الفارس اذا ارتكب خطأ ما ، فان للكونستابل الحق في قتل الحصان الذى يعتليه الفارس (٤) .

ويأتى المارشال فى المكانة بعد الكونستابل ، وعليه أن يقدم للاخير واجب الطاعة والاحترام ، ومهمة المارشال هى الاعتناء بتموين الجيش والتفتيش

(١) المقرئى : الخط ، ج ٢ ، ص ٢١٤ - ص ٢١٥ .

(٢) المقرئى : الخط ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

(٣) Chalandon : op. cit. P. 318

(٤) Ib'd. Loc. cit.

عليه ، وترتيب المعسكرات ، وتوزيع الغنائم بين اقسام الجيش المختلفة ، كما انه في حالة غياب الكونستابل عن المعركة ، فعليه الوقوف الى جانب الملك حاملا الراية الملكية ؛ وللمارشال وظائف قضائية اقل مما للكونوستابل فهو يفصل في قضايا الاتباع الصغار ، والمشرفين على الاصطبلات ، والخدم المرافقين للجيش (١) .

اما القهرمان أو السنجال ، فكانت اختصاصاته العسكرية تنقل في الاهمية عن الاختصاصات المناطة لكل من الكونستابل والمارشال ، والواجبات الملقاة على عاتقه هي فحص القلاع والحصون ، والعمل على أن تكون حاميات تلك الأماكن على أهبة الاستعداد ومعدة اعدادا كاملا ، فضلا عن توفير المؤمن لها ؛ ولا يحق للسنجال اذا اشترك في معركة أن يقف الى جوار الملك ، وعليه ان يتسلم من المارشال حصة الملك في الغنائم (٢) .

وقد وجدت ثلاثة اشكال من الجنود هم الفرسان من طبقة النبلاء ، والسرجنديون الذين يكونون المشاة والخيالة الخفيفة وهم ليسوا من طبقة النبلاء ، والتركبولية وهي قوات من الخيالة الخفيفة يتم تجنيدها من بين اهالي البلاد والوطنيين (٣) .

والتمييز أوضح بين طبقة الفرسان والطبقتين الاخيرتين ، فبالنسبة للفرسان وهم من طبقة النبلاء ، اعتبرت الخدمة الحربية - كما اسلفنا القول - التزاما شخسيا مرتبطا بالنظام الاقطاعي . فالفرسان عندما يطلبه سيده الاقطاعي لاداء الخدمة ، ما عليه الا أن يلبي النداء مسرعا ، فيقدم نفسه مسلحا امام سيده ومعه رجاله . وعلى الفرسان أن يتحمل نفقاته ونفقات رجاله في الحملة العسكرية ، واذا فقد حصانه أو اسلحته فلا بد أن ينال غيرهم وتلك الاسلحة كانت - على وجه التقريب - السيف والحربة فقط ، ومن عاداته

Ibid. PP. 318 - 319

Ibid. P. 319

Ibid. P. 320

(١)

(٢)

(٣)

أن يقاتل دائما على ظهر حصانه (١) • وواجب الفارس في وقت السلم أن يجهز
عدته الحربية ، وأن يكون ورجاله على اهبة الاستعداد (٢) •

أما طبقة الاجناد (السرجندارية) فهي ليست سوى الرجالة ، الذين كان
عدهم وفيرا ، وينتمون الى أصل فرنجي ، بيد أنهم لا يعتزون بشرف المولد
مثل الفرسان والنبلاء (٣) •

ولا يتبقى من القوات المساعدة في الجيش الصليبي ، سوى التركبولية
الذين يشكلون الخيالة الخفيفة *La Cavalerie Légère* وفي العادة كان يتم
تجنيدهم من بين أهالي البلاد الاصليين،الذين ينتمون في أصولهم الى العرب او
الأتراك ، وهم يعينون تحت امرة المارشال الذى ينظم صفوفهم خلال المعركة ،
ولا يتلقون الاوامر الا منه ، كما انه ليس عليهم مقدمون من جنسهم • ويبدو
أن التركبولية استخدموا بوجه خاص في مهام الاستطلاع (الاستكشاف) (٤) •

وعندما تم توحيد مصر والشام على يد صلاح الدين الايوبي ، واضحى
الصليبيون في الشام بين شقى الرحى ، اضطروا الى الاستعانة بالجنود
المأجورة أو المرتزقة، من أجل الدفاع عن بقائهم والمحافظة على فتوحات اسلافهم،
بيد أن تكاليف الجند المرتزقة كانت تشكل عبئا باهظا على الصليبيين ، لم
يستطيعوا احتماله على الدوام ، لقلة الموارد المالية (٥) • ومن المرتزقة من كان
من الاهالى الوطنيين ، ومنهم من جاء من الغرب الاوروبى الى الشام وقبل
الخدمة كمأجور (٦) • وهناك فئة أخرى من الجند المرتزقة ، تشكلت من الفرنجة
المستقرين بالشام ، والدليل على ذلك أن والتر آفن *Walter d'Avenes* عند
ارتحاله الى الغرب في القرن الثالث عشر ، ترك وراءه اربعين فارسا ، بعد ان
دفع لهم راتب سنة ، كما ان لويس التاسع خلف وراءه عند مغادرة الشام

Ibid. P. 321

(١)

Ibid. P. 322

(٢)

La Monte : Feudal Monarchy. PP. 160 - 161

(٣)

Small : Crusading Warfare. P. 112

(٤)

Ibid. P. 99

(٥)

La Monte : op. cit. P. 160

(٦)

عام ١٢٥٤ م مائة فارس (١) . على أن دفع رواتب الجند المأجورة يعتبر من المشاكل الخطيرة التي واجهت مملكة بيت المقدس ، بسبب ما تعرضت له في كثير من الأحيان من الفقر وسوء الاحوال الاقتصادية ؛ وزخرت قوانين بيت المقدس بالاشارات الى حالات كثيرة توقف فيها السادة الاقطاعيون عن دفع مرتبات الجند (٢) .

ومما زاد في قوة الجيش الصليبي بالشام أيضا ، ما جاء باستمرار من الغرب الاوروبى من صليبيين يجيش صدرهم بالتعصب الشديد ؛ وبالرغم أن ضررهم كان أكثر من نفعهم ، إلا أن الفتوحات الصليبية كان من الصعب الابقاء عليها من غيرهم (٣) .

وفي الحرب كان فرسان المسلمين يهاجمون من على ظهور خيولهم ، وفي ايديهم الرماح ، وتميزت الخيول التي استخدموها في القتال بصغر حجمها عن خيول الفرنجة ، كما أن الدروع التي يرتدوها كانت خفيفة (٤) . وقد تعلم الفرنجة من المسلمين مبدأ خفة الحركة في القتال ، فالخيالة الثقيلة التي استخدمها الصليبيون ، إذا لم يساندها مشاة منظمين خاصة رماة الاسهم ، فإنها تصبح عديمة الجدوى في الحرب ضد المسلمين المسلحين تسليحا خفيفا (٥) . والحقيقة أن الفارس المسلم تميز بخفته في المعركة ، فإذا تحرك وهو على فرسه في المعركة ، مسيطرا على فرسه ، سريع الالتفاف ، يحس بمواطن الخطر في حينها عند طلبه لعدوه اما مواجهة او محاذاة له (٦) . والسلاح الرئيسى الذى استخدمه المسلمون كان القوس ، ولكنهم حملوا أيضا الدرع والحربة والسيف

Ibid. P. 161

(١)

العرينى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ١٧ .

(٢) العرينى : نفس المرجع والصفحة .

Carl Stephenson : Mediaeval History. P. 717 (٣)

Duggan : The Story of the Crusades. P. 71 (٤)

Hayes, Baldwin : Hist. of Europe. P. 235 (٥)

(٦) ابن منكلى : سياسة الصناعات الحربية ، ورقة ٢٨ ١ ،

بدر الدين الرماح : علم الفروسية (غير مرقم الصفحات)

«والهراوة (١) • واستغل المسلمون مقدرتهم على التحرك السريع في تطويق العدو والالتفاف حوله كما يفعل النحل بالضبط وإذا لم يتمكنوا من ذلك ، فإنهم كانوا يتفادونه ومن المؤكد أن هذا التكتيك يحتاج إلى تفوق عددي ، بيد أنهم حرصوا على استخدامه دوما مهما قل عدد المحاربين (٢) • حتى في حالة التقهقر ، فإن رماة السهام كانوا قادرين على أن يلتفوا إلى الخلف بغته ، من فوق صهوات خيولهم ، يصوبوا سهامهم تجاه مقتفى أثرهم من العدو (٣) •

ويفضل المسلمون خوض المعارك ضد العدو في فصل الربيع ، لاعتدال مناخه ، بعكس الشتاء الذي يشهد فيه هطول الأمطار ، الأمر الذي يبعث الملل والضجر في نفوس العسكر من ناحية ، وحدوث الأحوال التي تعوق السير من ناحية أخرى (٤) • وتفاعل المسلمون بلقاء العدو يوم الجمعة عند الصلاة « تبركا بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر » (٥) • وجرت العادة أن تبدأ المعارك الحربية بين المسلمين والصليبيين في الصباح الباكر ، وتنتهي عند المساء ، وإن كان البعض يفضل أن تدور المعركة ليلا ، كي يتيسر للمحاربين الهرب تحت جنح الظلام في حالة التقهقر • وقبل بداية المعركة ، كانت الأوامر تعطى بدق الطبول ثم النفخ في البوق ، ويكبر المكبرون علامة على الاستعداد لمواجهة الأعداء ، وعند الضربة الثانية للطبول يأخذ الجند اهبتهم بخيولهم واسلحتهم ، وعند الضربة الثالثة يمتطون صهوة جيادهم ، ثم ينتظرون بقبية الأوامر الصادرة إليهم (٦) • والجدير بالذكر هنا أن التكبير بصوت عال وأصوات الطبول من الصفات الحربية عند المسلمين ، التي أفرزت الفرنجة وحازت إعجابهم في آن واحد (٧) •

Shall : op. cit. P. 77

(١)

Small : op. cit. PP. 78 - 80

(٢)

Ibid. P. 80

(٣)

(٤) عماد الدين الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٨٥ ،

محمد بن تقي الدين الأيوبي : مضمار الحقائق وسر الخلائق ، ص ١١١ - ١١٢ •

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ص ١٧٤ •

(٦) نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٥٢ •

Small : op. cit. P. 75

وقد نجح المسلمون في استخدام عنصر المفاجأة في حروبهم مع الصليبيين، فكثيرا ما خرج الصليبيون للاحتشاش والاحتطاب بعيدا عن خيامهم ومعسكراتهم، وما أن يتيقن الفرسان العرب انهم في غفلة عن احتمال شن هجوم عليهم ، حتى ينقضون عليهم فجأة ، فيقتلون ويأسرون (١) . وكثيرا ما خرج الفرسان الصليبيون أيضا بعيدا عن قلاعهم وحصونهم بغرض اللعب والمرح ، وبمجرد أن يصل الخبر الى الفرسان المسلمين ، حتى يخرجوا اليهم ، فينقضون عليهم قتلا وأسرا (٢) . والشواهد على ذلك عديدة ، من ذلك ما ذكره أسامة بن منقذ أن الفرنجة نزلوا بشيزر ، وكان الماء بينهم وبين المسلمين زائدا لا يمكن خوضه، فلما اطمأن الصليبيون الى ذلك ، ترجلوا عن خيولهم وتركوها ترعى وهم نائمون . ولما فطن المسلمون بدورهم الى ذلك ، تجرد البعض منهم ، وسبحوا اليهم حاملين سيوفهم ، فقتلوا منهم وجرحوا بعضهم ، وانتشر الصياح بين الفرنجة (٣) . واستخدم المسلمون طريقة التسلل الى خيام الصليبيين ومعسكراتهم تحت جنح الظلام . فيفاجئون البعض منهم اقدما في خيمته والسكون منتشرا . ويذسعون الاسكين او الخنجر على حلق الرجل وهو نائم . ثم يوقظونه ، ويقولون له بالاشارة ان الموت سيكون من نصيبه اذا رفع صوته او استغاث ويخرجون به الى معسكر المسلمين ، وجرى ذلك مرارا كثيرة (٤) . وقد عرف اولئك الرجال الذين يدخلون معسكرات الصليبيين خلسة في المصادر المعاصرة بلصوص المسلمين او حرامية المسلمين . واطلق على الفرنجة الذين يغيرون على خيام المسلمين للنهب والسلب ، بلصوص الفرنجة او حرامية الفرنجة . وكثيرا ما كان حرامية المسلمين يخرجون طلبا لحرامية الفرنجة ! (٥) .

وجرت العادة أن يسبق المعركة حركة استكشاف الغرض منها الوقوف على حجم جيش العدو ، والتعرف على تحركاته ؛ وتعرف حركة الاستكشاف

(١) العماد الاصفهاني : الفتح القسي ، ص ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٦٨ .

(٢) ابن منكلى : المرجع السابق ، ورقة ٢١ ب .

(٣) أسامة بن منقذ : كتاب العسا ، ص ١٩٧ - ص ١٩٨ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٢ ، ص ١٨٦ .

(٥) سبط بن الجيزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٨٨ - ص ٦٨٩ .

ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٧٣ .

في مصطلح الدولة الايوبية باليزك ، وهى تعنى طلائع الجيش ، وهى شعبية بالاستطلاع في الحروب الحديثة ، وقد يعهد الى اليزك مهمة مناوشة العدو لاستدراجه الى معسكر المسلمين (١) .

واتخذ المسلمون عدة وسائل موفقة ، لنقل الاخبار بين فرق جيوشهم ، مثل وسائل البريد المعروفة على زمن الحروب الصليبية ، فضلا عن الجاسوسية ، وهى ما تشبه المخابرات الحربية في العصر الحديث . والواقع أن الفضل يرجع الى نور الدين محمود في اتخاذه الحمام الهواى لنقل الاخبار بالشام سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) ، اذ رتب في كل ثغر رجالا ومعهم الحمام ، بحيث اذا اقترب الفرنجة من أحد الثغور ، اتاه الخبر ليومه (٢) . وبنى أيضا الابراج على الطرق بين المسلمين والفرنجة ورتب لها من يخفظها ، ومعهم الحمام الزاجل ، فاذا رأوا العدو على مقربة ارسلوا الطيور ، فيأخذ الناس حذرهم . ومن الذين اهتموا بالبريد السلطان الظاهر بيبرس ، فقد حرص أن يشرف اشرفا دقيقا على مختلف اجزاء دولته من جهة ، ومراقبة أعدائه من المغول والصليبيين من جهة أخرى ، وفي عهده اصبحت قلعة الجبل في مصر مركزا لشبكة ضخمة من طرق البريد (٣) .

ومن وسائل الاتصال في ذلك الحين ، استخدام امهر السباحين الذين يخترقون الحصار البحرى للعدو سباحة ، وعلى ظهورهم الكتب ونفقات الاجناد ، ويعومون بالكتب المدونة بترجمة مصطلح عليها ، أى مكتوبة بالشفرة ، خوفا من وقوعها في أيدي الأعداء (٤) . وعندما تعذر الاتصال بين حامية مدينة عكا وصلاح الدين الايوبي عام ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) ، انفذ اليهم عيسى العوام ، وعلى وسطه ثلاثة اكياس فيها ألف الف دينار ، فعام في البحر ثم انقطعت.

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٥١ - ص ٥٢ .

(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٩ ،

ابو الفداء : المختصر فى اخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٣) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ١٣٧ - ص ١٣٨ .

(٤) العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ١٧٦ - ص ١٧٧ .

ابو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

أخباره ، ذلك انه اذا دخل البلد ، يصل طائر يعلن عن وصوله ، فأبطا الطائر ، فاستشعر صلاح الدين هلاكه ، وساورته الظنون ، وبعد ايام وجد عيسى العوام ميتا غريقا على طرف البحر ، وعلى وسطه اكياس النقود (١) . كذلك استخدم المسلمون في حروبهم التراسل بالنيران من على مسافات بعيدة ، وذلك بايقاد النار ليلا ، واثارة الدخان نهارا (٢) . وأخيرا اذا ضاق الحصار بالمسلمين ، فانهم - احيانا - كانوا يحركون الاعلام والرايات بطريقة ما متفق عليها ، ليراهم المراقبون من بعد (٣) .

اما عن التجسس في الحروب ، وهو ما نطلق عليه في العصر الحديث المخابرات الحربية ، فقد مارس المسلمون اعماله بشكل يبعث على الدهشة ، ويكاد أن يكون صورة مطابقة مما يجري حاليا . فقد استعان صلاح الدين الايوبي بالجواسيس (المخبرين) والمستأمنين من الصليبيين في امداده بأدق التفاصيل عن حالة الجيش ، وامكانياته المادية والمعنوية . واعتمد عليهم أيضا في صحة الاخبار من عدمها ، فبينما كان واقفا بالقرب من بانياس عام ١١٧٩ م (٥٧٥ هـ) ، شاهد الابقار والاغنام جافلة ، واتى له أحد الرعاة وأخبره انه شاهد الصليبيين ، ولكن السلطان استبعد ذلك قائلا : « لو كان ذلك صحيحا لجانا الجاسوس » ، وبينما هو كذلك ورد له من أحد صحة الخبر (٤) . وتزخر المصادر المعاصرة بالحديث عن المستأمنين من الصليبيين الذين استعان بهم الايوبيون في رصد تحركات الجيوش الصليبية، بل النساء استخدمن في أعمال الجاسوسية لصالح الجيش الاسلامي ، فسبيللا وهي امرأة فرنجية ، كانت جاسوسة تتقاضى دخلا من صلاح الدين . مقابل ما تعطيه من معلومات عن قوة جيوش الفرنجة وتحركاتها (٥) . وكان للملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب في عكا « اصحاب أخبار واكثرهم

(١) العماد الاصفهاني : الفتح القسي ، ص ٢٠٩ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الاشياء ، ج ١٤ ، ص ٢٩٨ .

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ .

(٤) العماد الاصفهاني : الفتح القسي ، ص ٢٠٤ ، ص ٢١٥ ، ص ٢٢٠ .

محمد بن تقي الدين الايوبي : مضار الحقائق ، ص ١٦ .

ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٩٤ .

١٦٥.

نساء الخيالة ، فكانت طاقاتهم في قبالة الكرمل ، فاذا عزم الفرنج على الغارة . فتحت المرأة الطاقة ، فان كان يخرج مائة فارس او قادت المرأة شمعة واحدة ، وان كانوا مائتين شمعتين ، وان كانوا يريدون حوران او ناحية دمشق اشارت الى تلك الناحية ، وكذا الى نابلس ، فكان قد ضيق على الفرنج الطرق ، وكان يعطى النساء في كل فتح جملة كثيرة (١) . »

واذا كانت تحركات الجيوش الصليبية تصل الى المسلمين بواسطة الجواسيس والمستأمنين من الفرنجة ، فان اخبار المسلمين تصل ايضا الى بلاد الفرنجة بسرعة . وقد برع الصليبيون في التقاط الاخبار ، فكان اذا بلغهم حادث عن المسلمين ، يغيرون خططهم الحربية ؛ ومن الطبيعي انهم استخدموا افرادا من الأرض وغيرهم من المقيمين وسط المسلمين ، وربما كن للمسلمين يد في ذلك طمعا في مال أو انتقاما من سلطان (٢) .

ويذكر المؤرخون أن عماد الدين زنكي كان لا يسمح لاي رسول ملك أن يعبر أراضي بلاده بغير أمره ، واذا استأذنه رسول في العبور في أراضي بلاده . اذن له ، على شريطة أن يرسل اليه من يسير معه ، ولا يتركه يتصل بأحد من الرعية ، فكان الرسول يدخل البلاد ويخرج منها ولا يعلم عن أحوالها شيئا ، كما أنه اذا استغنى عن أحد من خدمه ، لا يدعه يغادر بلاده خوفا من أن يدل على عورتها ويطمع العدو فيها (٣) . والواقع أن خوف عماد الدين زنكي من أن يعرف العدو تجهيزاته ، هو ذاته التفكير الذي تأخذ به الجيوش الحديثة عن طريق الجاسوسية والمخابرات والطابور الخامس .

واذا اقترب فرد من حصن أو معسكر للمسلمين ، كان عليه أن يذكر كلمة المرور وهي التي يقابلها في التاريخ الحديث والمعاصر كلمة السر . ولا أدل على ذلك من القصة الطريفة التي رواها أسامة بن منقذ ، ففي سروج أراد أن يدخل الحصن ، فرآه الديديبان (الحارس) فتصايحا :

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٦٢٢ هـ .

(٢) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٤٦ - ص ٦٤٧ .

- كلمة المرور .
- أنا مؤيد الدولة .
- معذرة يا سيدي . . كلمة المرور .
- اذن أين الجماعة ؟
- في أقصى الوادى .
- أى وادى ؟
- سروج .

ويدهش أسامة من ذلك الحارس ، متهما أياه بالغباء ، لأنه أخبره عن مكان الجماعة دون قصد منه ، وخاف من فرد أراد دخول الحصن ، فبتلك الطريقة . ينفذ الى الافرنج خبايا المسلمين (١) .

أما عن طريقة الصليبيين فى الحروب ، لاسيما خلال احتدام المعركة ، فقد اعتمدت تماما على الفرسان الذين ألفوا القوة الرئيسية فى الدفاع والهجوم (٢) . ومن الواضح ان الصليبيين لم يجيدوا أسلوب الكر والفر الذى اتبعه المسلمون فى معاركهم ، كما لم يعرفوا فن المراوغة الذى أجاده المسلمون ، اذ ولا بد أن يهاجمهم العدو وجها لوجه ، واذا حدث أن ناوشهم العدو ، فإن خيولهم سرعان ما يصيبها الاعياء بسبب ماينؤ به الفارس من ثقل . وعندما كانت تبدأ المعركة ، انهمك فيها الفارس الصليبي ، غير عابىء بغيره ، لأنه من الناحية الاجتماعية مساو لقائده ، الامر الذى يعطيه الحق فى أن يستخدم رأيه الخاص (٣) ، وتحركه الذى يراه . ولما كان على الفارس أن ينهض بأعباء نفسه ، ويجهز مستلزماته ، فقد أحضر معه عددا من الخدم والسواس للعناية بأسلحته وخيوله ؛ ومع أن هؤلاء الرجال كانوا قليلي الفائدة فى المعركة ، الا أنه كان لاغنى للفارس عنهم (٤) . ومن الملاحظ أن الصليبيين

(١) أحمد كمال زكى : اسامة بن منقذ ، ص ٤٨ - ص ٤٩ .
 Chalandon : op. cit. P. 324
 (٢)
 Duggan : op. cit. P. 39
 (٣)
 Ibid. P. 39
 (٤)

استفادوا خلال اللقاء الحربى مع المسلمين ، وخرجوا بتجارب جديدة عليهم .
فعندما اشتبك الصليبيون الأوائل فى معارك مع العرب والأتراك ، أدركوا أن
خيالة الاخيرين اخف حركة من خيالتهم ، كما أنها كانت - قبل بداية المعركة -
تلقى الاضطرابات والفزع فى صفوفهم بغطاء من السهام ، مما سبب لهم أضرارا
بالغة (١) .

والحقيقة أن الصليبيين لم تكن لديهم خبرة أو معرفة بوسائل القتال
عند المسلمين . فاثناء زحفهم فى آسيا الصغرى ، فى اليوم الثالث من مغادرة
نيقيه (٩ يوليو ١٠٩٧ م) ، قام الاتراك بهجوم مفاجئ مريع ، وهم
يصرون على أسنانهم ، ويصرخون صرخات عالية ، ويرددون بصوت عال
- وصفوه بأنه شيطانى - نداء الله أكبر . . . الله أكبر (٢) . ونتيجة لذلك
اعترف الصليبيون ببسالة الاتراك فى الحروب ، واعتقدوا انه كان من الممكن
الا يدانيهم قوم فى بسالتهم ، لو تاتى لهم الايمان بالديانة المسيحية (٣) ومن
المسلمين من أثنى على شجاعة الصليبيين ، مثل اسامة بن منقذ الذى شهد
بأنهم يتميزون بفضيلة الشجاعة والقتال فقط (٤) .

ولم يهتم فرسان الطوائف الدينية العسكرية بمظهرهم ، فقد ترفعوا
عن ارتداء الملابس الأنيقة ، ونادرا ما كانوا يغتسلون ، لايمشطون شعور
رؤوسهم تراهم اشعثين مغبرين ، اكتسبت بشرتهم لونا داكنا بسبب ثقل
أسلحتهم وحرارة الشمس ، ولم تكن اسرجة خيولهم مزخرفة بأية زينة ، لأن
كل تفكيرهم انحصر فى المعارك ، والامل فى احراز النصر (٥) .

ونظرا لما كانت تعانيه مملكة بيت المقدس الصليبية من نقص شديد فى
القوة البشرية ، طوال مدة تواجدها فى الشام ، فقد أدى ذلك الى انخراط

Chalandon : op. cit. P. 324

(١)

Gesta Francorum, P. 18

(٢)

Gesta Francorum, PP. 20 - 21

(٣) .

(٤) اسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٢ .

Fedden : Crusader Casules. P. 34

(٥)

النساء الصليبيات في صفوف القتال الى جانب الرجال ، وهن في اُردية الفوارس • ولم يتبين المسلمون حقيقتهن الا بعد ان وقع البعض منهن في الاسر ، وتعرض للعرى والتفتيش (١) •

ومن المعروف ان الخيل لعب دورا هاما طوال فترة العصور الوسطى . في زمن السلم والحرب معا • ولم يكن في الامكان استخدام اى فرس للقتال ، لان فرس الحرب يختلف عن الفرس العادى • فالأول تم تدريبه بعناية بالغة على خوض المعارك ، ولهذا كان غالى الثمن ، من الصعب استبداله ؛ ومن اهم الصفات التى تميز بها فرس الحرب سرعة اندفاعه في الهجوم ، اذا لمست اصابع الفارس سيور اللجام لمسا خفيفا من خلف درعه ؛ وفي العادة كان يتم اختيار فرس الحرب من نوع الذكور لقوته وفحولته ، على الرغم مما كان يسببه من ازعاج في المعركة (٢) • ومن الامور التى كانت تعيب الفارس ، أن يعتلى صهوة جواد غير مدرب على الاساليب الحربية (٣) • وكما نعلم ذاع صيت الأتراك السلاجقة كرامة للخيل ، واحتفظ كل منهم بمجموعة من الخيول مع نسائه واولاده على مقربة من مكان المعركة ، حتى يكون في استطاعة فارس ما ان يتراجع او ينسحب مؤقتا من المعركة ، لاستبدال فرسه بآخر اكثر نشاطا • ومن اجل هذا كان الجيش التركى يزخر بالحركة والجرى المستمر ، في الوقت الذى كان فيه الفرسان الفرنجة ينهكون خيولهم الحربية (٤) • وقد فطن نور الدين محمود الى ضرورة تدريب الخيل ، بمزاولة لعبة الكرة التى كان مولعا بها ، كى يدمن الجواد اسلوب الكر والفر (٥) •

ومن البديهي أن رداء الفارس وعدته ، أضافا عنصرا هاما في اثبات كفاءة.

(١) أبى شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩ ، ص ١٥٨ ،

ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٥ هـ ،

مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ١ ص ٣٦٢ •

Duggan : op. cit. P. 39

(٢)

(٣) ابن منكلى : سياسة الصناعات الحربية ، ورقة ١٧ ١ •

Duggan : op. cit. PK 41

(٤)

(٥) النعمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٦١٠ •

الفرس في القتال . وقد اشرنا من قبل الى ان الفرسان المسلمين تخففوا في ملابسهم ، مما ادى الى تحمل الفرس « قوة المشوار » ، والعدو مسافات طويلة (١) ، وسهولة تحركة في خفة ورشاقة . والقوس أهم سلاح حارب الأتراك به ، وهو مصنوع من قرنين لظبي على شكل « قوس كيوبيد » ، والى جانب ذلك ، سيف وحيد الحد ، أعقف قليلا ، استخدمه المحارب التركي عند الالتحام مع العدو ؛ هذا ولم يحدث أن ارتدى ذلك المحارب زردية معدنية كما فعل المحارب الصليبي (٢) .

أما الفارس الصليبي ، فقد كان على صهوة فرسه لايزيد عن الجنب والنقل ، اذا أفلت خصمه لانسابعه ، ولايلج في طلبه (٣) ، ومرجع ذلك الى ثقل عدته التي تتعوق حركة فرسه . وقد اعطانا مطرز بايو Bayeux Tapestry وأنشودة رولان ، قسما وافرا من المعلومات عن التجهيزات الحربية للفارس الأوروبي في القرن الحادي عشر ، وهي التي ظهرت أيضا في الحملة الصليبية الأولى (٤) . ففي الجزء الاعلى من جسم الفارس المحارب ، الفينا مرتديا صدره مزودة Hauberk بلا اكمام ، تتألف من حلقات معدنية مركبة على ارضية من الجاد ، روى فيها أن تكون مشقوقة طوليا من أسفلها - من أمام وخلف - حتى لاتعوق الفارس عن امتطاء فرسه (٥) . وكان الفارس يضع على رأسه خوذة حديدية مخروطية الشكل من الصلب ، لها قضيب معدني عمودي في المقدمة ، يمتد الى أسفل لحمايته من ضربات سيف خصمه (٦) . وقد تطورت تلك الخوذة التي ظهرت في مطرز بايو الى أخرى أسطوانية الشكل ذات حجم اكبر ، تغطي كل الرأس والوجه ، ولاتترك الا فتحة أو فتحتين

(١) بدر الدين الرماح : علم الفروسية (مخطوط غير مرقم الصفحات) .

Duggan : op. cit. PP. 41 - 42 (٢)

(٣) أسامه بن منبذ : كتاب العسا ، ص ١٩٩ .

Archer : The Crusades. P. 354 (٤)

Duggan : op. cit. P. 38 (٥)

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

Archer : op cit. pp. 355 - 356 (٦)

عندما يكون مقدمها مدلى الى أسفل - للرؤية والتنفيس ، غير أن عيبها
يكون في استحالة معرفة الصديق من العدو خلال المعركة (١) . والقليل من
الارسان ارتدى سروالا قصيرا مزردا له مقعدة من القماش ، تجعل الفارس
في وضع مريح على السرج ، بيد أن الغالبية ارتدت سراويل مبطنة (محشوة)
تنتهى حتى الكاحل ، وبها مهاميز حادة طويلة (٢) . ومن فوق كتف الفارس
الايمن يتدلى نطاق ، معلق به درع يأخذ - غالبا - شكل الطائرة الورقية ،
واحيانا شكل مستطيل او دائرة ، مصنوع من خشب الزيزفون او الدردار
المغطى بالجلد ، له مقبض بارز في الوسط ، ويبلغ طوله أربعة أقدام
تقريبا (٣) . وبسبب ثقل الدرع ، لا يستطيع الفارس تحريكه في سهولة .
في وقت ينبغي أن تكون يده اليسرى مشغولة بسيور لجام الفرس . وعلى
أية حال ، متى كان الدرع في وضعه الصحيح ، فإنه يقوم بغطاية الفارس من
رقبته حتى ركبة الساق اليسرى ؛ وربما نقش على الدرع تصميميما زخرفيا ،
لان الشعارات الحقيقية على الدروع لم تكن قد اتخذت بعد (٤) .

ومن الواضح ان الرداء السابق دفاعي ، الغرض منه حماية الفارس
وصيانة جسده ، ومن ثم كان لابد ان يستكمل المحارب جهازه بعدة أسلحة
هجومية يستخدمها في مقاتلة خصومه (٥) . وأعم تلك الأسلحة السيف
والحربة والبلطة . والسيف لم يكن له طول ثابت ، فاحيانا يتراوح في الطول
بين ثلاثة وأربعة أقدام ، واحيانا أخرى بين قدمين وثلاثة ، وهو ذو حافتين،
مثبت في قراب على الجانب الايسر من المحارب (٦) . أما الحربة فكانت
مصنوعة من خشب الدردار او التفاح ذات راس مستدق يأخذ شكل ورقة

Duggan : op. cit. P. 38 (١)

Ibid. Loc. cit & (٢)

Archer : op. cit. PP. 356 - 357

Archer : op. cit. P. 357 (٣)

Duggan : op. cit. P. 38 (٤)

(٥) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

Archer : The Crusades. P. 357 (٦)

Duggan : op. cit. PP. 38 - 39

للشجر أو مكعب ، ويبلغ طولها ثمانية أقدام (١) . وأخيرا البلطة التي كانت سلاحا هجوميا ضئيل القيمة في الحروب الصليبية ؛ ومن الذين حملوا البلطة جنود شيخ الجبل زعيم الحشاشين كما ذكر جوانفيل (٢) .

وقد أتى الفرنجة إلى الشام بالقذاف أو القوس القذوف - Balista arbalest-une arbalette الذي استخدم في الحملة الصليبية الأولى ، ويتميز بحدقته ، وهو عبارة عن قوس ونشاب ضخمين ، له القدرة على إطلاق سهام حديدية قصيرة ، تبلغ في سمكها أربعة أضعاف السهام العادية ، ولا تستطيع الدروع مقاومة الاسهم التي تنطلق منه ، لما لها من قوة اختراق . وقد أشارت أنا كومنيننا لهذا السلاح بأنه « أداة شيطانية بكل ما في تلك الكلمة من معنى » ، كما أنه كان السلاح المفضل لريتشارد قلب الأسد ؛ وبسبب فعاليتها لم يتمكن صلاح الدين الأيوبي من الاستيلاء على طرسوس عام ١١٨٨ م (٣) .

وعلى الرغم من حرص الفارس الصليبي على وقاية نفسه ، « من لبسه الزردى من قرنه إلى قدمه كأنه قطعة حديد » ، فإن فرسه كان هدفا طيبا لسهام المسلمين ، وإذا حدث أن هلك ، انهارت قوة الفارس (٤) . والجدير بالذكر في هذا الصدد ، أن إصابة خيول الفرسان الصليبيين أو هلاكها أو استيلاء المسلمين عليها ، كان يحتم على ملوك بيت المقدس أن يتحملوا تبعية تعويضها ، وهذا هو المعروف بنظام التعويض *recours* الذي يعتبر من أهم خصائص النظام الحربي عند الصليبيين (٥) . وشبيه بذلك النظام ما كان متبعاً خلال حكم سلاطين المماليك ، فقد كانت الخيول السلطانية تفرق على المماليك

Archer : op. cit. P. 357

(١)

Loc. cit.

(٢)

Loc. cit. &

(٣)

Fedden : op. cit. P. 39

(٤) أبو شامة : الدواوين ، ج ٢ ، ص ٧٨ ،

العرينى : الاقطاع الحربي عند الصليبيين ، ص ١٢ .

(٥) العرينى : المرجع السابق ، ص ١٢ - ص ١٣ .

السلطانية ومقدمى الحلقة ، فمن نفق له فرس من المماليك ، يحضر بقطعة من لحمه ، ويأتى بشهود ، فيعطى بدله (١) .

واللياقة البدنية كانت ضرورية للجند ابان الحروب الصليبية ، فهى تكسب الجسم المرونة والرشاقة والنشاط . ومن أهم مظاهر الفروسية عند المسلمين لعبة الكرة ، تلك اللعبة التى كان يميل اليها نور الدين محمود ، فضلا عن براعته فيها ، واجادته لها على ظهر فرسه (٢) . وقد كان فى ممارسة تلك اللعبة وامثالها ، رياضة للخيل والجند معا ، وتدريب للجند على الصبر وتحمل المشاق فى الحروب من جهة ، وتمارين لهم على اصابة الهدف من جهة أخرى (٣) . وانتصح بعد نظر نور الدين محمود ، عندما رأى أن حياة الجيوش لا تقتصر على الحرب فحسب ، حتى لاتتصير مشقة لايطيقها الجنود ، بل لابد أن يتخللها فترات من الراحة يقوم فيها الجنود ببعض التمرينات الرياضية ، وهو فى ذلك يقول : « ولايمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا ، شتاء وصيفا ، اذ لابد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها ، صارت حماما لاقدرة لها على ادمان السير فى الطلب . . . (٤) » . ومن فوائد تلك اللعبة الرياضية ، ملء النفس بالفرح والسرور عند الفوز والاحساس بلذته ، ونشر روح التعاون بين الاصحاب (٥) ، لانها لعبة جماعية ، بعيدة عن روح الفردية والانانية . وأخيرا فانها كانت نوعا من عبادة الله ، والتقرب اليه ، وتقوية للجند الذين عليهم أن يجاهدوا فى سبيل الله ، باجسام قوية ، وأخلاق سامية (٦) . وقد اشاد أسامة بن منقذ بفضل هواية الصيد فى تربية فتيان المسلمين ، واعدادهم للجهاد فى سبيل الله ضد الصليبيين . وفى عهد صلاح الدين الايوبي ، اوضحت هواية الصيد رياضة محببة ، فيها الكثير من أعمال

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٨ .

(٣) عبد اللطيف حمزه : ادب الحروب الصليبية ، ص ٢٢٨ .

(٤) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ج ١٦٤ - ص ١٦٥ .

(٥) الحسن بن عبد الله : آثار الاول ، ص ١٢٨ - ص ١٢٩ .

(٦) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٥ .

عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ - ص ٢٣٩ .

الحركة ، وانبعثت للتفكير السليم ، لما تتطلبه بعض المواقف من سرعة البديهة وحضور الذهن (١) .

أما عن التربية الاجتماعية في المعسكر الاسلامي ، فقد حرص صلاح الدين الايوبي - كقائد عسكري - على أن تسود روح المودة والسرور بين جنده ، ودأب على معاملتهم باحترام ، باسطا لهم افخر الثياب ، مقدما لهم أطيب التحف ، صانعا لهم اشهى الاطعمة ، وفي الليل يعرض عليهم التسلية البريئة كالرقص والغناء والضرب على الدفوف والطبول والزامير (٢) .
وتدعيما للقوى الروحية ، وحرصا من القائد على مصلحة جنده ، فقد منع أى شخص من التعرض لنساء الاجناد ، وفي ذلك يقول عماد الدين زنكى : « ان جندي لا يفارقوني في اسفاري ، وما يقيمون عند أهليهم ، فان نحن لم نمنع من التعرض الى حرمهم هلكن وفسدن (٣) » .

وثمة نوع من الترويج عن الجنود الفرنجة ، استنكره المعاصرون من المسلمين ، ورأوا فيه ضربا من الانحراف والخروج عن جادة الصواب ، لمخالفته الواضحة للشريعة الاسلامية . ففي عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) وصلت سفينة الى ميناء عكا على ظهرها ثلاثمائة امرأة فرنجية على قسط وافر من الحسن والجمال ، وذلك بقصد الترفيه عن الجنود ، خاصة العزبان منهم ؛ أما العجائز من النساء ، فكان دورهن الغناء والانشاد لتحريض الرجال على الحرب ، وبعث الشجاعة فيهم (٤) .

والروح المعنوية من مبادئ الحرب التي لاغنى عنها لاحتراز النصر ، فبفضلها امكن انقاذ موقف المسلمين المتهالك ، وانتزاع النصر من براثن

(١) الاعتبار ، ص ١٩٦ ،

نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ١٠٤ .

(٢) نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ١٠٤ .

(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٨٤ .

(٤) أبوشامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

العماد الاصفهاني : الفتوح القسى ، ص ١٦٩ - ص ١٧١ .

م . مجير الدين الحنبل : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

الهزيمة • ولا يغيب عن البال في هذا الشأن ، موقف الجيوش الصليبية والجيوش الاسلامية اثناء الحروب الصليبية • فالاولى تسعى للفتح والقهر والاستيلاء ، والثانية تدافع عن حقها في حياة حرة كريمة ، وتطهير ارضها من المحتل الغاصب •

ولا شك أن الخطبة الدينية التي يقصد بها اثاره الشعوب الدينية للمسلمين خلال فترة الحروب الصليبية ، كانت تسمع في صلاة الجمعة وصلاة العيدين ، وفي اوقات الفتوح الكبرى ، واوقات المحن القاسية التي كان يتعرض لها المسلمون عقب أى هجوم للفرنجية ، ودخولهم مدينة هامة من مدن الاسلام في مصر أو الشام (١) • فكثيرا ما تولى ائمة المسلمين تحريض الجموع على قتال الكافرين (الصليبيين) ، فضلا عن نقد بعض ملوك المسلمين الذين قصروا في الحرب ، أو تسامعوا مع الفرنج ، كما حدث ذلك عند التنديد بالملك الكامل الايوبي في اعطائه القدس للامبراطور فردريك الثاني (٢) • ومن امثلة الوعظ الديني التي كانت تبدو كجزء من برامج الدعاية السياسية ، واثارة الحمية الاسلامية ابان الحروب الصليبية ، ما فعله سبط بن الجوزي ، فقد ذكر للناس بجامع دمشق ، أن امرأة ارسلت له شعرها لتجعله قيذا للخيل في سبيل الله ؛ ولما سمع الناس ما فعلته المرأة ، قطعوا شعرهم وصاحوا طالبين الجهاد في سبيل الله (٣) • وكان المسلمون اذا اسوا تهاونا من الاحكام المسلمين ، بصدد الجهاد ضد المسلمين ، اجتمعوا ومعهم رجال الدين ، وتوجهوا الى المساجد لاعلان احتجاجهم ، كى تصل صرخاتهم الى الحكام • ففي اول جمعة من شعبان سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠ م) سار جماعة من أهل حلب ومعهم الفقهاء والصوفية الى جامع السلطان ببغداد لطلب الجهاد ، ومنعوا الناس من الصلاة بضجيجهم ، وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بانفاذ العساكر لاجلاد، ثم قصدوا في الجمعة التالية جامع الخليفة وهم يبكون ويستغيثون ، واحدثوا فوضى في الجامع ، فبطلت الجمعة ، ووصل الخبر الى الخليفة ، فارسل بدوره

(١) عبد اللطيف حمزة : نفس المرجع ، ص ٢٠٢ •

(٢) ابن المكنان •

(٣) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ج ٥ ، ص ١١١ •

الى السلطان الذى أمر الامراء بالاعداد للجهاد (١) . ولم يكتف رجال الدين بحث الحكام والرعية من المسلمين على قتال الفرنجة ، بل منهم من قرن القول بالعمل ، ضارباً بذلك أسمى واروع مثال للتضحية . من ذلك ما حدث فى عام ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) ، عندما حاصر الفرنجة دمشق ، فخرج اليهم الاهالى والعسكر لقتالهم ، وفيمن خرج للقتال الفقيه يوسف الفندلاوى على الرغم من كبر سنه . فلما رآه معين الدين أنر اشفق عليه ، وطلب منه العودة ، ولكنه اجابه « قد بعث واشترى منى » ، وهو يقصد بذلك قول الله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة (٢)) . وتقدم للقتال حتى استشهد (٣) .

هذا من ناحية المسلمين ، اما من ناحية الصليبيين ، فعندما كان اليأس يبدأ يخيم على وجوههم ، ويترك انطباعاً مؤثراً فى قلوبهم ، فانهم يلجأون الى رفع الروح المعنوية للجنود ، بأسلوب مغاير لأسلوب المسلمين ، وذلك باختلاق المعجزات والرؤى والأحلام التى يظهر فيها السيد المسيح عليه السلام . ففى اثنا حصار الترك لأنطاكية فى المدة من ٥ يونيو الى ٢٨ يونيو ١٠٩٨ م ، بلغ من ضيق الحصار ، أن اضطر الفرنجة لأكل الخيول والحمير ، أتى أحد القسس لزعماء الفرنجة ، وأخبرهم أنه رأى فى منامه السيد المسيح عليه السلام ووالدته السيدة مريم ، ومعهم بطرس سيد الحواريين ، واقترب منه المسيح وسأله اذا كان يعرفه ، ولما رد بالنفى ، عرفه بنفسه ، ووعده بالمساعدة ، فضلاً عن احراز النصر على المسلمين (٤) . ومن الرؤى التى احدثت دويماً هائلاً بين صفوف المسلمين ، رؤية أحد الحجاج الصليبيين واسمه بطرس خلال حصار الترك لأنطاكية ، فقد تراءى له

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ .

ابن خلدون : تاريخه ، القسم الثانى ، المجلد الخامس . ص ٤١١ - ص ٤١٢ .

(٢) سورة التوبة ، آية رقم ١١١ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٤٣ ،

أسامه بن منقذ : الاعتبار ، ص ٩٤ ،

سبط بن الجيزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٩٧ - ص ١٩٩ .

Gesta Francorum. pp. 57—58.

(٤)

القديس اندراوس ، ودله على الحربة التى طعن بها السيد المسيح حين رفع على خشبة الصليب ، كما تبدى له خلال حصار كربوغا للصليبيين بأنطاكية (١٠ يونيو ١٠٩٨ م) ، وأخبره بأنه سينتصر على أعدائه (المسلمين) (١) . ولقد عزا الصليبيون هذا النصر الى قدرة فوق طاقة البشر ، حيث أبصر البعض كتيبة تنزل من السماء عليها حالات قدسية من النور ، تقدمت الصفوف ، وتسلفت السلام والأسوار ، ورمت فأصابت ، وهذا تعليل يدل على مدى العقلية التى كانت تسيطر على القوم (٢) .

ولكن تعبئة الروح المعنوية والشعور الدينى أخذت طابعا آخر عند الصليبيين الغرض منه اثارة الغرب الاوروبى ، فى الوقت الذى اشتد فيه ضغط المسلمين على الصليبيين . فعقب الانتصارات التى حققها صلاح الدين الايوبى ، وانتهت باستيلاء المسلمين على بيت المقدس . أرسل الفرنجة عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) الرسل الى الغرب يطلبون ارسال نجدات . ولكى يثيروا المشاعر ، رسموا صورة للمسيح ، والى جانبه رجل عربى يضربه ، وجعلوا الدماء تسيل على وجه المسيح ، وادعوا أن الرجل العربى الذى يضرب المسيح هو نبي المسلمين (محمد صلى الله عليه وسلم) ، مما ادى الى مجيء الحشود الهائلة من الغرب الاوروبى ، بهدف استنقاذ بيت المقدس من المسلمين (٣) . وفى عام ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) ، حدث أن رسم صاحب صور صورة أظهر فيها قبر المسيح ، وعليه فارس مسلم يمتطى صهوة فرس . وقد بال الفرس على القبر (٤) . وبالطبع آذت تلك الصورة مشاعر المسيحيين وقتئذ الى حد بعيد ، ومن المؤكد أن العديد منهم انخدع بها ، خاصة اذا علمنا أن العصور الوسطى هى عصور الايمان . وما فعله الصليبيون خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر من دعاية سياسية مخالفة للحقيقة ، فعله الصهاينة

(١) Gesta Francorum, pp. 59-60.

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، ص ٦٢ - ص ٦٣ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٥ هـ ،

ابن بهادر : فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، ج ١ ، ورقة ٢٩ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .

في نزاعهم مع العرب في القرن العشرين ، عندما سلبوا فلسطين ، وامطروا العالم بدعايتهم المسمومة .

وعلى الرغم من الروح العدائية التي سادت العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، فإن المجال انفتح في بعض الاحيان لاتصالات سلمية ، تتخللها روح المودة والتآلف ، خاصة بعد انقضاء السنوات الاولى من الوجود الصليبي بالشام . فقد اختلفت الروح المتبادلة بين الفريقين في نهاية القرن الثاني عشر ، عما كان عليه الوضع عندما اتت الحملة الصليبية الاولى (١) . ويتضح ذلك مما يروييه أبو شامة من أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال بعد ساعة (٢) . ولم يقتصر الأمر على الكبار ، بل تعداه الى الصغار ، فأمام عكا عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) ، صار صبيان المسلمين ، يخرجون لمصارعة صبيان الصليبيين ، واستطاع أحد صبيان المسلمين أن يضرب صبيا من الصليبيين ويأسره ، فأسنرده الصليبيون بدينارين (٣) .

وفي بعض الاحيان ترجع فترات الهدوء النسبي التي تخللت الحروب الصليبية الى عقد هدنة بين المسلمين والصليبيين من جهة ، وتبادل المحادثات بين الفريقين من جهة أخرى . واشتهر الصليبيون غالبا بنقض الهدنة باعتراف مؤرخيهم ، ففي فبراير ١١٥٧ م (ذى الحجة ٥٥١ هـ) ، نقض بلدوين الثالث الهدنة التي عقدها مع المسلمين من أجل الحصول على قطعان من الأغنام والماشية والخيول ، كانت تنتج بالقرب من بانياس ، الأمر الذي أثار سخط نور الدين محمود (٤) . ويبدو أن الملوك من الفرنجة كانوا لا يحلفون على استقرار أمر هدنة ما ، أما عظماء الفرنجة أو كبار الأمراء ، فلا غضاظة أن يقسموا اليمين على احترام أى هدنة تعقد بينهم وبين المسلمين ، فعندما جنح المسلمون والصليبيون الى المسالمة عام ١١٩٢ م

(١) . سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٣١ - ص ٢٣٢ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٣) العماد الاصفهاني : الفتح القسي ، ص ١٤٦ - ص ١٤٧ .

ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ١٠٨ - ص ١٠٩ .

(٤) William of Tyre : op. cit. Vol. pp. 255—256

(٥٨٨ هـ) ، وتحالفوا على احترام الهدنة ، لم يحلف ريتشارد قلب الاسد لرسول السلطان صلاح الدين الايوبى ، ولكنهم « اخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بان الملوك لا يحلون » ، وحلف غيره من كبار الفرنجة ، كذلك وصل رسول الفرنجة الى السلطان ، واخذوا يده على الصلح . واستحلفوا اولاده ، واخاه واكابر امرائه (١) . واما في اكتساب الوقت لصالح كل من الفريقين ، استغرقت المفاوضات بين صلاح الدين وريتشارد - قبل الموافقة على الهدنة - وقتا طويلا (٢) .

واذا انتقل الباحث لدراسة الاسرى وشئونهم ، الفينا اختلافا واضحا بين سلوك المسلمين تجاه اسرى الصليبيين ، وسلوك الصليبيين تجاه اسرى المسلمين . فمن وقع في الاسر من الصليبيين في ايدي المسلمين ، يدون في سجلات ديوان الاسرى اسمه وجنسيته وديانته ، ويذكر ايضا من يتم الافراج عنه اما بمقتضى مرسوم ، واما بالهداية الى الدين الاسلامى (٣) . ومماثلة الاسرى على زمن الحروب الصليبية ، لم تعرف اتفاقيات دولية كاتفاقية جنيف مثلا الخاصة بمعاملة الاسرى ، او اى هيئات دولية اخرى تتصرف على منكوبى الحروب من الاسرى . وانما ترك مصيرهم تحت رحمة الغزاة المنتصرين ، يتصرفون فيهم قتلا واسترقاقا ، وبيعا وشرا ، كيفما شاءوا (٤) . وتشير المصادر الى أن نور الدين محمود ، عندما وقع ملك الفرنجة في اسره ، أشار عليه الامراء ببقائه في اسره خوفا من شره ، ولكن نور الدين طلب منه ثلاثمائة الف دينار في نظير ان يطلق سراحه ، فافتدى ملك الفرنجة نفسه ، وسلم المبلغ لنور الدين . فبنى به مارستانا ومدرسة ، ودارا للحديث.

(١) ابي الفدا : المختصر فى اخبار البشر . ج ٢ . ص ٨٢ - ص ٨٣ .

ابن بهادر : فتوح النصر ، ج ١ ، ورقة ٣١ .

(٢) العماد الاصفهاني : الفتح القسى . ص ٢٥٤ .

Harold Lamb : The Crusades. p. 130.

(٣) الجزرى : تاريخ الجزرى . ج ٢ ص ١١ .

نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٦٩ - ص ٧٠ .

(٤) نظير سعداوى : جيش مصر . ص ٦٧ - ص ٦٨ .

بدمشق (١) . وكان الحكام المسلمون والخيرون يفتدون أسرى المسلمين من الصليبيين ، طمعا في ثواب الله وابتغاء لرضائه ، وقد دأب أسامة بن منقذ على دفع مبالغ للصليبيين مقابل إطلاق سراحهم (٢) . ويتضح جليا انسانية صلاح الدين ومروءته في الاسلوب الذي عامل به الاسرى ، عقب سقوط بيت المقدس في ايدي المسلمين عام ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ؛ فلم تتعرض دار من الدور في المدينة للنهب ، ولم يحل مكروه بأحد من الاشخاص (٣) . بل أخذ باليان كل ما في بيت المال لدفع ما وعد به من اموال الافتداء ، وقدرها ثلاثون الف دينار ، ولم يخرج الاسبتارية عن شيء من اموالهم الا بصعوبة ، ولم يحفل البطريرك الابنفسه ، ودهش المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل يؤدي عشرة دنانير ، مقدار الفدية المطلوبة منه ، ويغادر المدينة بقامة منحنية لثقل ما يحمله من الذهب . وقد كان من الجائز ان ينجر من الاسترقاق الوف عديدة من المسيحيين ، لو أن الاسبتارية والداوية والكنيسة كانوا اكثر سخاء . ولم يلبث أن تدفق من أبواب المدينة طابوران من المسيحيين ، تألف الاول من اولئك الذين افقدوا انفسهم ، والثاني من اولئك الذين عجزوا عن افتداء انفسهم ، ولذا توجهوا الى الاسر ومن المناظر التي دعت للاسى ، ما حدث من التفات العادل الى أخيه صلاح الدين يطلب منه اطلاق سراح الف اسير ، على سبيل المكافأة عن خدماته له فوجههم له صلاح الدين . وجعل صلاح الدين للبطريرك سبعمائة اسير ليعتقهم ، كما جعل لباليان خمسمائة اسير . ثم أعلن صلاح الدين انه سوف يطلق سراح كل شيخ ، وكل امرأة عجوز ، وبذل للارامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته (٤) . وما فعله صلاح الدين الايوبى يناقض تماما ما قام به

(١) النعمى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦١١ ،

سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣١١ .

(٢) الاعتبار ، ص ٨١ - ص ٨٢ .

(٣) Lane-Poole : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. p. 230.

(٤) العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ٤٣ - ص ٤٤ ،

ابن الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧٢ - ص ٧٣ ،

ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٣ هـ ،

ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٣ - ص ٣٢٤ ،

ابن خلدون : تاريخه ، القسم الثالث ، ص ٦٧٥ - ص ٦٧٩ .

الصليبيون الغزاة في الحملة الصليبية الاولى ، فعلى ايديهم بلغ عدد الضحايا نحواً من سبعين الفا (١) . ولكن صلاح الدين اتبع مع اسرى الاسبتار والدأوية سياسة خاصة ، اقتضت قتل كل من يقع منهم في الاسر ، سبب ذلك تنكر فرسان هاتين الطائفتين للمبادئ الانسانية التي كرسوا حياتهم من اجلها ، ولما عرف عنهم من التعصب الأعمى ، وسفك دماء المسلمين ، « ولأنهم أشد شوكة من جميع الفرنج (٢) » .

وطالما لقي الاسرى المسلمون في المعسكر الصليبي العناء والمشقة ، ولا يجد الباحث وثيقة دامغة ابلغ مما دونه الرحالة ابن جبير ، بوصفه حال أسرى المسلمين قائلاً : « ومن الفجائع التي يعانيتها من حل بلادهم هم أسرى المسلمين يرسفون في القيود ، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والاسيرات المسلمات كذلك ، في اسوقهن خلاخيل الحديد ، فتتفطرلهم الأفئدة ، ولا يغنى الاشفاق عنهم شيئاً (٢) » وثمة تصرف قام به ريتشارد قلب الأسد ، دل على افتقاده روح الانسانية ، وبغضه للإسلام ، واعاد بذلك الى الازمان السيرة السيئة لريزودي شاتيون (٤) . ويتضح هذا التصرف في الاتفاق الذي عقد بينه وبين صلاح الدين الايوبي ، وانتهى الى تبادل الاسرى ، وارجاع الصليب الحقيقي ، وتعهد المسلمين بدفع غرامة حربية . ولكن ريتشارد ، فضلاً عن أنه سلك طريق المماطلة والتسويف ، أنهى المفاوضات ، وأحضر زماء ثلاثة آلاف اسير مسلم عزل أمام تل العياضية ، وذبحهم عن آخرهم في ٢٠ اغسطس ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) ، « وغشى المسلمين بذلك حزن عظيم » وابن هذا من انسانية صلاح الدين وكرمه النبيل . الذي خفف من كارثة حطين بالنسبة

Gesta Francorum, p. 91.

(١)

فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ - ص ٢٢٩ .

(٢) العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ٢٢ ،

ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٣ هـ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨٠ .

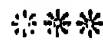
Grousset : Histoire des Croisades. T. III p. 60. (٤)

١٨١

للفرنجة ، بل حتى عندما سقط ريتشارد مريضاً ، ارسل له صلاح الدين شراباً ،
مثلاً ؛ تلك المآثر الكريمة ، رد عليها ملك انجلترا بمذبحة (١) .

ومن الملاحظ ندرة افتداء أسرى الصليبيين بأموال ، ومرجع ذلك في الغالب
الى أن أولئك الأسرى خليط من اجناس وشعوب أوروبية مختلفة ، لم تنصهر
في بوتقة واحدة ، بالإضافة الى تفكك الروابط الاسرية والقومية ، وانعدامها
بين الأوروبيين (٢) . كذلك اذا وقع فارس الاسبتيارية او الداوية لم يكن تدفع
له فدية ، اذا ما وقع في الأسر ، وقد اتبع هذا التقليد في بداية الوجود الصليبي
بالشام ، ولكن ذلك الأمر لم يستمر ، تبعاً لتغيير الظروف الخاصة بقوانين
الهيئتين ؛ ومما يدل على ذلك أن وفداً من الداوية والاسبتيارية ذهب الى سلطان
مصر الصالح أيوب لتقديم فدية اسراهم (٣) .

وقد استخدم أسرى المسلمين والصليبيين ، ممن يتمتعون بأجسام قوية .
— على السواء — في بناء العمائر الحربية (٤) ، وهي التي سنلقى الضوء عليها ،
بالدراسة في السطور القادمة .



(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ،
'Grousset : op. cit. T. III p. 61.

(٢) نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٨١ — ص ٨٢ ،
(٣) نبيله مقامى : فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر
والثالث عشر ، ص ١٦٨ .
(٤) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ ،
فريد أبو حديد : تاريخ صلاح الدين وعمره ، ص ١١٠ .

ثانيا - العمارة الحربية :

استطاع الصليبيون في بادئ الامر ، أن يحرزوا انتصارات على المسلمين ، لكنها في الواقع لم تبعث في نفوسهم الثقة ، ولا التفاؤل بالمستقبل ، فضلا عن أنهم لم يطمئنون الى مصيرهم وبقائهم في الشرق الأدنى (١) . واذا نحن استثنينا الطرفين الشمالى والجنوبى للبقعة التى احتلها الصليبيون ، لوجدنا ان معظم البلاد التى استولوا عليها ، كانت تطل على الساحل ، أما البلاد الداخلية ، فقد ظلت فى أيدي اصحابها المسلمين ؛ وأيضا اذا كانت بعض المدن الداخلية الكبيرة مثل حلب ودمشق وحماة ، دفعت الجزية للصليبيين حينما بعد آخر ، الا انها لم تخضع لسيطرتهم قط (٢) ؛ حتى فى الامارات التى انشأها الصليبيون - الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس - فانهم كانوا اقلية بالنسبة لسكانها ، واضحت الجاليات اللاتينية كمراكز محصورة محاطة بالاعداء ، وناهيك بالنزاع الذى كان قائما بين تلك الامارات (٣) .

ونظرة فاحصة الى بلاد الشام ، توضح لنا تناثر الحصون والقلاع بشكل يدعو الى الدهشة ، لا سيما فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ وأول زاهر لتشييدها بدا فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر ، زمن بلدوين الثانى (١١١٨ - ١١٣٠ م) ، واستمر زمن فولك أنجو (١١٣٠ - ١١٤٣ م) ؛ وتمتد تلك القلاع بين جزيرة « الجرية » (جزيرة فرعون وتقع شمال خليج العقبة) وسلسلة جبال أمانوس شمالى الشام (٤) . وما بنى من قلاع وحصون خلال فترة الحروب الصليبية ، بلغ من ضخامة العدد ، ما لم يبلغه من قبل سواء فى العصر الرومانى أو البيزنطى ، أو خلال الحكم العربى للشام (٥) .

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٥٥ .

(٢) نفس المكان .

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٢٥٥ - ص ٢٥٦ .

(٤) Deschamps : Le erac des Chevaliers. p. 44.

عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ١٩ .

(٥) عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ١٩ .

ولا شك أن الاوضاع الجغرافية للشام لها أثر كبير في اختيار مواقع القلاع والحصون الكبيرة ، خاصة الاستراتيجية ؛ فنظرة الى خريطة الشام للاراضي التي تمتد بين صيدا وانطاكية ، يتبين لنا أهمية المواقع التي بنيت فوقها تلك القلاع (١) . فجبال لبنان ترتفع ارتفاعا شاهقا مفاجئا ، يصل في بعض الاحيان الى عشرة آلاف قدم ، وجبل العلويين الى الشمال من لبنان ، على الرغم من أنه أقل ارتفاعا من جبال لبنان ، الا أنه وعبر تماما (٢) . وعلى ذلك فقد رؤى ضرورة بناء القلاع من صيدا الى انطاكية ، عند الممرات القليلة التي تربط بين الساحل وداخلية البلاد ، فشيدت قلعة صهيون بحيث تغطي الطرف الشمالي من جبل العلويين ، والمرقب بنيت حيث تتجه سلسلة الجبال نحو الساحل مكونة ممرا ضيقا بين الجبال والبحر ، وحصن الاكراد وصافيتا وعكار وغيرها من القلاع ، كل منها تسيطر على ثغرة حيوية بين أقصى الطرف الجنوبي لجبل العلويين أول استحكامات لبنان (٣) وعلى طول سلسلة جبال لبنان نفسها ، لم تكن هناك أي حاجة لبناء قلعة كبيرة ، فقلعة شقيف ارنسون Belfort ، تحدد لنا نهاية تلك السلسلة ، وتقوم بحراسة الممر الذي يخرج منه نهر الليطاني متجها ناحية البحر (٤) .

أما في الجنوب حيث توجد فلسطين ، فإن الدفاعات الطبيعية لها أقل تأثيرا ، لذلك استدعت الحاجة تشييد قلاع كثيرة ؛ وكان هناك خط دفاع أول للدفاع عن الأرض شبه الصحراوية في شرق الأردن ، فالصبيبة في جنوب جبل الشيخ لكشف أي تقدم من جهة دمشق ، وحصن الكرك الذي شيد في صحراء البتراء ، فقد هيا موقعه السيطرة على الطرق الوحيدة السالكة الممتدة من مصر وغربي شبه الجزيرة العربية الى بلاد الشام ؛ والشوبك في صحراء الاردن وشمال خليج العقبة (٥) . أما خط الدفاع الثاني فكان في غرب نهر

Feddan : Crusader Castles. p. 21.

(١)

Loc. cit.

(٢)

Fedden : op. cit. pp. 21—22.

(٣)

عبد الرحمن زكي : نفس المرجع ، ص ٦٥ .

Fedden : op. cit. p. 22.

(٤)

Loc. cit.

(٥)

رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ - ص ٢٧١ .

الأردن ، ويرتكز على قلعتى تبنين Toron وصفد Saphet بالإضافة الى
أنه يشرف بالتتابع على الطرق المؤدية من الاردن الأعلى الى صيدا وعكا ،
وكوكب Belvoir يشرف على المخاضة الهامة الى الجنوب من طبرية (١) .
والى أبعد نقطة جنوب وادى نهر الاردن نفسه والبحر الميت شيدت قلاع
منبعة : كذلك شيدت عثليت (قلعة الحاج (Chastel Pelerin) أحد القلاع
الرئيسية على ساحل البحر ، حيث تحتضنها الأمواج من ثلاث جوانب (٢) .

ولكن لماذا قام الصليبيون بتشبيد ذلك الحشد الهائل من القلاع والحصون
وأبراج الحراسة فى الشام ، خلال الفترة التى نتناولها بالدراسة ؟ ولماذا كرسوا
الكثير من وقتهم ونشاطهم ومهاراتهم منذ اللحظة الاولى من أجل اقامتها ؟
ربما كان مجئ الصليبيين الى الشام يتفق مع بداية الحقبة التاريخية الكبرى
لبناء القلاع فى أوروبا ، فالبرج الابيض فى لندن ، وهو نموذج اولى للحصون
التي ظهرت فى الغرب الاوروبى ، بنى فى عام ١٠٧٧ م ، بالإضافة الى أن كل
اقطاعى فى غرب أوروبا له قلعة التى تحميه ، ومملكة بيت المقدس الصليبية
لم تكن الا صورة من الاقطاع الاوروبى فى الشرق الأدنى (٢) . ولكن هناك
أسباب ملحة تفسر قيام الصليبيين بتشبيد الوفير من الابنية الدفاعية .
وهذه الاسباب لانجدها الا فى موقع المملكة اللاتينية نفسها .

فبعد أن عبرت جيوش الحملة الصليبية الاولى جبال طوروس عام ١٠٩٧م ،
وحتى طرد البقايا الصليبية فى اغسطس عام ١٢٩١ م ، من المشاهد أن المملكة
اللاتينية شكلت موقعا فريدا ، بمعنى أنها احتلت موقعا يجعلها - باستمرار -

Fedden : op. cit. p. 22

(١)

بنى هيوسانت أوامر قلعة تورون المعروفة حاليا باسم تبنين ، على جبل
يشرف على الطريق الذى يربط بين صور وبانياس ودمشق ، أما صفد فقد شيدها فولك
عام ١١٤٠ م بأعلى طبرية ، على أهم مواقع الفرنجة الواقعة بين عكا والاردن .
انظر :

Grousset : Hist. des croisades et du Royaume Franc
des Jerusalem. Vol. II p. 138.

Fedden : op. cit. p. 22

(٢)

Fedden : op. cit. p. 10.

(٣)

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع ، ص ٥١ .

عرضة للهجوم من جيرانها المسلمين (١) . فأراضى الصليبيين التي امتدت من الجنوب الى الشمال ، وضمت كونتيه طرابلس وامارة انطاكية وامارة الرها التي ظلت خمسين عاما ، يبلغ طولها من اربعمائه الى خمسمائة ميلا تقريبا ، وفيما عدا أقصى الطرف الشمالى ، فقد كان عرض المملكة الضيق يسبب خطورة ، اذ أنه يتراوح بين خمسين وسبعين ميلا ، فمثلا كان امتداد امارة الرها لايزيد عن ٢٥ ميلا (٢) . وعلى الجانب الصحراوى الطويل لهذه الدولة الساحلية ظلت مدينتا دمشق وحلب الاسلاميتين القويتين ، دون أن يتمكن الفرنجة من الاستيلاء عليهما ، بل شكلتا قاعدتين خطيرتين ، استطاع المسلمون الانطلاق منهما ، لتوجيه الهجمات العنيفة والضربات المتواصلة لتلك الدولة (٣) . ومن الطبيعى أن الموقف الحربى العام كان يتغير تماما ، لو أن الصليبيين بدلا من اندفاعهم بحذاء الساحل فى الطريق الى بيت المقدس ، اتجهوا نحو الشرق واستولوا على دمشق قاعدة الشام ، ولكنهم اضاعوا تلك الفرصة ، وكلفهم ذلك الكثير ؛ فلو حدث أن نجحوا لكانت الصحراء حدا فاصلا ، يفصل مملكة بيت المقدس عن هجمات المسلمين من الشرق ، تلك الصحراء التي يبلغ طولها ثلاثمائة ميل ، والتي تعوق تقدم أى جيش (٤) . ولكن الصليبيين ادركوا خطأهم المميت بعد فوات الاوان ، وبذلك ظل المسلمون قابليين للحركة باستمرار ، على الجانب الطويل المكشوف لمملكة اللاتين ، الامر الذى أدى الى ضرورة قيام نظام دفاعى .

وهناك سبب أبعد وأشد خطورة ، جعل الصليبيين يبنون القلاع الهائلة ، ذلك هو النقص فى القوة البشرية . فالجيش الصليبي الذى خرج من نيقية عام ١٠٩٧ م كان ضخما بالنسبة للجيش المعاصرة ، ولكن الخسائر عند دوراليوم كانت ضخمة أيضا ، بحيث أن الجيش الذى فرض الحصار على انطاكية ، كان يتراوح بين خمسين الفا ومائة الفا (٥) . وعندما أوشك

Fedden : op. cit. p. 11.

(١)

Loc. cit.

(٢)

Loc. cit.

(٣)

Loc. cit. &

(٤)

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

Fedden : op. cit. p. 13.

(٥)

الصلبيين على الوصول الى هدفهم ، انسلخ القواد الواحد بعد الآخر بالقوة العسكرية التابعة له ، ليؤسس لنفسه ممتلكات اقطاعية ، اذلك كان من المحتمل أن الجيش الذى وصل الى بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، لم يتجاوز ١٥٠٠ فارس ، وعشرة امثالهم من الجنود المشاة (١) . والاجابة الطبيعية لهذا المازق الذى وقع فيه الصليبيون ، تمثلت فى طلب الامدادات العسكرية من أوروبا ، وفى هذه الحالة فان التعزيزات التى كانت تصل الى الاراضى المقدسة لم تكن ملائمة ، وكان نصيبها الفشل . وعلى عذا فلم يعد باقيا امام الصليبيين سوى القيام بأعمال التحصينات الدفاعية ، وبمعنى آخر ان تقوم الأحجار بعمل الجنود (٢) .

وقامين حركة الحج الى الاراضى المقدسة ، كان ايضا من الاسباب التى ادت بالصلبيين الى بناء القلاع والحصون . فمن المعروف ان الصليبيين اتوا الى الشام لأغراض ذلعية ، منها تحرير الاماكن المقدسة من سيطرة الأتراك السلاجقة ، وما ان وصلوا الى هدفهم حتى عكفوا على تأمين حركة الحج من الساحل الى كنيسة القيامة ، ولهذا شيدوا سبعة معاقل بين يافا والقدس ، أهمها قلعة شقيف أرنون (٣) .

والجدير بالذكر ان خوف الصليبيين الدائم من تحركات جيранهم المسلمين ، جعلهم لا يابھون ببناء الكنائس والقصور اول الامر . فالكنائس والقصور ينبغى لها أن تنتظر حتى يطمئنوا الى تملك البلاد ، ولهذا لجأوا الى بناء

Loc. cit. (١)

Fedden : op. cit. p. 14. (٢)

Fedden : op. cit. p. 16 and (٣)

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

تعرف قلعة شقيف أرنون عند الغربيين باسم بلفورت Belfort ، وسماها العرب شقيف عرنون نسبة الى قرية صغيرة بالقرب منها تسمى عرنون ، وتقوم هذه القلعة وكأنها عش نسر على شاهق يشرف على نهر الليطاني على ارتفاع ٢١٩٩ قدما فوق سطح البحر ، وهى بمثابة حارس يقوم على حراسة الممر الجنوبى الذى يربط صيدا وصور بالبقياع فدمشق . وقد بناها فولك عام ١١٣٥ م (فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٥٨ - ص ٣٦٠) .

الاستحكامات الدفاعية ، وأصلحوا أسوار المدن ، وشيدوا القلاع لحراسة الحدود ، لاستخدامها مراكز إدارية آمنة للمناطق بالبلاد (١) .

ولكى يحتفظ الصليبيون بتمسكهم على الشاطئ ، كان عليهم أن يحتفظوا بالسيادة على صلتهم بالبحر ، حتى يبقوا في الوقت نفسه على اتصال بمواطنيهم في الغرب الأوروبي ؛ وهذا الاتصال ميسرة من الممكن أن يستغلها فرجة الشرق ، وذلك باستدراج عطف الغرب الأوروبي في إرسال الفجوات ؛ ولهذا كله كان على الصليبيين إقامة التحصينات الساحلية ، ليؤمنوا العمليات البحرية ، فقاموا ببناء سلسلة من الأبراج استخدموها للمراقبة على الشاطئ (٢) . وقد وجد الصليبيون في معظم موانئ الساحل حصونا بيزنطية وأسواراً عربية ، شيدت قبل وصولهم إلى الشام بمدة طويلة ، ومن ثم اقتصر أعمالهم على الامتداد أو التوسع ؛ ومن أمثلة تلك القلاع حصن أنطارطوس Tortosa وجبيل وبيروت وقلعة البحر في صيدا (٣) .

هذا ومن الملاحظ أن الصليبيين اجتنبوا إقامة القلعة أو الحصن في وسط المدينة ، كما كان يفعل العرب ، وهؤلاء أسوة بالرومان ، وبدلاً من ذلك ، شيدوها في أحد أركان المدينة ، كي تستطيع أن تقوم بواجبها كوحدة مستقلة فعالة ، محتفظة بحرية مواصلاتها ، وإذا حدث أن سقطت المدينة ، استطاعت القلعة الحفاظ على مواصلاتها البحرية (٤) .

وقد دخلت في تركيب وبناء الحصون والقلاع الصليبية بالشام ، مواد مأخوذة عن إبنية أقدم عهداً شادها الإغريق والرومان من قبل ، أي أنهم انتفعوا بخرائب الآثار القديمة للهياكل والقصور ، فانتزعوا أحجارها ،

(١) رئيسمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ .

Fedden : op. cit. p. 18. (٢)

فيليب حتى : لبنان في التاريخ ، ص ٣٥٦ .

Fedden : op. cit. 18. (٣)

Loc. cit. (٤)

عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ، ص ٦٣ .

واستعانوا بها في البناء ، وبذلك وفروا مشقة نقلها من المقاطع (المحاجر) (١) .
وليس هذا فقط ، بل انهم انتفعوا بالقلاع والحصون التي سبق ان اقامها اما
الرومان او البيزنطيون او العرب ، فاصلحوها ورمموها واعادوا بنائها . وفي
نفس الوقت شيدوا انواعا عديدة من التحصينات ، اختلفت في أحجامها ، من
الابراج الصغيرة المعزولة ، الى الحصون المنيعه القادرة على استيعاب حاميات
تزيد عن الألف . وليس من السهل تتبع المراحل التي مر بها الفرنجة ،
واستطاعوا بفضلها الوصول الى ذروة فن العمارة الحربى الخاص بهم . ذلك
لان معظم القلاع انتابتها يد التجديد على الدوام ، وهى في الوقت الحالى تأخذ
المظهر الذى كانت عليه في القرن الثالث عشر ، عندما وقعت في نهاية الامر في
أيدى المسلمين (٢) .

كان اهم ما يميز طابع القلاع والحصون في اوائل القرن الثانى عشر ،
استخدام الحصن النورمانى المربع على غرار القلاع الفرنسية ، وبناء سور
بسيط تدعمه الأبراج المربعة الموزعة على مسافات طويلة نسبيا ، وذات نقوءات
واضحة ؛ وقد استفاد الصليبيون في هذا الصدد بما وجدوه في البلاد من القلاع
البيزنطية ، فضلا عما نقلوه معهم - بصورة أمينة للاصل - من الغرب من
أساليب البناء الحربية (٣) . واذا كانت الشام مسرحا للاحداث البيزنطية
والعربية ، والدولة البيزنطية - كما نعلم - وريثة الدولة الرومانية ، بذلك يكون
المسلمون والصليبيون على حد سواء ، قد عرفوا الكثير من التحصينات
الدفاعية ، التى ترجع الى ما قبل القرن الثانى عشر بكثير (٤) . وتأثر
الصليبيون بما وجدوه يرجع الى بداية المسيرة الطويلة لجيوشهم ، عبر
آسيا الصغرى عام ١٠٩٧ م ، عندما مروا بانقاض نيقية ، ثم في العام التالى

(١) لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوى لبنان من الآثار ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٢) Oman : A Hist. of The Art of War. Vol. II p. 20.

(٣) Fedden : op. cit. p. 27 &

Archer : the Crusades. p. 361 &

عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٤) Fedden : op. cit. pp. 22-23

عندما استولوا على مدينة أنطاكية • وكلا المدينتان من أساليب التحصين البيزنطية التي ظفرت بأعجاب الصليبيين •

وحين نبحث مسألة التأثير البيزنطى ، لابد أن نضع فى الاعتبار أن احتياجات الصليبيين والبيزنطيين ، اختلفت أحداها عن الأخرى • فالبيزنطيون لم يقاسوا النقص فى القوة البشرية ، ذلك الداء المزمع الذى عانى منه الصليبيون فيما بعد ، بالإضافة الى أن الفنون الحربية وأسلحة الحصار خلال الفترة السابقة للحروب الصليبية ، لم تتطلب الاسوار الشديدة الصلابة (١) • والصفة المميزة للقلعة البيزنطية ، اعتمدت على سور ساتر Curtain Wall رفيع نسبيا ، تحميه عدة أبراج مربعة الشكل بارزة قليلا خارج سقارة السور ، على مسافات مختلفة غير منتظمة ، ففى أجزاء السور التى يمكن الوصول اليها ، تقاربت الابراج ، أما فى الأجزاء المنيعه التى يصعب الاستيلاء عليها ، تباعدت الابراج (٢) • وإذا كان البيزنطيون قد اهتموا اهتماما بالغاً بحفر خندق كبير يحيط بأسفل أسوار القلعة ، ويتقدمه ركام ترابى (متراس) ، فمن الملاحظ أنهم لم يهتموا كثيراً باختيار البرج المربع المنيع ، أو العمل على تقوية الاسوار ومتانتها (٣) •

ولم يكتف الصليبيون فى أيامهم الاولى الاستفادة من نماذج التحصينات الدفاعية البيزنطية التى وجدوها ، ولكنهم أدخلوا تحسينات عليها • فالحصون التى على شكل المحار Shell-Keeps ، أو البرج المربع المنيع Donjon — Keep الذى يقوم بوظيفة الخط الدفاعى الاخير للقلعة ، هذه الحصون التى خلفها الفرنجة ورائهم فى الغرب الاوروبى ، أدركوا انها لاتصل فى مناعتها بالنسبة لما شاهدوه فى الشرق (٤) • ومن ثم استخدموا

Ibid. p. 23

Oman : op. cit. Vol. II p. 28

Fedden : op. cit. p. 23.

Fedden : op. cit. pp. 23 — 24

Oman : op. cit. Vol. II p. 30.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

الابراج في حصونهم على غرار النمط البيزنطى ، وشيدوها بادية الامر
مربعة الشكل ، من غير النتوء البارز الذى عرفه البيزنطيون (١) . وتأثر
الصليبيون ايضا بتقليد الحصون البيزنطية . التى كان البيزنطيون
يشيدون فيها برجاً واحداً يمتاز بسخامته ومنعته عن الابراج الاخرى . وذلك
البرج القوى المنيع Massive Keeps Donjon ، تالف غالباً من طابقين
وشرفة Terrace (٢) ، بدأ الصليبيون في اقامة العديد منه في صافيتا
والكرك ، وصهيون ، وجبله ، وعكار ، بالاضافة الى اماكن اخرى . وفي هذا
الصدد كانت لهم تجربة سائدة في الغرب الاوروبى ، سرعان ما تخلوا عنها ،
فقد كانوا يشيدون أقوى برج في القلعة في مكان يسهل الدفاع عنه ، حتى يتحمل
ذلك المكان كثافة الهجوم وشدته ؛ ولكنهم ادركوا أن خير مكان يقام فيه هذا
البرج ، هو المكان الذى لا يصل اليه المحاصر بسهولة ، أى في أشد المناطق
خطورة في القلعة (٣) . ويعتبر البرج المربع من أهم السمات البارزة التى ارتبطت
بالأرض المقدسة منذ البداية ، غير أن له مساوى ، خطيرة ، وضحت في حروب
الحصار المتعاقبة ، منها أن باب البرج لا يسمح للحامية بالانسحاب عندما
تضطر الاحوال ، كما أن هناك مساوى ، فنية أخرى لازمت كلا من البرج المربع
وبرج السور المربع ، فهما معرضان من زواياهما (اركانهما) للغم (٤) .

ونلمس التقدم الواضح للخنق البيزنطى على أيدي الصليبيين فيما
نشأه في الخندق الكبير المحفور في الصخر المحاط بقلع صهيون والكرك
والصبيبة والشقيف وعثليت (قلعة الحاج) (٥) .

ولندرة الأخشاب في الشام ، اضطر الصليبيون الى استخدام العقود
والقبوات (القناطر) من الحجر ، بدلا من الخشب ، واضطروا ايضا الى تحديد

Fedden : op. cit. p. 24 (١)

Ibid : p. 27 (٢)

Oman : op. cit. Vol. II p. 30 (٣)

Fedden : op. cit. pp. 27—28 & (٤)

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ .

Fedden : op. cit. p. 24

عدد الطوابق التي لم تتجاوز اثنين أو ثلاثة ، كما أن الأبراج التي تتوسط القلاع الصليبية Keeps . كانت أقل علوا من تلك المألوف في الغرب (١) .

وعلى كل حال ، فقد نشطت حركة بناء القلاع وتعميرها على ذلك الأسلوب بصورة واضحة على عهد بلدوين الثاني ، ثم على وجه الخصوص على عهد فولك أنجو (١١٣١ - ١١٤٤ م) . ففيما بين عامي ١١٣٧ و ١١٤٢ م شيدت سلسلة قوية من القلاع في الجنوب الغربي من عسقلان ، تضم قلعة تل الصافية Blanche gard ، وذلك لحراسة الطريق الممتد من عسقلان الى بيت المقدس (٢) . وفي بيت جبرين Bethgibelin ، تلك القرية التي أطلق عليها الصليبيون خطأ اسم بير سبع ، شيد حصن سيطر على الطريق الممتد من عسقلان الى الخليل (٣) . والمواضح أن الهدف من هذه الاستحكامات ، منع غارات المصريين المرابطين في عسقلان ، فضلا عن اغلاق الطريق من مصر الى فلسطين (٤) . وفي عام ١١٣٩ م بدأ الفرنجة يشيدون قلعة شقيف المنيعه على أحد الجبال المطلة على نهر الليطاني ، كي يتحكموا في أحد مخانقه الضيقة ؛ وبعد أربع سنوات شيدوا الكرك فيما بين ١١٤٠ - ١١٤٣ م شرق البحر الميت ، وهي قلعة تمتاز بموقعها العسكري وتعد نموذجا طيبا في أسلوب التحصين ؛ وفي تلك الأثناء تسلمت طائفة الاسبتارية حصن الفرسان (الاكراد Crak des Chevaliers ؛ ومن أهم تلك القلاع قلعة كوكب الهواء Belvoir التي شيدها فولك عام ١١٤٠ م على الأسلوب البيزنطي ، اذ يحيط بها سور خارجي يكاد يكون مربع الشكل تقريبا ، وتدعمه الأبراج ويقوم في وسطها حصن عال كان يؤلف في الواقع قلب الدفاع (٥) .

(١) Ibid. p. 26.

(٢) Grousset : op. cit. Vol. II p. 156 &

عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٣) William of Tyre : op. cit. Vol. II p. 132

(٤) Ibid Vol. II pp. 80—81.

(٥) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

وقد دعا الضعف المتوراث للحصن النورمانى المربع والبرج المربع في السور ، الى التخلي جزئيا عن الشكل المتبع ، والى احداث تغييرات هامة في عمارة القلاع الصليبية اواخر القرن الثانى عشر الميلادى (١) . ومن المشاهد ان الفرنجة لم يشيدوا - قبل حوالى عام ١١٧٠ م - أية أبراج مستديرة ضخمة ، ولكنهم بعد معركة حطين عام ١١٨٧ م ، اعتمدت أعمالهم الدفاعية على الأبراج المستديرة ذات الفتوة الكبير ، الذى يمتد نحو الاتجاه المتوقع منه الهجوم ، والتى من مزاياها انها كانت تسمح بكمية كبيرة من النيران الجانبية (٢) . وربما يرجع السبب في استخدام الأبراج المستديرة ، الى انها كانت تستطيع مقاومة الآلات الحربية المستخدمة في هدم الأسوار على حين ان الحصون المربعة تمثل اركانها نقاط ضعف (٣) .

هذا ، ويعزى الى بداية القرن الثالث عشر ، التطور الكامل في بناء القلاع . اذ نشأ نوع من القلاع ، اشتمل على عدة خطوط او ساحات دفاعية متعاونة ، تعتمد على بعضها بعضا داخل القلعة ، وأطلق عليه « القلاع المتداخلة الحصون » Concentric ، بمعنى أن المحاصر لا يستطيع الوصول الى أهم نقطة في الدفاع الا بعد ان يواجه خطوط الدفاع الخارجية . وقد ظهر ذلك النوع من التحصينات في الشرق الفرنجى اوائل القرن الثالث عشر ، ومن المحتمل أنه خرج الى حيز الوجود بعد الزلزال المرعب ، الذى حدث في ٢٠ مايو عام ١٢٠٢ م ، وحطم جانبا كبيرا من القلاع الصليبية في الشام . وعلى أية حال ، فان الغالبية العظمى من قلاع القرن الثالث عشر ، توضح لنا التطور الرائع في العمارة الحربية من ذلك النوع الذى اطلق عليه « القلاع المتداخلة الحصون » (٤) .

Fedden : op. cit. p. 28

(١)

Loc. cit. &

(٢)

Oman : op. cit. Vol. II p. 33

Oman : op. cit. p. 34

(٣)

Oman : op. cit. p. 38

(٤)

ولم يمض وقت طويل على القرن الثالث عشر ، حتى صار ذلك النوع من القلاع شائعا في غرب أوروبا ، ولكن الكتاب المعنيين بالعمارة الحربية أطلقوا عليه الادواردى Edwardian نسبة للملك ادوارد الذى شيد أفضل نموذج لهذا النوع خلال مدة حكمه (١٢٧٢ - ١٣٠٧ م) . غير أن هذه التسمية لا تتفق مع الواقع ، لأن الامثلة المبكرة لهذا النوع ترجع الى عهد الملك هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) . وقد أضحى برج لندن النموذج المثقن الرائع لهذا النوع من القلاع ، عندما أضاف اليه هنرى الثالث ساحته الدفاعية الخارجية في الفترة ما بين ١٢٤٠ و ١٢٥٨ م . ومن هذه النماذج أيضا قلعة كارفيللى Caerphilly التى تعد من أفضلها ، وقد شيدت قبل اعتلاء ادوارد العرش بعام . ومن المستبعد القول أن الملك ادوارد أتى معه بتصميم ذلك النوع بعد عودته من الحملة الصليبية التى قام بها في الشرق عام ١٢٧٠ م ، إذ استخدم هذا النوع في إنجلترا ، لاسيما القارة الأوروبية قبل ذلك التاريخ بمدة طويلة (١) .

ولا يعرف على وجه الدقة أصل هذا الأسلوب في القلاع الصليبية . صحيح أن الامبراطورية البيزنطية قد استخدمت هذا النوع من الاستحكامات ذات الحصون المتداخلة في بيزنطة وغيرها ، كما استخدمها الخليفة العباسي المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥ م) ، عند بناء الاسوار المستديرة في تشييد مدينة بغداد في القرن الثامن بدلا من دمشق عاصمة الأمويين ؛ وعرفت في إنجلترا على أيام الرومان والسكسون بعض الاستحكامات الترابية من هذا النوع **Concentric earthworks** . ومن الممكن أيضا أن تكون القلعة ذات الحصون المتداخلة قد تطورت من البرج الذى على شكل المحار Shell-Keep وهو عبارة عن قلعة وحصن **Shell-Keep** شيد وسط غفاء ؛ وقد أثبت هذا التخطيط في أوروبا ، أنه أحسن ما يستعاض به عن الحصن النورمانى المحدود المهمة (٢) .

Ibid. pp. 38—39

(١)

Fedden : op. cit. pp. 28—29 &

(٢)

وعلى أية حال ، فإنه مهما اختلفت الآراء في منشأ هذا الطراز المعماري فهو شرقي أم غربي ؛ وبمعنى آخر سواء عرفه الفرنجة في الشرق ، أم نقلوه الى الشرق ، فإنه ازدهر على زمن الحروب الصليبية ازدهارا مدهشا ، وهو عنوان القوة الهائلة والجمال النادر في آن واحد (١) .

ومن الحقائق الغربية في التمام الصليبية أن عددا من البنائين الذين ارتبدلوا بقلاع هيئة الداوية ، والقريين (١٢٢٧ - ١٢٢٩ م) معقل طائفة فرسان التيوتون ، هؤلاء البنائون لم يتأثروا بنمط القلاع المتداخلة الحصون Concentric Castles ، بل استمروا حتى نهاية فترة الحروب الصليبية في تشييد القلاع ذات النمط البيزنطي ، فضلا عن أنهم ظلوا يستخدمون الطريقة القديمة في بناء البرج المربع . وربما يرجع سبب التمسك بالطراز القديم الى المنافسة الحادة بين الداوية والاسبغارية ، فالأخيرة ارتبطت ارتباطا وثيقا بتطور وازدهار القلاع المتداخلة الحصون ؛ ومن الصعب حاليا أن نكون رايًا في ذلك ، لأن الزمن أثر في قلاع الداوية بصورة أشد من قلاع الاسبغارية ؛ ومن قلاع الداوية التي أصابها الضرر الكبير صفد وعريمة وصافيتنا وطرطوس ، فضلا عن الحصون الجنوبية (٢) .

وثمة رأي آخر يذكر أن وجود الابراج المربعة القوية الى جانب الابراج المستديرة بالشام ، ليس دليلا على أن الفرنجة كان لهم في الشرق طرازين من المباني الحربية ، ذلك الذي يتمثل في الابراج المربعة الذي مارسه فرسان الداوية ، والآخر في الابراج المستديرة الذي استخدمه الاسبغارية ؛ ولكن المهندسين الصليبيين تكيفوا مع احتياجات الأرض ، فشيّدوا مبانيهم ونقلوا لعقليتهم الدفاعية البارعة (٣) .

Fedden : op. cit. p. 29 & (١)

عبد الرحمن زكي : نفس المرجع ، ص ٦٠ - ص ٦١ .

باركر : الحروب الصليبية ، ص ١١٢ - ص ١١٤ .

Fedden : op. cit. pp. 30-31. (٢)

Longnon : Les Français d'Outre-Mer p. 149

Dussaud : La Syrie Antique. p. 122. (٣)

وقد واكب هذا التطور في تخطيط القلاع عدة تغييرات في البناء ، عند نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر ، منها احياء استخدام الحجارة المنحوتة (المصقولة) ، التى لابد أن رأوها في الجوانب القديمة المبعثرة في كل مكان من المملكة (١) . وتلك الاحجار لايتيسر لسلامل الحصار التغلب عليها ، لانها لاتستطيع الامساك بها (٢) . وتطورت أيضا طريقة عمل المزاغل (فتحات السهام) التى اصبحت تتخذ عادة شكل منحرف الى اسفل ، وأحيانا قاعدة على هيئة ركاب الفرس ، وبذلك سهل الرمي الى اسفل القلعة ؛ ولم تقتصر المزاغل على الطوابق المرتفعة في الحصن ، بل عمت أيضا في الطوابق المنخفضة الى مستنقعات الأرض (٣) . وأخذ الصليبيون أيضا عن العرب ظاهرة المشربيات Machicolations ، التى زودت بها الأبراج بغرض السيطرة على اسفل السور ، وهذه المشربيات عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض ، وتحمل فوقها حواجز بارزة ، وبين كل دعائمين فتحة مقفولة بباب مستور ، يمكن أن تصوب السهام منه الى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون أن يحفروا تحت الجدران ، أو يشعلوا النيران ؛ كما يمكن من هذه المشربيات أن يصب الزيت والماء المغليان على رؤوس المحاصرين ، ولندرة الاخشاب في الشام اضطر الفرنجة لاستخدامها من الحجر (٤) . وهناك عدة أمثلة لهذه الظاهرة المعمارية في عدد من المباني بالقرب من أنطاكية ، يرجع تاريخها الى ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين (٥) ، بالاضافة الى مثلين فوق باب النصر (١٠٨٧ م) أحد ابواب القاهرة ، وهما أقدم بنحو قرن من أية مشربية عرفت في أوروبا (٦) . ذلك أن أقدم أمثلة لهذه الظاهرة المعمارية في أوروبا ، نجدها في قلعة شاتو جايار Chateau Gaillard (١١٨٤م) وشاتيون (١١٨٦م) ونورينس (١١٨٧م) ونورينس Winchester ووينسستر Winchester

Fedden : op. cit. p. 25

(١)

Ib'd. p. 29

(٢)

Fedden : op. cit. p. 29

(٣)

Oman : op. cit. Vol. II p. 34 . &

(٤)

سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ١٩٩ .

زكى محمد حسن : الفنون الاسلامية ، ص ٦٦١ .

Fedden : op. cit. p. 25

(٥)

٦: سعيد عاشور : نفس المرجع والصلحة .

«(١٩٣م) . وبمقارنة التواريخ السابقة يتضح جليا أن هذه الظاهرة نشأت في الشرق قبل ظهورها في أوروبا (١) .

والجدير بالذكر هنا ، أن المسلمين خلال فترة الحروب الصليبية ، كانوا قوة مهاجمة متحركة ، ذات تفوق عددي عظيم ، لديها القدرة على أخذ زمام المبادرة ، ولهذا فانهم - في المقام الأول - لم يهتموا بأعمال التحصينات الدفاعية ، وبالتالي فان تأثيرهم على العمارة الحربية الفرنجية أمر قليل الشأن (٢) . وعلى الرغم من ذلك ، فقد استفادوا من خبرة العرب في أساليب البناء الحربي . فهم الذين قاموا بإدخال منحدر ضخم الى أساسات أسوارهم ، مما أدى الى زيادة سمك جدران أسوار قلاعهم ، وتأكيد قوة دفاعها ، وقد اتبع المسلمون هذا الأسلوب ، دفعا لأضرار الزلازل ، وإعاقة لزراعة الألغام (٢) . كذلك عرف الصليبيون أيضا المدخل اللتوي للقلاع عن العرب . فإبان الحروب الصليبية أضحى المدخل الحربي من باب القلعة الى داخلها متعرجا او على شكل زاوية قائمة ، حتى لا يتمكن العدو الذي يصل الى الباب من أن يرى الفناء الداخلي ، او أن يصوب سهامه الى من فيه (٤) . ويبدو أن الرومان والبيزنطيين لم يعرفوا هذا النوع من المداخل . وإنما كانت تشيد عدة أبواب متتالية على خط عمودي واحد ، يفصل كل باب عن الآخر مضاء . وتدل الأبحاث الحديثة على أن العرب كانوا أول من استعمل

(١) سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ، ص ٦٦١ .

مارتن برجز : تراث الإسلام . ص ١٢٧ - ١٢٩ .

Dussaud : op. cit. p. 143

Fedden : op. cit. p. 26 & (٢)

Longnon : op. cit. p. 118

Fedden : op. cit. p. 26 & (٣)

عبد الرحمن زكي : نفس المرجع ، ص ٦١ .

(٤) سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ، ص ٢٠٠ .

زكي محمد حسن : الفنون الإسلامية ، ص ٦٦١ .

مارتن برجز : تراث الإسلام ، ص ١٢٩ - ١٤٠ .

الداخل المتتوية بمدينة بغداد في القرن الثامن الميلادي ، ثم بدت هذه الظاهرة في قلعة صلاح الدين بالقاهرة التي شيدت سنة ١١٧٦ م ، ثم ظهر منها مثال بديع في قلعة حلب . وعندما انتقلت ظاهرة المدخل المتتوي الى قلاع أوروبا ظهرت بوضوح في قلعة بوماريس Beaumaris في إنجلترا ، وفي قلعة كاركاسون Carcassonne في فرنسا (١) . وقد أقام الصليبيون في القلاع عددا من الابواب السرية أو الخلفية Poster Gate في اركان خفية ، ليس متوقعا انشاؤها بها ، ويعتبر البيزنطيون أول من أدخل هذا التصميم في اخفاء ابواب قلاعهم (٢) . ومن التحسينات التي أدخلها الفرنجة على قلاعهم نقلا عن العرب ، وهؤلاء بدورهم عن البيزنطيين « المتراس » ، ويمكن وصفه بأنه اطار من الخشب أو الحديد ، مدبب الاطراف من أسفله ، ينزلق عموديا في حزين جانبيين في كنف باب حصن أو قلعة ، ويثبت في الاطار شبكة من الحديد ، يستطيع المدافعون من خلالها قذف السهام ، ويسدل المتراس عند محاولة المهاجم اقتحام القلعة ، وذلك بخفضه بواسطة حبال متينة أو سلاسل (٣) .

وعلى أية حال ، فإن الدروس التي استفادها الصليبيون من البيزنطيين والمسلمين في مجال العمارة الحربية ، قد حولوها الى فائدة رائعة ومستوى عظيم (٤) .

ومن الواضح جليا ، أن الرقاع الصليبية ببلاد الشام قد تقلصت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، نتيجة ضغط القوات الاسلامية ، ومن ثم خثرت حماسة الصليبيين في تشييد القلاع ، باستثناء القليل . وانتقلت عنايتهم الى تحصين قلاع الساحل ، حتى يتمكنوا من مراقبة

(١) سعيد عاشور : المدينة الاسلامية ، ص ٢٠٠ ،

مارتن برجر : تراث الاسلام ، ص ١٤٠ ،

Fedden : op. cit. p. 30

Fedden : op. cit. p. 30

(٢)

(٣) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ، ص ٧٥ .

Fedden : op. cit. p. 26

(٤)

البحر ، وان كان هذا لا يمنع أن البنائين الفرنجة قد استمروا حتى الساعة الأخيرة في تشييد وتعمير ، لأن وضع حجر فوق حجر صار خلال قرنين من الزمان طريقة معتادة في التفكير والسلوك (١) .

وقد تميزت القلاع الصليبية بالشام بمنعتها وضخامتها ، وفاقت مثيلاتها في الغرب الأوروبي . فبعضها كان ضخما للغاية ، حتى أنه بلغ في حجمه ضعف كوسى Concy وببيرفوندs Pierrefonds أضخم القلاع في فرنسا (٢) . وكانت تلك القلاع كأنها وحدات دفاعية مستقلة تزداد قوة باتصال أحدها بالآخرى . وقد تأثر الصليبيون أثناء وجودهم في الشرق ، بما وجدوه من نظم اتصال عند المسلمين . من ذلك استخدام الحمام الزاجل في نقل الرسائل العاجلة . أو طلبا لنجدة عند اقتراب جيوش المسلمين ، والمعروف أن نور الدين محمود استخدم الحمام الزاجل في نقل البريد عام ٥٦٧ هـ (٣) . كذلك تأثر الصليبيون في الشرق باستخدام الاشارات كوسيلة من وسائل التخاطب أثناء الحروب . ففي الليل توقد النيران ، وفي النهار يثار الدخان ؛ وقد عرفت تلك الوسيلة باسم « المناور » أي مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار ، وهي تأتي بالخبر أسرع من الحمام الزاجل (٤) . فمن أعلى حواجز شرفات قلعة الشقيف استطاع رجال الاشارة الاتصال مع جنود الصليبية أسفل منحدرات جبل الشيخ ، مع قلعة تورون الى الجنوب ؛ ومع حامية قلعة صيدا على بعد ١٩ ميلا على الساحل . وفي أقصى الجنوب ، عندما كان صلاح الدين يحاصر قلعة

Ibid. p. 16 (١)

Lamb : The Crusades. p. 386. (٢)

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، حوادث عام ٥٦٧ هـ .

ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٦٧ هـ .

وقد ذكر ابن واصل في كتابه مفرح الكروب في أخبار بني أيوب ج ١ ، ص ٢٨٣ أن نور الدين محمود « بنى أيضا الابراج على الطريق بين المسلمين والفرنجة ، وجعل فيها من يحفظها ، ومعهم الطيور الهراوى ، فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور . فالتأخذ الناس حذرهم ، واحتاطوا لأنفسهم ولم يبلغ العدو منهم غرضا » .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٩٨ - ص ٤٠٠ ،

الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ٨٨ ،

Desmaul : op. cit. pp. 146-147

الكرك عام ١١٨٣ م ، كانت تلك القلعة تتصل ليلا بواسطة الشارات النارية ، عند البحر الميت بقلعة بيت المقدس (برج داود) التي تبعد عنها مسافة خمسين ميلا (١) .

والعديد من تلك القلاع الصليبية بها صهاريج لاختزان المياه ، أو مجرى مغطى يتجه بأسفل الى مستودع كبير للمياه ؛ وإذا استبعدنا حالة المفاجأة في الهجوم على تلك القلاع ، فانها استطاعت الصمود بجدارة أمام هجمات المسلمين ، حتى يصل الجيش الرئيسى من مملكة بيت المقدس للنجدة (٢) .

ومما يثير دهشة الباحث ، كيف سقطت - أو أجبرت على الاستسلام - تلك القلاع الكبرى ، التي تسيدها الفرنجة على الرغم من ضخامتها وقوتها ؟ ليس من شك أنه قد اجتمعت عوامل على سقوط تلك القلاع . من تلك الاسباب النقص في القوة البشرية ، والافتقار الى القوة الضاربة التي عانى منها الصليبيون ، منذ ان وطئت اقدامهم أرض الشام . ففى خلال حصار قلعة صهيون المنيعة عام ١١٨٨ م ، اكتشف المسلمون أن قسما كبيرا من السور المنيعة للقلعة ، لايدافع عنه أحد من رجال الحامية (٣) .

وتد أوجدت القلاع الكبرى عند الصليبيين عقلية دفاعية ، فرضت عليهم جهدا نفسيا ومعاناة قاسية ، اذ كانوا على الدوام فى انتظار ما يجلبه المهاجمون من مفاجآت ، الامر الذى أدى الى ان يظلوا فى حال من اليقظة المستمرة والرقابة والانتظار والانصات والخوف . ومن الطبيعى ان رجلا قضى حياته خلف جدار ذى فتحات على سطح حصن ، لابد أن يصيبه الضجر والانهيار والملل ، وتلك كلها أعداء مخيفة للجند تعرضهم لانهيار معنوى شامل ، خاصة اذا جاءت الاشاعات بسرعة الريح عبر الاسوار ، أو اذا تسرب المسلمون من الابواب

Lamb : op. cit. p. 58 &

(١)

Fedden : op. cit. p. 31

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع ، ص ٦٧ .

Lamb : op. cit. p. 58

(٢)

Fedden : op. cit. pp. 34-35

(٣)

السرية الخلفية (١) . كذلك الحال اذا نضبت المياه ، وتفشى المرض ، ووصلت انباء تفيد ان العدو قد اباد نجدة كانت آتية لخلاص المدافعين عن القلعة (٢) . وفي الوقت الذي اخذ فيه القرن الثالث عشر يقترب من نهايته ، وتقلصت البقاع الصليبية ، وصارت مسألة الانهيار الشامل لمملكة بيت المقدس مسألة وقت ، تضاعفت الروح المعنوية للقلاع ، ويفسر لنا ذلك لماذا سلمت قلعة انطاكية المنيعه ، ذات الحامية الكاملة عام ١٢٦٨ م ، بعد حصار لم يدم اكثر من خمسة ايام (٣) .

وعلى الرغم مما توافر بالقلعة من مستودعات المؤن والصهاريج ، ظلت المجاعة والعطش من الاخطار السائدة ، فضلا عن انها كانا من اهم عناصر اسلحة الحصار في العصور الوسطى بوجه عام . بيد ان هذا السلاح لم يلعب الا دورا صغيرا نسبيا ابان الحروب الصليبية ، ويرجع السبب في ذلك الى ان رجال الحصن لم يكن عددهم من الضخامة ، بحيث يحتاج الامر الى مقادير وفيرة من المؤن ، فقد احتوت القلاع - كما سبق ان اشرنا - على مخازن تحت الارض مكدسة بالمؤن لمواجهة اى احتمال مفاجئ (٤) . فمثلا وجد في قلعة المرقب من المؤن التى تكفى الجند لمقاومة خمس سنوات من الحصار ، وكان فى حصن الاكراد طاحون للقمح ومخازن للزيت والحبوب ، وفى قلعة صهيون وجد صهريجان كبيران للمياه ، تكفى حاميتها مدة حصار طويلة (٥) . وفى بعض الاحيان كانت تبدو صورة المجاعة مزعجة مخيفة ، فنذكر المصادر الدفاع المثير الذى قام به رينودى ساجيت Reynaud de Sagette وحاميته الباسلة عن قلعة الشقيف ، وانتهاء ذلك الدفاع بالتسليم لصالح الدين عام

Fedden : op. cit. p. 35

(١)

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

Fedden : op. cit. p. 35

(٢)

Loc. cit.

(٣)

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع والمصنعة .

Oman : op. cit. Vol. II pp. 29 - 30.

(٤)

Fedden : op. cit. p. 36

(٥)

١١٨٨ - ١١٨٩ م ، بعد أن تحمل رجالها قسوة المجاعة ، ومن الحالات التي فتكت المجاعة فيها أيضا قلعة كراك مؤاب ، وقلعة صافيتا عام ١١٨٨م (١) -

ولأساليب الحصار واسلحته ، صلة وثيقة بسقوط القلاع الصليبية . والملاحظ ان الصليبيين عندما باثروا عمليات الحصار الكبرى للمدن المحصنة الكبيرة ، مثل نيقية وانطاكية أو القدس ، قد اكتسبوا خبرة . فالاتهم الواهية ، وطريقتهم العنيفة في الهجوم ، كانت عاجزة تماما عن التغلب على مثل تلك التحصينات ، ولولا عنصرى المجاعة والخيانة ، لما تمكنوا من الاستيلاء على الاماكن التي فرضوا الحصار عليها (٢) . ولكنهم خلال فترة وجودهم بالاراضى المقدسة ، أحكموا فن الحصار وبرعوا فيه . والجيش المحاصر للقلعة لم يكن أمامه سوى أحد اختياريين ، إما الهجوم أو القصف . وبمعنى آخر ، إما تسلق سور القلعة أو الحصن ، أو ايجاد ثغرة فيه (٣) -

ويعتبر سلم تسلق الاسوار (السلالم المتحركة) أبسط طريقة للهجوم المباشر ، بيد انه يكلف الجيش المحاصر العديد من الارواح ، اذ يسهل بعدد ملائم من حامية القلعة صد الهجوم ؛ ولكن اذا كانت الهجمات مكثفة ومتوالية ، فانها تعطى أملا في اقتحام الحصن . واذا كان الغرض الرئيسى من السلم المتحرك ، هو وصول الجيش المهاجم الى مستوى حاجز شرفة الحصن ، ففي الامكان الاستعاضة عنه بطريقة معقدة ، تتمثل في تكديس الأتربة على جدار السور ، حتى يتكون منحدر كبير ، تستطيع القوة المهاجمة أن تتقدم من فوقه (٤) . على أن هذا الاسلوب الاخير ، يعرض الجند المتقدمين على المنحدر الترابى لخط النار المدمرة التي تلقى عليهم من شرفات الحصن ، مما يؤدي الى كوارث فادحة ، بالرغم من أن الجيش المهاجم كان يستعين بالسواتر النقالة المغطاة بجلد الحيوان (٥) . ولا يغيب عن البال أن السلم

Loc. cit

(١)

Oman : op. cit. Vol. II p. 24.

(٢)

Fedden : op. cit. p. 37

(٣)

Loc. cit.

(٤)

Loc. cit.

(٥)

المتحرك عرضة للكسر أحيانا ، كما حدث خلال حصار انطاكية في ٢ يونيو عام ١٠٩٧ م (١) .

أما عن أبراج الحصار أو الدبابات الخشبية أو قلاع الحصار **Siege Castle** ، فكانت أهم أسلحة العصور الوسطى الهجومية ، وأكثر فعالية من السلالم المتحركة ، استخدمها اللاتين خلال عمليات الحصار في الشام . وقلعة الحصار كانت عبارة عن برج متحرك مبنى من الخشب ، بالغ الارتفاع ، لدرجة أنه يصل الى أقصى ارتفاع جدران حصن أو مدينة معرضة للهجوم . وتتحرك قلعة الحصار على عجلات ، وفي أعلاها وجد رماة الأسهم والمنجنقات والآلات الأخرى المعدة لإطلاق القذائف . ويحاول المحاصرون إبعاد قلعة الحصار - أو الدبابة - عن الأسوار ، بلصق عروق خشبية ذات رؤوس حديدية في الأسوار لتقاومها ؛ وإذا وجدوا أن تلك الطريقة لا طائل تحتها ، فإنهم كملاذ أخير ، ألغوا بالنار الاغريقية ، أو الاسهم المشتعلة ، مما يؤدي الى اشتعال النار في قلعة الحصار . وحتى تكون قلعة الحصار بمذاى عن تأثير النار ، فقد روعي تغطيتها بالجلود المنقوعة في الخل (٢) .

وقد ساعدت تلك الأبراج في الاستيلاء على بيت المقدس ، ومن قبل على مدينة المعرة ، ففي نوفمبر عام ١٠٩٨ م أمر ريموند الصنجيل رجاله ببناء برج حصار خشبي ، ولما تم بناء البرج ، وقف الفرسان في الطابق العلوى منه ، في حين قام رجاله أسفل البرج بدفعه نحو سور المدينة ، وأثناء انشغال المسلمين بالقاء الاحجار والنار الاغريقية على البرج ، تمكن جنود صليبيون آخرين من احدث ثغرة في السور ، نفذوا منها يوم ١١ ديسمبر ، حيث استطاعوا الاستيلاء على المدينة (٣) . وخلال نزول الفرنجة على ميناء صيدا في ١٩ أكتوبر عام ١١١٠ م (٣ ربيع الآخر عام ٥٠٤ هـ) ، ومضايقته برا وبحرا ، قاموا بتجهيز برج البسوه بحطب الكرم وجلود البقر الطرية ، ليقاوم

Gesta Francorum. pp. 46—47 (١)

Archer : op. cit. pp. 352—353 (٢)

الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٢ .

Gesta Francorum, pp. 77—79 (٣)

الحجارة والنفط ، ثم نقلوه على بكر (عجلات) ، وزحفوا به بعد أن زودوه بالماء والخل لاطفاء أى نيران تلقى عليه (١) . وخلال حصار الصليبيين لعكا عام ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) ، قاموا بصنع ثلاثة أبرجة من خشب وحديد ، شديدة العلو ، بحيث امكن رؤيتها من أسوار المدينة ، مركبة على عجل «يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل» . ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق ، فقام السلطان صلاح الدين بجمع الزرايين والنفاطين للعمل على احراقها ، ولكنهم اخفقوا ؛ ولكن شابا (أغفل التاريخ ذكر اسمه) نحاسا من دمشق ، استطاع أن يخلط بعض المواد في قدور من النحاس ، وسكبها على البرج الاول ، فالتهمت فيه النيران (٢) ، ومن مساوئ تلك الأبراج الخشبية ، أنها لا تستطيع العمل الا على أرض مستوية ، او لم يكن ثمة خندق ، بالاضافة الى أن المدافعين يمكنهم اكتشافها بسهولة (٣) .

ووجدت وسائل مألوفة لاحداث ثغرة في أسوار المدن والقلاع على زمن الحروب الصليبية ، وهى : الكبش Ram ، والمنجنيق Mangon والنقب Bore أو زراعة الألغام Mine . وكان يتم تجهيز الكبش من اكبر ساق لأضخم شجرة يمكن أن تقدمها منطقة الصراع ، ثم يعلق ذلك الساق بعد أن يوضع في مقدمة ثقل من الحديد ، على نطاق وسط عمودين قصيرين ، ويجر الكبش على عجلات الى القلعة ، ويقوم فريق من الرجال من الممكن ان يصل عددهم الى ستين رجلا - تحت غطاء سقيفة وقائية - بتوجيه الدعامة الخشبية الكبيرة ، تجاه موضع في الجائط وقع عليه الاختيار لاحداث الثغرة به (٤) . وامام الضربات المروعة المتواصلة ، لايسطيع أى بناء الصمود

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٧ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٠ - ص ١٢١ .

سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٠١ - ص ٤٠٢ .

ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٦ هـ .

Fedden : op. cit. p. 38

Gesta Francorum, p. 91

(٣)

(٤) العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ٢١٢ .

Fedden : op. cit. p. 38

Archer : op. cit. pp. 351--352

اذ تتخلخل احجاره ويمكن انتزاعها . غير أنه من الممكن مقاومة ذلك السلاح .
 مثلما استطاعت القوة المطوقة المسلمة أثناء فرض الحصار على بيت المقدس .
 عام ١٠٩٩ م ، ان تدلى بكتل من القضبان والعوارض الخشبية لايقصف
 الصدمة ، فضلا عن الامساك بالكبش ومنعه من التحرك ، حتى لا يوزع
 ضرباته (١) .

والجدير بالذكر أن الاسوار التي كانت في متناول المحاربين ، كان يتم
 ضربها بالكباش ، أما تلك التي لا يمكن الوصول اليها اما لوعورة الطريق ،
 او وجود خندق مثلا ، فكان يتم قصفها بالمنجنيق (٢) . والمنجنيق ، تلك
 الآلة التي أطلق عليها بصدق مدفعية الفترة الصليبية ، والتي امكن للمحاصرين
 والمدافعين استخدامها سواء بسواء ، لم تكن في الحقيقة غير مقلاع بلغ من
 القوة بحيث استطاع القذف بصخور ضخمة . وقد وصف القلقشندي في كتابه
 صبح الاعشى (٣) المنجنيق قائلا : « آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما
 سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل
 فيها الحجر ، يجذب حتى ترتفع اسافله على اعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه
 الذي فيه الكفة ، فيخرج الحجر ، فما اصاب شيئا الا اهلكه » . وهو على
 اصناف كثيرة ، منه الصغير والكبير ، ذو احجام مختلفة (٤) . غير أنه لما
 كان مسار القذيفة منحني عال ، كان من الصعب تصويبها بدقة واحكام على
 نقطة معينة في الجدار (٥) . كذلك كان من الصعب استخدام المنجنيق في فصل
 الشتاء ، اذا اتفق وقوع الامطار والثلوج ، اذ تحدث المقاساة بسبب جر
 العجل بواسطة الابقار ، فالمسافة التي يستغرقها جر البكر (العجلات) على
 أرض جافة في احوال جوية عادية ، تختلف عنها على أرض وحلة سبببتها
 سقوط الامطار . فقد حدث خلال زحف السلطان الاشرف خليل بن قلاوون على
 عكا عام ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) ، ان استغرق جر آلات المنجنيق من حصن

Fedden : op. cit. p. 38

(١)

(٢) الحسن بن عبد الله : آثار الاول ، ص ١٨٨ - ص ١٨٩ .

(٣) ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٤) انحسن بن عبد الله : آثار الاول ، ص ١٩١ .

Fedden : op. cit. p. 39

الإكتراد الى عكا شهرا كاملا ، في حين أنها لاتزيد عن ثمانية ايام في الاحوال العادية (١) . ولم يكن المنجنيق معروفا للفرنجة ، ولكنهم اقتبسوه لأنفسهم في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، عندما شاهدوا استخدامه بشكل عام بين المسلمين (٢) .

وثمة نموذج آخر من القذائف (المدفعية) التي استخدمت ببلاد الشام ابان الحروب الصليبية ، وهو نوع من انواع المنجنيق اطلق عليه البعيد المدى Terbuchet ، ومهمته قذف الاجسام من مسافة طويلة . وقد تألف ذلك النوع من سارية طويلة وضعت على شكل النواصة (لعبة من لعب الاطفال) ، أو الارجوحة فوق عمود . وللسارية طرفين ، طرف قصير غليظ كان يوضع فيه ثقلا كبيرا ، وطرف السارية الاطول لوضع القذيفة ويثبت بالارض . وحين يفصل طرف السارية الطويل من الارض ، فان الثقل الموازن يقوم بطرد (اطلاق) القذيفة . ومع أن المسار المنحني لذلك النوع من المنجنيق يشبه المسار المنحني للمنجنيق ، الا ان الاول كان له ميزة كبيرة ، فمن اجل الحصول على دقة أبرع في التصويب ، من السهل أن يكيف (يعدل) وضع الثقل على طرف السارية ، بحيث يصير قريبا من النقطة المحورية (٢) .

وقد اختلف النقب - أو زراعة الألغام - عن الكبش ، ففي حالة النقب امكن إيجاد ثغرة في أى جدار بالحفر ، بدلا من احداث الصدمة في حالة الكبش . وقد عرف الرومان زراعة الألغام من قبل لما لها من أهمية . وعلى عهد الحروب الصليبية ، كانت أهم أخطار أسلحة الحصار المعاصرة ، فقد استخدمها المهندسون (اللغامون) ببراعة تامة ، خاصة مهندسو حلب - الذين استخدمهم ريتشارد الاول عند حصار داروم عام ١١٩٢ م - فقد بلغوا شأوا عظيما في هذا المضمار . والحقيقة أن وضع الألغام في عصر لم يكتشف فيه البارود ينم عن فن حربي عبقرى ، فبعد أن يقوم المهندسون بإزالة الاتربة من تحت البرج ، يحدثون فجوة على عمق لا بأس به ، يسندونها بأعمدة من

(١) الحسن بن عبد الله : أثار الاول ، ص ١٩٤ ،

أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ص ٢٤ .

Fedden : op. cit. p. 39

Loc. cit.

(٢)

(٣)

الخشيب كلما تقدموا من خلالها . تم يعضون الحشائش الجافة سريعة
الالتهاب . وعندما يتم اشعالها تتداعى الفجوة . وما يعلوها من البناء (١) .
غير أن زراعة الالغام كانت تبدو مستحيلة في بعض الاحيان . اذا كانت القلعة
متسيدة على صخرة صلبة مثل حصن الكراد . فاذا هوت القلعة . كان ذلك
عادة لأسباب أخرى (٢) . ولاريب أن أبرع استخدام لزراعة الالغام . حدث
في قلعة المرقب للاستتارية . التي لم يستطع صلاح الدين الايوبي الاستيلاء
عليها . فبعد اعدادات شاملة استغرقت وقتا طويلا . قام السلطان المنصور
قلارون على رأس جيش كثيف . بتطويق تلك القلعة عام ١٢٨٥ م . ولكن
المجانيق الوفيرة التي نصبها على سفح الجبل التي تقع القلعة بأعلامه . كان
محيرها الدمار على يد الحامية الفرنجية . ونتيجة لذلك . زرع المسلمون
الالغام في التحصينات الدفاعية للقلعة . وتمكنوا من اسقاط التحصينات
الخارجية . تم وجهوا هجوما الى التحصين الرئيسي في القلعة انتهى
بالاخفاق . وعاد المهندسون زراعة الالغام . وبعد أن قضوا ثمانية ايام في
عمل متواصل تحت الارض . استطاعوا احداث ثقب تحت البرج الدائري الذي
كان بمثابة التحصين الرئيسي . ومنذ ذلك الثقب بالاختساب سريعة
الالتهاب . وفي ٢٣ مايو عام ١٢٨٥ م اشعلوا النار في الثقب . فاخذ البرج
يهوى . ودخل السلطان القلعة في موكب في ٢٥ مايو عام ١٢٨٥ م (٣) .

وملكية كل قلعة من القلاع الصليبية بحاميتها الصغيرة القديرة . وبما
احتوت عليه من اسطبلات واسعة . وابراج حمام . وطواحين . ومستودعات
سرية ضخمة تكفى مؤنا غذائية لحصار طويل الأمد . وصهاريج مياه ضخمة .
كانت تابعة لاحد كبار الاقطاعيين (٤) . والمعروف أن الحملة الصليبية الاولى
كانت تمثل قمة النظام الاقطاعي المعاصر في غرب أوروبا . ومن أجل هذا

(١) Oman : op. cit. Vol. II pp. 29-31

Fedden : op. cit. pp. 38-39

Fedden : op. cit. pp. 39-40 (٢)

(٣) أبو الفدا : المختصر . ج ٤ . ص ٢١ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة . ج ٦ . ص ٢١٥ - ص ٢١٧ .

Longren : op. cit. p. 148 and (٤)

Fedden : op. cit. pp. 31-32

قامت مملكة بيت المقدس على نظام اقطاعي . وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، اتسع نطاق العمليات الحربية بين المسلمين والصليبيين ، وتعرضت مملكة بيت المقدس لضغط اسلامي متزايد ، في الوقت الذي صارت فيه اعباء ونفقات القلاع ، والحفاظ عليها ، مسئولية ابعد من أن يتحملها كبار السادة الاقطاعيين (١) . ولهذا عمل السادة الاقطاعيون الواحد بعد الآخر ، على بيع قلاعهم او تقديمها في صورة هبة ، حتى جاء اليوم الذي صارت فيه ملكية قلعة كبيرة لسيد اقطاعي ، أمرا نعتبره في حكم الاستثناء . وقد آل معظم تلك القلاع - خاصة القلاع الضخمة الواقعة على الحدود - في منتصف القرن الثاني عشر الى طائفتي الاسبتارية والداوية ، اللتين اضطلعتا بالحفاظ على تلك القلاع ، فضلا عن مسئولية الدفاع عن مملكة بيت المقدس بأسرها (٢) . كذلك من الاسباب التي ادت الى منح القلاع والحصون للطوائف الدينية الحربية ، تناقص القوة الضاربة للصليبيين ، اذ تضاعلت الاصوات المقيمة بامارات الفرنج ، اما بالوفاة او بالوقوع في الاسر ، ولذا اعتمد أمريك الاول (١١٦٣ - ١١٧٤ م) اساسا على منظمتي الاسبتارية والداوية ، اللتان تسلمتا في سنة ١١٦٧ م والسنوات التالية عددا كبيرا من الحصون وما يحيط بها من الاراضي (٣) . وكان بوسع الصليبيين الزائرين أن يقاتلوا الموسم او الموسمين ، غير انهم لن يلبثوا أن يعودوا الى بلادهم . اما طوائف الفرسان الرهبان ، فكفلت مددا لا ينقطع من العساكر الاتقياء المحترفين ، الذين لم يكلفوا الملك شيئا من النفقات ، والذين توافر لهم من الثروة ما يكفي لان يقيموا من القلاع وينفقوا عليها ، الأمر الذي لم يتيسر الا لقلّة من السادة الاقطاعيين (٤) .

والقلاع التي آلت للطوائف الدينية العسكرية ، بعض احجامها ينزع الى الضخامة مثل الكرك او عثليت ، فكل منها تعتبر مدينة عسكرية ، لأنها تأوى الآلاف من المقاتلين والاتباع اللازمين لهم (٥) . وما حازته طائفة

Fedden : op. cit. p. 32

(١)

Ibid. pp. 32—33

(٢)

رنسيما : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠٨ .

(٤) رنسيما : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٠٢ .

Deschamps : Le Crac des Chevaliers. Vol.

(٥)

II pp. 70—75

الاسبتارية من قلاع مثل : القلعة الضخمة التي اشتهرت بحصن الفرسان (الأكراد) ؛ وحصن كوكب الذي تحكم في مخاضات نهر الاردن الى الجنوب من بحر الجليل (١) ؛ وحصن ارسوف الذي تسلمه السلطان الظاهر بيبرس بعد حصار دام أربعين يوما (٢) ؛ وحصن المرقب تلك الكتلة الهائلة الضخمة من البناء التي هيات لمواجهة امكان قيام زلزال ، شيدت على قمة جبل (٣). وقد تنازل برتراند مانسويه عن ذلك الحصن للاسبتارية في أول فبراير عام ١١٨٦ م بتصريح من سيده بوهيموند (٤) . وعن مناعة ذلك الحصن قال العماد الاصفهاني (٥) : « وهو معقل للاسبتارية ، على المنكب ، سامى المرقى والمرقب ، ضيق المذهب ، عسر المطلب » . ويكفيه انه قاوم الباطنية بجداره ، وحرس حدود امارات انطاكية وطرابلس (٦) . وكان من الممكن رؤية قلعة المرقب على بعد فراسخ ، ذلك لأنها - كما قلنا - تتوج قمة تل منزوى يرتفع عن سطح البحر بحوالى ٢٠٠٠ قدم ، وقد بنيت من الحجر البازلت الاسود ، ويتميز برجها الرئيسى بأنه أضخم من أى برج . وسورها المزدوج المحيط بها ، مزود بالعديد من الأبراج المرتفعة التي تبدو كأنها تمسك بأعنان السماء . وقد اخضعت القلعة لنفوذها شيخ الجبل (زعيم الباطنية) وملك حلب ، على الرغم من القلاع العديدة التي كانت تحت ايديهما ، وقد اضطرا لدفع جزية سنوية مقدارها الفين من الماركات من أجل الحفاظ على السلام معها (٧). وتولى نوبات حراسة القلعة كل مساء اربعة فرسان وثمان وعشرون رجلا ، حتى في اوقات السلم احتفظ الاسبتارية بحامية قوامها خمسة آلاف رجل . وزودت القلعة بالاحتياجات الضرورية التي تكفيها خمس سنوات ؛ وفي القلعة

(١) العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ١٠٢ ،

ابن كثير : البداية والنهاية ، حوادث عام ٥٨٤ هـ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

Archer : op. cit. p. 361

(٣)

Dussaud: La Syrie Antique. p. 152

(٤)

(٥) العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ١٠٢ .

Camille : Les Monuments des Croisés. Vol .II pp.

442—443 &

ابن حبيب : درة الاسلاك ، ج ١ ، ورقة ٨٠ .

Lamb : op. cit. p. 275

(٧).

بعد الغروب كان يجتمع حول موائد العشاء فرسان الاسبتارية ، بأرديتهم السوداء من جنسيات مختلفة ، مثل الالماني والايطالي والفرنسي والبروفنسالي والانجليزي والقطلاني والاسباني (١) .

اما طائفة الداوية ، فقد حازت على قلاع مثل : صفد التي فتحها صلاح الدين الايوبي عام ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) (٢) ؛ وقلعة حصن الاحزان الذي بناه الداوية عام ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) ، وهدمه صلاح الدين في العام التالي (٣) ، وحصن طرطوس الذي امتنع برجه الضخم عن السقوط في أيدي المسلمين عام ١١٨٨ م (٤) ؛ وحصن دربساك الذي كان « مرتفع الذرى ، ممتنع الذرا ، قد جاوزت الجوزاء ، وناجت أرضه السماء » ، بيد أنه سقط في أيدي صلاح الدين عام ٥٨٤ هـ (٥) . ومن تلك الحصون أيضا : حصن بغراس على مقربة من انطاكية ، وقلعة صافيتا في منتصف المسافة بين طرسوس وحصن الاكراد ، التي شيدت على تل وعر صعب المسلك ، على ارتفاع يبلغ حوالى ٣٢٠ مترا ، ولكنها سقطت في أيدي السلطان الظاهر بيبرس في يناير عام ١٢٧١ م (٦) .

ومن الطوائف الدينية الحربية التي حازت على قلاع ، منظمة فرسان التيوتون ، ولكن عددها كان قليلا ، لايقارن بعدد قلاع الداوية والاسبتارية ، ومن قلاع التيوتون قلعة القرين ، التي شيدت عام ١٢٢٧ م على مرتفع صخري يبلغ حوالى ١٨٥ مترا ، على الحدود الغربية للجليل شمال فلسطين ، وهى ترجع الى أصل فرنسي ، وكانت مقرا لمونتفرت Montfort ، ثم تنازل عنها سيد ماندليه Lo Seigneur de Mandelée لمقدم منظمة التيوتون هرمان دى سالزا Herman de Salza عام ١٢٢٩ م وصارت منئذ مركزا للمنظمة ، وفرض عليها الظاهر بيبرس الحصار عام ١٢٦٦ م ، ولكنها لم تسقط في يده

Lamb. : op. cit. pp. 275—276

(١)

Dussaud : op. cit. p. 151

(٢) العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ٧١ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، حوادث عام ٥٨٤ هـ .

(٤) العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ١٠٢ .

(٥) العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ١١٧ .

Camille : op. cit. Vol. II pp. 89—90

(٦)

الا عام ١٢٧١ م ، فما كان منه الا ان دك أسوارها (١) . وفي عام ١٢٥٧م منح حاكم صيدا أو صاحب قلعة الشقيف . قلعة شقيف تيرون للفرسان التيوتون، وهي تقع الى الشمال من قلعة الشقيف على بعد بضعة اميال ، وتعرف الآن بقلعة نيجا (٢) .

واذا كانت الطوائف الدينية العسكرية للفرنجة قد امتلكت القلاع والحصون ببلاد الشام ، فان طائفة الاسماعيلية التي لعبت دورا كبيرا بين المسلمين والصليبيين ، امتلكت القلاع ايضا ، اما بطريق المنح أو الشراء أو الحيلة . فبعد ان عظم امر الاسماعيلية بالشام عام ١١٢٦ م (٥٢٠ هـ) ، وانتشر مذهبهم ، طلبوا من طغتكين صاحب دمشق حصنا . فوهبهم قلعة بانياس (٣) . وقد شيدت تلك القلعة على قمة عند سفح جبل الشيخ ، وتسميها العامة قلعة النمرود (٤) . واستطاعت تلك الطائفة ان تشتري قلعة حصن القدموس ، وهي قلعة بالقرب من الخوابي ، واتخذتها سكنا لها ، ثم انطلقت منها لمحاربة جيرانها من المسلمين والصليبيين (٥) . وفي عام ٥٣٥ هـ استطاعت تلك الطائفة أيضا ، الاحتياي على صاحب حصن مصيات (مصيف) في جبال النصيرية ، ومكروا به . وتمكنوا من الاستيلاء عليه بطريق الحيلة والمكيدة (٦) . وقد حاول صلاح الدين الايوبي الاستيلاء على ذلك الحصن بعد قلاعهم أيضا : ابو قبيس ، والكهف ، والمنيقة ، والعليقة . والرصافة ، وهي ان فرض عليه الحصار عام ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) ، ولكنه أخفق (٧) . ومن قلاع « ربيعة المقدار ، لاتسامى منعة . ولا ترام حصانة (٨) .

Les Guides Bleus, pp. 504-506

King : op. cit. p. 305

(٢) فيليب حتى : لبنان في التاريخ ، ص ٢٦٠ - ص ٣٦١ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٢٠ هـ .

(٤) فيليب حتى : لبنان في التاريخ . ص ٣٦٠ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٢٧ هـ .

أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ، ص ٨ .

Dussaud : op. cit. p. 128

(٦)

أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥ .

ابن الفلاني : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٣ .

(٧) أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

Dussaud : op. cit. p. 129

(٨)

القلعة ندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٤٦ - ص ١٤٧ .

ومن المسلم به أن القلاع والحصون الصليبية ، قد شيدت في المقام الاول ، بغرض الدفاع عن الكيان الصليبي بالشام ؛ واصطبغت بصبغة عسكرية وارتبطت بنظام صارم ، ولا سيما القلاع التي كانت في حوزة الطوائف الدينية الحربية ، فلم يكن بها مأوى للنساء (١) . ولكن تلك القلاع قامت بوظائف فعالة أخرى ، اذ كانت مراكز ادارية تموج بالسلام ، وعلامة بارزة على التطور الاقتصادي (٢) . وفضلا عن ذلك فقد كانت تلك القلاع مراكزا لعدد من المجتمعات القروية الهادئة ، فالصليبيون ربطتهم علاقات طيبة مع القرى المحيطة بهم من ناحية ، وسكانها الاصليين من الموارنة والمسلمين والشيعية والدروز ممن عاشوا في أراضيهم من ناحية أخرى (٣) . واحتفظت القلاع بمظاهرها الدينية والاجتماعية والجمالية . فالبنائون - خاصة السريان والروم - الذين استطاعوا بناء الاسوار الضخمة الصلبة ، كان في امكانهم أيضا - اذا اقتضت الحاجة وقت السلم - ان يبتدعوا نحتا مزخرفا رائعا ، وليس أدل على ذلك من الكنائس الصغيرة La Chapelle ذات التصويرات الحائطية الملحقة بالقلاع (٤) . وكان بكل قلعة كبيرة ، غرفة واسعة كبيرة Great Chamber ، يصل طول البعض منها الى ما يزيد على ثمانين مترا (٥) . فالحجرة التي كانت للمقدم في حصن الكرك ، بسقفها المعقود البارز، وبأعمدتها المربعة النحيلة ، وبشريطها الزخرفي البسيط الدقيق النحت المؤلف من خمس من اوراق الزهور ، هذه الحجرة فاقت في الروعة والابداع معظم حجرات الحصون الكبيرة (٦) . وكان يعلق على جدران الحجرات الرايات والنصب التذكارية ، والنسيج المزدان بالرسوم والصور ؛ وقد وصف لنا الرحالة الالماني ولبراند أولدنبرج Wilbrand of Oldenburg في بداية القرن الثالث عشر ، غرفة كبيرة رآها في قلعة بيروت - يجوانها تضمنت الهاما

-
- | | |
|---|-----|
| Miller : Essays on the Latin Orient. p. 521 | (١) |
| Small : Crusading Warfare. p. 60 | (٢) |
| Fedden : op. cit. pp. 40—41 | (٣) |
| Camille : op. cit. Vol. II p. 314 | (٤) |
| Fedden : op. cit. p. 41 | |
| Longnon : op. cit. p. 148 | (٥) |
| Enlart : Les Monuments des Croisés. Vol. II
pp. 95—98. | (٦) |

بيزنطيا عربيا - ، قائلا : « غطيت الأرض بالفسيفساء ، والمياه ينبعث منها الخير ، والنسمات هادئة خفيفة ، ويعتلى المرء الدعشة عندما يسير ولا يرى أثرا لوقع أقدامه على الرمل ، وغطيت جدران الغرفة بشرائح من الرخام الرائع الجمال ، والسقف مدهون بلون مشابه للون السماء . . . وفي وسط الغرفة نافورة من الرخام المتعدد الالوان ، تتدفق منها مياه شفافة تأخذ مسارا منحنيا ، والنسيم الآتي من خلال النوافذ المفتوحة يمد الغرفة بانععاس لذيق (١) » . وفي تلك الغرف كان يجلس الفرسان لسماع الموسيقى العربية المنبعثة من عود شرقي ، في الوقت الذي كانوا يحتسون النبيذ المحلى (٢) ، وفي قلعة الحاج (عثايت) وجد الحاج الصليبيون وسائل الراحة النادرة ، وفي نزل القلعة استطاعوا وضع امتعتهم الشخصية الى جانب الفراش النظيف المحتمو بالقش . وتناولوا طعامهم في حجرة طويلة ، انعشها نسييم البحر ، وفي تلك الحجرة كان بإمكانهم مشاهدة ضباط الداوية وهم يتبادلون الحديث (٣) . وتلك الغرف الكبيرة كانت معدة أيضا لعقد مؤتمرات الحرب ، واستقبال كبار الضيوف (٤) .

وعلى أية حال ، فإن الشام خلال فترة الحروب الصليبية ، كانت تمثل بيئة غنية بالتحصينات الحربية من الطراز الاول ، استفاد منها الفرنجة ايما استفادة . فبعد ان عادوا الى اوطانهم في الغرب الاوروبي ، ظهر تأثير الخبرة التي أكتسبوها في العمارة الحربية واضحا ، فقد ادركوا الانجازات العظيمة في آلات الحصار القوية ، والتأثيرات الرهيبة لحفر الخنادق وزرع الالغام ، فضلا عن ضرورة اختيار الموقع المناسب لتشييد القلعة أو الحصن . ولا أدل على ذلك من قلعة شاتو جايار التي شيدها ريتشارد الاول ملك إنجلترا (١١٩٦ - ١١٩٨ م) على نهر السين ، على جرف شديد الانحدار بلغ ارتفاعه ٣٠٠ قدم ، وكانت أعظم القلاع قوة في الغرب الأوروبي آنذاك ؛ فضلا عن القلاع التي سبقت

Fedden : op. cit. p. 41

(١).

Loc. cit.

(٢)

Lamb : op. cit. pp. 273- 274

(٣)

Dorsaud : op. cit. p. 144

(٤)

- في نورماندى وانجلترا وروشيستر ، التى يتضح منها التأثير البيزنطى (١) •
ولا ينبغي أن نغفل أن عمائر صلاح الدين الايوبى الحربية فى القاهرة ، تمثل
قواعد الفن الحربى المعمارى فى المدرستين اللاتينية ، والعربية البيزنطية أحسن
تمثيل ، وتوضح مدى التفاعل الحاصل بين المدرستين (٢) •

* * *

Ency. Brittanica, Art. Castle and
Lethaby : Mediaeval Art. pp. 105—106

(١)

(٢) نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ٢٠٨ •

الفضل الخامس

النشاط الفكري والتفاعل الاجتماعي بين المسلمين والصليبيين

أولاً - النشاط الفكري :

ثانياً - التفاعل الاجتماعي •

أولا - النشاط الفكري :

مما لا شك فيه أن الحروب الصليبية التي اتخذت من بلاد الشام مسرحاً رئيسياً لأحداثها مدة قرنين من الزمان ، أدت إلى وجود احتكاك حضارى بين المسلمين والصليبيين ، كان له شأن هام في انتقال بعض التأثيرات الحضارية الإسلامية عبر بلاد الشام إلى الغرب الأوروبى . وينبغى علينا الأخذ في الاعتبار أن الحضارة الإسلامية - أو التأثيرات الحضارية الإسلامية - عندما أخذت تشق طريقها إلى الغرب الأوروبى ، منذ أواخر القرن الحادى عشر ، سلكت عدة معابر أو قنوات أهمها ثلاثة هى : أسبانيا أولا ، وصقلية ثانيا ، وبلاد الشرق الأدنى وما ارتبط بها من حروب صليبية ثالثا . غير أنه يحسن عدم الانسياق فيما ذهب إليه بعض كتاب القرن التاسع عشر من تركيز الضوء على أهمية الحروب الصليبية ، كمعبر انتقلت عليه التأثيرات الحضارية إلى الغرب الأوروبى (١) . فالصليبيون قصدوا بلاد الشرق للغزو والاستعمار ، وانصفت حياتهم الجديدة بما يتصف به الجنود عادة من خشونة ، وتوجيه اهتمامهم إلى الدفاع عن كيانهم وسط المحيط الإسلامى الواسع . وإذا كانت الحروب بين المسلمين والصليبيين خفت وطأتها أحيانا ، وتوقفت حيناً في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، إلا أن الروح العدائية كانت هى الأصل . فالمسلمون لم ينسوا أن الصليبيين أتوا إلى بلادهم بقصد الغزو والاستقرار ، ومن ثم آلوا على أنفسهم ضرورة طرد الصليبيين من بلادهم ، وبالفعل تمكن المسلمون من القضاء على آخر المعاقل الصليبية الكبرى بالشام - وهى مدينة عكا سنة ١٢٩١ م . وهكذا لم تنتح للصليبيين في الشرق الأدنى حياة الاستقرار ، وهى الحياة اللازمة لمباشرة النشاط الفكرى ، بالقدر الذى يتيح لآخوانهم الأوربيين في الأندلس وصقلية (٢) . على أنه يجب أن نضع في بالنا أن أوقات السلم بين المسلمين والفرنجة ، كانت أطول من فترات الحروب ،

(١) سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ، ص ٥٦ - ص ٥٧ ،

محمد خلف الله : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، ص ٢٣٤ - ص ٢٣٥ ،

(٢) سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ، ص ٥٧ .

سواء أكان ذلك شتاء أم صيفا ، وتلك الفترات التي كانت تستمر فيها الهدنة
فتاحت للفريقين الفرصة لأن يختلطوا اجتماعيا ، ويتعاطوا مختلف الاعمال
الاقتصادية (١) . أما التبادل الفكرى فلا يتم الا فى ظل استقرار كامل .

والواقع أن المسلمين فى كل مكان من بلاد الشام ، كانوا يعتبرون انفسهم
أرفع ثقافة من الافرنج ، فكانت نظرتهم اليهم نظرة ترفع فيها شئ من
الازدراء وعليه فلم يرى المسلمون ان الفرنجة لديهم شئ ، ثقافى ومعارف تستحق
الاهتمام (٢) . وأفضل من عبر عن موقف المسلمين من الفرنجة بالنسبة الى
الثقافة والعلوم ، هو أسامة بن منقذ صاحب تيسير ، اذ قال : « سبحان الخالق
البارى » ، اذا خبر الانسان أمور الافرنج ، سبح لله تعالى وقدره ، وراى بهائم
فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير (٣) « ويمكن القول ان الحروب الصليبية،
على الرغم من انها كانت غنية فى حوادثها المثيرة ، فانها كانت حروبا عقيمة
هزيلة فيما حققته من نتائج فى حقل الفكر والثقافة ، وان المرء ليستطيع القول
ان أثرها فى الغرب كان افضل من أثرها فى الشرق ، لأنها فتحت امام الغربيين
نوافذ اطلوا منها على آفاق رحبة بعيدة ، لاسيما فى حقل التجارة
والصناعة ، أما فى مجال الفكر ، فقد كان مجدبا (٤) ، قليل العطاء .

وقد كان من الصعب فى عصر الحروب الصليبية ، ايجاد تفاعل فكرى
بين المسلمين والفرنجة ببلاد الشام . صحيح أن الحضارة الاسلامية كانت
وقتئذ متفوقة على الحضارة الغربية ، وعلى مستوى ارفع منها ، لكن العداء
المستحكم بين الشرق والغرب ، والتعصب الدينى ، والحاجز اللغوى ، كل هذه
الامور وقفت حائلا دون التفاعل الفكرى على نطاق واسع (٥) . وقد كان من
المتوقع مثلما حدث فى بالرمو بصقلية ، أن يثير الاتصال بين الفرنجة والمسلمين
النشاط العقلى ، على أن مجتمع الشرق الفرنجى الذى كاد أن يتألف بأسره من

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٧٩ .

(٢) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٨٧ .

(٣) الاعتبار ، ص ١٣٢ .

(٤) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٧٨ .

Hitti : History of the Arabs, p. 659

(٥) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٨١ .

الجنود والتجار ، لم يهيء في الواقع مناخا صالحا لاقامة مستوى فكري
برفيسع (١) ،

ومن الثابت أن الصليبيين قد تغيروا خلال مدة تسعين عاما من احتلالهم
الاراضي المقدسة ، اذ تبادلوا الحديث مع رجال من ذوى العلم من العرب ،
وعاشوا مع الحشود الكهنوتية لاسيما : الفساك الغساطرة ، والأرمن .
والرهبان الاقباط ، والوارنة ، واليعاقبة الذين كانوا يأتون للصلاة في كنيسة
القيامة عندما تكون الطرق آمنة (٢) . وقد أدى ذلك الى انهيار خشونة السيد
الاقطاعي المألوفة في الغرب الاوروبي امام كياسة الشرق ولباقتة ، وتحوله الى
رجل مهذب ذو ثقافة وعادات طيبة (٣) . ولهذا كان من بين الامراء والنبلاء
الصليبيين كثير من رجال الثقافة ، لاسيما في بلاط بيت المقدس ، فبلدوين
الأول (١١٠٠ - ١١١٨ م) الذي كان قسا في شبابه كان مثقفا ؛ وبلدوين
الثالث (١١٤٣ - ١١٦٣ م) وعمورى الأول (١١٦٣ - ١١٧٤ م) شغفا
بالقراءة ، وأولعا بدراسة القانون والتاريخ ، وكانا يشعران بالغبطة عند
التحدث مع الاطباء والشمامسة والعلماء ، وعمورى هو الذى طلب من وليم
الصورى الشروع في كتابة تاريخ للصليبيين (٤) . كذلك كان حنا دى ابلين
Jean d'Iblen نموذجا للبارونات المتحضرين من الجيل الثانى ، راعيا للفنون،
مهتمًا بالادب ، دارسا عظيما للقانون (٥) .

ومن المعروف أن التبادل الفكرى بين فريقين ، لابد وأن يسبقه معرفة كل
فريق بلغة الآخر ، حتى يتسنى له الاطلاع على آدابه وعلومه ، وسبر أغوارها؛
واذا طبقنا ذلك في الشرق الفرنجى نجد أن اللغة حالت دون التمازج الفكرى
والثقافى . وبالرغم من ذلك ، فقد ألزمت ضرورات الحياة السياسية

(١) رنسيما: الحرب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٨١٧ .

Lamb : op. cit. p. 56

(٢)

Thompson : Economic and Social History of the
Middle Ages. Vol. I p. 435

(٣)

Longnon : Les Français d'Outre Mer en Moyen
p. 143

(٤)

Thompson : op. cit. p. 435

(٥)

والاجتماعية بعض كبار الاءراء والنبلاء الصليبيين أن يتعلموا اللغة العربية .
وان يلموا بها الماما تاما ، حتى يسهل عليهم التعامل مع المسلمين ، والتفاوض .
معهم في ميادين السلم والحرب (١) . وبصرف النظر عن البولانيين الذين
كانوا على دراية باللغة العربية ، فقد كان على العديد من السادة الاقطاعيين
أن يكونوا على دراية بالعربية ، وهى معرفة لازمة للعلاقات بأفصالهم ، وتنظيم
الادارة والتجارة ، غير أنه لاشئ يدل على أن بارونات بلاد الشام كانوا على
دراية بالشعر العربى مثاما هو الحال بالنسبة للنورمان في صقلية (٢) .

ويأتى في مقدمة الذين اهتموا بمعرفة اللغة العربية ، وتذوق آدابها ،
المؤرخ وليم الصورى ، الذى من المرجح أنه ولد في مدينة بيت المقدس قبيل
عام ١١٣٠ م . من أبوين ينتسبان الى أسرة فرنسية : نشأ وليم في الشرق .
وتعلم اللغتين العربية واليونانية ، واجاد القراءة والكتابة بهما اجسادته .
اللاتينية ، والى بناء على رغبة صديقه وسيده عمورى الاول ملك بيت المقدس ،
كتابا عن تاريخ الشرق بوجه عام والغرب بوجه خاص ، منذ ظهور الاسلام .
الى زمنه ، وتناول فيه الحديث عن محمد صلى الله عليه وسلم وأمرء الشرق .
اجمعين ، معتمدا على المصادر العربية واليونانية ولا سيما تاريخ سعيد بن
البطريق ، وأسمى وليم كتابه هذا تاريخ *Une Historia Sara Cenorum*
وللاسف ضاع هذا المخطوط الكبير ، ولم يبق منه سوى ما نقله منه مؤرخو
القرن الثالث عشر (٣) . وشارك وليم في هذا الميدان ريموند كونت طرابلس
الذى تولى الوصاية على ملك بيت المقدس عام ١١٧٤ م ، ففى أثناء السنوات
الطويلة التى امضاها فى الاسر فى حلب بدءا بعام ١١٦٥ م ، انكب على القراءة
والدراسة ، وتعلم اللغة العربية ، ودرس سبل المسلمين وأساليبهم (٤) . كذلك
كان رينالد سيد صيدا (١١٧١ - ١١٨٧ م) ممن كان بهم ميل للعلم والدراسة ،
وله ولع خاص بالآداب العربية ، عرف باطلاعه « على بعض التواريخ
والاحاديث » ، وكان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه ، وقد نال رينالد اعجاب صلاح

(١) نغليز سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٤ .

(٢) Lammens : La Syrie Précis Historique. Vol. I. p. 261

(٣) نغليز سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٤ - ص ١٨٥ .

(٤) رنسيان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٦٥٢

الدين الأيوبي ، اذ عندما اشتد ضغط الاخير على قلعة الشقيف أرنون في ديسمبر عام ١١٨٨ م (٥٨٥ هـ) ، قدم رينالد الى مخيمه ، وأعرب له عن رغبته في تسليم القلعة والالتجاء الى دمشق ، بعد أن يمهل ثلاثة شهور لتسوية أموره ، ولوح لصالح الدين بأنه قد يعتنق الاسلام ، فاقتنع بصدق نيته . ولكن ظهر بعد ذلك أن ما قاله خديمة (١) . وعندما زار ابن جببر عكا مع قافلة ، شاهد كتاب الديوان (الجمر ك) الصليبيين ، وهم يكتبون باللغة العربية ويتكلمون بها (٢) . وقد وجد رهبان الفرنج أن من الخير لهم استيعاب اللغة العربية . ونامس ذلك عندما أرسل زعيم طائفة الاسماعيلية وفدا الى لويس التاسع ، احتاج الى ترجمة من الافرنج لينقلوا الرساله بواسطتهم ، ولما أرسل لويس سفيرا للاسماعيلية في قلاعهم ؛ وقع اختياره على الراهب الدومينيكانى ايف لى برينتون Yves Le Breton ، الذى كان على دراية تامة باللغة العربية (٣) .

ولم يحاول المسلمون معرفة لغة الفرنجة ، كما يصنع أغلب الذين يختلطون بهم من التجار ونحوهم ، واسامة بن منقذ الذى خالط البعض منهم وصادقه لم يكن يحسن غير لغته العربية ، وهو يقول عن الافرنج : « انهم لا يتكلمون الا بالافرنجى ، ما ندرى ما يقولون (٤) » . وفى مكان آخر يشير الى امرأة فرنجية « تدبر بلسانهم وما ندرى ما تقول (٥) » .

اما عن التعليم فى الشرق الفرنجى ، فالمعلومات عنه ضئيلة للغاية ، لعدم اهتمام الامارات اللاتينية بانشاء مراكز ثقافية لرعاياها ، ولأن التعليم بها هثما كان بالشرب لا يعدو أن يكون عبارة عن مدارس ملحقة بالكاتدرائيات

(١) ابى المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٢ - ص ٤٣ .
ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ١٩٢ - ص ١٩٣ .
أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .

(٢) ابن جببر : الرحلة ، ص ٢٧٥ .

Grousset : Histoire des Croisade. Vol. III pp. 517-518 (١)

(٤) الاعتبار ، ص ٦٦ .

(٥) الاعتبار ، ص ١٤٠ .

الكبيرة ، او ببلاط الملوك والامراء على النمط الموجود في الغرب الاوروبي وقتذاك : ولا ادل على ذلك من أن قادة الفكر من رجال السياسة والدين أمثال وليم الصوري ، وإيمرى بطريك انطاكية ، وجيمس دى فيترى اسقف عكا ، كانوا ممن ذهب الى فرنسا لاكمال تعليمه (١) . وعلى أية حال ، فقد ظلت ثقافة الفرنجة في الشرق الفرنجى مستوردة من الغرب ، ولم يحدث الا اتصال ضئيل بالثقافة المحلية ، فيما عدا الفنون ، لاسيما الحربية منها . ومن الاسباب التى ادت الى ضالة الحياة العقلية الفرنجية ببلاد الشام ، حالة العداء الدائمة التى عاشها السادة الاقطاعيون الصليبيون بينهم وبين المسلمين ، وترتب على ذلك أن ما اسهمت به الحروب الصليبية من ثقافة لغرب أوروبا كان مخيبا للامال (٢) .

واذا فرضنا أن الصليبيين توافرت لهم مقومات الحياة العلمية ، فإين لهم بالعلوم التى يباخضون عنها ؟ فالثابت أن عصر الحروب الصليبية بالذات قد امتاز بنوع من النضوب الفكرى في بلاد المشرق الاسلامى ، فقل الاقبال على الفلسفة بوفاة ابن سينا عام ١٠٣٧ م ، والغزالي عام ١١١١ م ، بل أن الخليفة العباسى فى بغداد أمر عام ١١٥٠ م (٥٤٥ هـ) باحراق الكتب الفلسفية ، ومن بينها مؤلفات ابن سينا نفسه ؛ ولهذا لم يكن في وسع رسل الغرب الاوروبى الاستفادة من المسلمين وعلومهم (٣) .

وبالاضافة الى ذلك الرأى ، فإن المسلمين الذين وقعوا تحت السيطرة المباشرة للصليبيين ، أم يكن في وسعهم مزاولة النشاط العقلى كما ينبغى نظرا لوضعهم المزعزع ، والممتلىء بالقلق ، حتى المدن التى ظلت بعيدة عن متناول الصليبيين ، وصلت الحياة العقلية في بعضها الى درجة بالغة الانحطاط . من ذلك حلب التى كانت امارة مستقلة حيننا ، وتابعة لدمشق تنبعية فعلية حيننا ،

(١) رنسيما : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨١٨ ،

سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٨ .

(٢) رنسيما : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨٢٢ ،

Chalander : Hist. de La Première
Croisade, p. 360.

(٣) سعيد عاشور : النهضة الاوروبية . ص ٣٧٣ .

واسمية حيناً آخر ، نلاحظ أنها على أيام الحروب الصليبية الاولى خلت من العلماء بسبب التهديد الصليبي المستمر لها ، حتى صار الناس يأخذون النحو من أبى السخاء فتیان الحلبي ، وهو حائك من عوام حلب ، قرأ شيئاً من النحو وفهم أوائله ، ولما عدم في زمانه من يعرف هذا الشأن ، وظلت المدينة حيناً من الزمن لا عالم بها ، قنع الناس بما عند فتیان الذي توفي في حدود عام ٥٦٠ هـ ، ثم لم تلبث حلب ان استعادت مركزها العلمي ، حتى صارت مكتظة بالعلماء ، كما وصفها بذلك ابن خلكان عندما زارها عام ١٢٢٨ م (٦٢٦ هـ) (١) . وإذا كان ذلك حال حلب ، فإن الوضع في دمشق اختلفت عنها ، فأثناء زيارة ابن جبیر لها في عصر الحروب الصليبية على أيام صلاح الدين الايوبي ، وزار جامعتها الشهير ، رأى ما كان يعقد من حلقات الدراسة ، التي كان ينفق على طلبتها ومدرسيها أوسع النفقات ؛ وقد كان هذا الجامع الذي وصفه ابن جبیر من أعظم مواطن الثقافة في الشام ، وعرف في عصر الحروب الصليبية طائفة من اعلام العلماء ؛ ويرجع السبب في ذلك الى أن دمشق كانت أبعد من أن تقالها آمال الصليبيين ، ولهذا ظلت الحركة العلمية نشيطة بجامعتها العتيقة (٢) : أما المسجد الاقصى ، عندما سقط في ايدي الصليبيين عام ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ) ، عملوا على تحويل قبة الصخرة الى كنيسة ، والمسجد الى منزل لسكنى ملكهم ، وسرعان ما اختفى صوت العلم فيه زهاء تسعين عاماً ، حتى فتحه صلاح الدين الايوبي ، فاعاده الى ما كان عليه (٣) ، وقبل مجيء الصليبيين كانت مدينة طرابلس من أعظم مواطن العلم في الشام ، بفضل الحسن بن عمار قاضي طرابلس للفاطميين والمتغلب عليها ، فقد أنشأ بها دار حكمة ، على مثال تلك التي أنشأها الحاكم بأمر الله بالقاهرة ، وللغرض نفسه انشئت من أجله ، وهو نشر التشيع ، وعظمت طرابلس في زمن بنى عمار ، ويقال انه كان بها اذ ذاك عدة مدارس وخزائن كتب ، ولكن نور العلم لم يلبث أن خبا بعد عهد قصير من قيام الحروب الصليبية ، اذ سقطت طرابلس في يد الفرنجة عام ١١٠٩ م (٥٠٣ هـ) (٤) .

-
- (١) أحمد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٥ .
 (٢) أحمد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٣ - ص ٢٤ .
 (٣) أحمد بدوي : المرجع السابق ، ص ٢٦ .
 (٤) أحمد بدوي : المرجع السابق ، ص ٢٩ - ص ٣٠ .

ولهذا لم تكن بلاد الشام والحروب الصليبية ، فيما زعم بعض باحثي القرن التاسع عشر ، الطريق الأكبر للتبادل الثقافي بين الاسلام والمسيحية ، فلم يكن هناك في مملكة اللاتين في الشرق الأدنى او قريبا منها مركز عظيم للمعارف الاسلامية ، يستطيع المسيحيون ان يستمدوا منه ، ولم يكن هناك ايضا امتزاج ثقافي مستمر او عميق بين المسيحية والاسلام كما كان في اسبانيا وصقلية (١) . وثمة فارق بين الوضع السياسي في اسبانيا ايام حكم العرب لها ، وبين بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية ، ففي اسبانيا كان النابلس - وهم المسلمون - يمتلك معظم البلاد فيما عدا بعض الجيوب الصغيرة في المناطق الشمالية الجبلية : اما في الشام فقد كان النابلس - وهم الفرنجة - في وضع قلق مزعزع ، يتخيم في القلاع والتكنات وساحل محديا واسع من المسلمين . من اجل هذا استطاع العرب في اسبانيا ان يذمروا ثقافتهم وعلاومهم ، فاستفاد منها المسيحيون استفادة بالغة الاهمية ، بعضس الاسر في بلاد الشام ، اذ اعطى الغالب بالطريقة التي يسمى بها وجوده قبل ان يسمى آخر .

ويقع الانتاج العقلي للفرنجة في الشرق الأدنى في ثلاثة اقسام : اولها الحوليات والذواريح . ثمدة قرنين من الزمان ، انسحت الحركة الصليبية حديث اوربا ، وقد تنافس الرجال الذين كانت لهم القدرة على الكتابة على طريقة الحوليات ، وعلى الطريقة الشائعة في العصور الوسطى بين مورخى الشرق والغرب ؛ وفي اول الامر كتب القسيس والجنود والملاحون الادبيين ، تحسنا عن الحوادث التي تسامحوا وعرفوها ، تلك القصص المفعمة بالمعجزات والخوارق والخرافات والبعاولات (٢) . وكل الحوليات باستثناء وليم الصوري وتاريخ احد المذيلين عالية مثل ارنول ، فيها رجال ولدوا ونشأوا في الغرب (٣) . وتاريخ الحروب الصليبية ببلاد الشام رواه ما يقرب من اننى عن مؤرخ معاصر ، والمع أولئك المؤرخين قاطبة وليم الصوري ، فاعماله التاريخية عظيمة بكل ماتحمله الكلمة من معنى ؛ واذا كان قد اطلق على فيرودوت اب التاريخ

(١) محمد خلف اله : الثقافة الاسلامية ، ص ٢٣٥ .

Lamb : op. cit. p. 382

(٢)

(٣) رنسيان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٨١٩ ،

نظير سعداوى : الحرب السلام ، ص ١٨٨ .

فان وليم الصورى يعتبر أب التاريخ فى عصره ، وهو جدير بذلك اللقب لحسن نظامه وتنسيقه ، ومعالجته الفنية للموضوع ، تمتعه بفن السرد الحىوى للحوادث (١) . وقد امتلك وليم أعظم صفتين لكتابة التاريخ فى عصره : المعرفة الشخصية باصحاب الحوادث بحكم منصبه الرسمى الحالى ، وإيمانه الشديد بالحقيقة ؛ ولما كان وليم دبلوماسيا واسقفا ومؤدبا ملكيا ورئيسا لخدوان انشاء المملكة ، فمن المحقق أنه امتلك تجربة عن الرجال والشئون انعاما لاينافسه فيها أحد (٢) . ومن بين مؤرخى الحروب الصليبية الغربيين ذلك النورمندى المجهول الذى صنف كتاب «أعمال الفرنجة» *Gesta Francorum* وصف فيه أول حرب صليبية ؛ وفولشر الشارترى *Fulcher of Charters* الذى ألف كتاب *Historia Hierosolymitana* وصف فيه الحرب الصليبية الاولى ، وتاريخ مملكة بيت المقدس حتى عام ١١٢٧ م (٣) .

وثانى الانتاج العقى للفرنجة فى بلاد الشام ، تلك الحصيلة الضخمة من المؤلفات القانونية ، وهى مجموعة التشريعات القانونية والدستورية التى اهتم بها الصليبيون الاوائل وسلالتهم ، وحرصوا على تدوين آرائهم ، واحكامهم القضائية ونظمهم السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية . وقد جاءت هذه التشريعات بصورة مطابقة لمثلتها فى الغرب الاوروبى ، باستثناء بعض الاصلاحات الضرورية التى تطلبتها البيئة الشرقية (٤) . ويخص المؤرخون من تلك التشريعات بالذكر ما وضعت مملكة بيت المقدس الصليبية ، فخلقت منها دولة ذات نظام سياسى وطيد الاركان ، وجددت الحقوق والواجبات لرعاياها ، وهم من جنسيات متعددة واهواء متباينة ، فحققت هذه التشريعات الحياة اليومية العادية للمسيحيين من اهل الشام على اختلاف مذاهبهم ، وللمسلمين واليهود والسامريين والبدو والفرنجة فى ظل ادارة اريستقراطية من اصل فرنسى (٥) . وقد وضعت تلك التشريعات زمن بلادوين

Archer : The Crusades. pp. 440—441 (١)

Miller : Essays on the Latin Orient. pp. 350—351 (٢)

(٣) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٥ — ص ١٢٦ .

(٤) رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٨١٩ ،

نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٨ — ص ١٨٩ .

(٥) نظير سعداوى : المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

الاول ، ورغم صيانتها عام ١١٨٧ م ، وهو العام الذى احرز فيه صلاح الدين الايوبي انتصاراته الباهرة ضد الصليبيين ، فقد حل محلها في القرن الثالث عشر مجموعة أخرى من القوانين ، لم يعرف منها سوى اربعة كتب : اولها « كتاب فيليب دى نافار » تناول فيه قانون الاقطاع ، والظاهر انه كتبه قبل عام ١٢٥٣ م ؛ وثانيها « كتاب حنا ابلين » كونت يافا ، وكتبه حوالى عام ١٢٥٣ م وهو صورة من كتاب فيليب دى نافار ؛ وثالثها « كتاب الملك » عالج فيه مؤلفه السلطة الملكية وسلطات بعض الامراء ؛ ورابعها وآخرها « كتاب نشأة البورجوازية » ، ويتناول فيه مؤلفه القانون المدنى ، ويبدو انه كتب بين عامى ١١٩٤ ، ١٢٢٩ م ؛ ونخرج من ذلك الى أن الكتب الاربعة جمعت القوانين الادارية والتشريعية الحياه السياسية في الشرق الفرنجى خلال القرن الثالث عشر ، كما درست طبقات المجتمع الصليبي (١) .

أما القسم الأخير من إنتاج الحياة العقائدية في بلاد الشام الفرنجية ، فيتمثل في الشعر القومى والعاطفى تمثيلا حيا ، والحروب كما عى السادة دائما توحى الى الادباء والشعراء بادق الاحاسيس والمتاعف في الوان متعددة ، يمسفون فيها البطولات والمعارك . واذا كانت الحروب الصليبية قد أثرت تأثيرا قويا على الادب العربى ، بل وعلى الراى العام بوجه عام ، فمن الواضح انها أثرت في الفكر الاوروبى ؛ وساعد على نمو هذا النوع من الادب ما اندقه الملوك والامراء بسخاء على الشعراء ، ولا ريب ان شعر العمود الوسطى كان ابتداءا صائبا ، وهذا بداية الحروب الصليبية انتمى التمدد الدينى والبدى مسالة الحربية وغموض الشرق ، موضوعات الهمة منسدة للعمود الوسطى ، فتغنوا به الامانى على انغام القيتارة ، وسرعان ما صار اكل المنسودة «الجميلة» عنصرما الشرقى ، فبهون من باردو Huon of Bordeaux كان له مناهرات جديدة في دهر والسحر ، وريغوى مونتابان Renaud de Montauban الذى انجزنى اواخر عصره اعمالا بطولية عادية في الارض المنسية . وببيز من «الامتسون Bevis of Hampton» الذى زار بيت المقدس ، ونزوح بابنة امير ، ولهذا فان الصليبيين قد ابدوا ادبا سياسيا جديدا (٢) .

(١) نظير «مدادى : المرجع السابق ، ص ١٨٩ - ص ١٩٠ .
Archer : op. cit. p. 4١٤

(٢)

والمعروف أن الحملات الصليبية جاء برفقتها العديد من الشعراء الغنائيين المعروفين بشعراء القروبادور . وما اقترنت به الحروب الصليبية من أحداث رائعة مثيرة أعطت فيضا غزيرا للشعراء ، فلم يلبث جودفري اللورين (ت ١١٠٠ م) أن صار بطلا اسطوريا ، ذكرت مغامراته في قصيدة Chevalier au Cygne ، غير أنها إذا كانت متعالة في الشرق حينما ألف وليم الصوري تاريخه ، إلا أنه جرى قرضها في الغرب ؛ وشبيه بذلك القصيدتان المنظومتان عن الحملة الأولى ، وهما أنشودة أنطاكية Chanson d'Antioche وأنشودة بيت المقدس إذ جرى تأليفهما في الغرب على أساس ما نقله الصليبيون العائدون معهم من معلومات ؛ أما الملحمة الوحيدة التي ألفت في الشرق فهي أنشودة الحفراء (الأدنياء) Chanson des Chétifs التي تتعلق بحصار أنطاكية عام ١٠٩٨ م ، وتروى قصة مدهشة عن الصليبيين الذين وقعوا في أسر كربوقا (١) . وقد نظم القصيدة الأخيرة مؤلف مجهول ، تلبية لرغبة ريموند دي بوانتييه أمير أنطاكية (١١٣٦ - ١١٤٩ م) . غير أن ما استندت إليه من أساس تاريخي بعيد عن الدقة ، يعطى مؤشرا أن مؤلفها كان من القادمين حديثا إلى الشرق الفرنجي ؛ وعلى كل فإنها حظيت بقبول واسع في الشرق الفرنجي وأوروبا معوا . ومن أولئك الذين نظموا الشعر ، ولم ينشأوا في الشرق الفرنجي ، فيليب النوفاري Philippe de Navare السياسي والمؤرخ والمشرع الذي نظم بالفرنسية ، على الرغم من أنه إيطالي المولد ، ويعتبر أحد رواد الثقافة الفرنسية في الشرق ؛ وفيليب نانجيل الذي أسر في القاهرة ونظم قصائد عن وطنه فرنسا ، عبرت عن احساسه ومشاعره المكتبته في الأسر ، وحنينه إلى وطنه (٢) . وبذلك القصائد وغيرها ، تكونت مادة القصص التاريخية التي وضعت في قالب شعري ، عمل على نقلها بعد ذلك المغنسون المتأخرون ، فتمتدحوا واشادوا إليها إضافات رومانسية من رحي خيالهم ، الأمر الذي أدى - بمرور الزمن - إلى ابتكار أدب رومانسي جديد ، يتدفق بالخيال ، نتجت في ثناياه الحقائق المجردة (٣) .

وبلغ عصر الحروب الصليبية الأولى انتشرت أغنية رولان Chanson

Ibid. Loc. cit.

Grousset : L'Empire du Levant. p. 327

Archer : op. cit. p. 444

(١)

(٢)

(٣)

de Roland ، التي اظهرت شارلمان في ثوب الصليبي الذي قام بحرب دينية مقدسة ضد مساهمي الاندلس ، وقد دونت تلك الاغنية باللغة الفرنسية الاناشئة في اسلوب جديد ، يجمع بين البلاغة وقوة التأثير ، مما مكن رجال الدين من استغلالها في الدعوة للحروب الصليبية . ويبدو ان كثيرا من اغاني المائت كان الغرض منها تشجيع المعاصرين على الحج وزيارة الاماكن المقدسة في كورسيكا وروما وفلسطين ؛ كما يبدو ان نسبة كبيرة من تلك الاغاني كتبها بعض رجال الدين ، وبعبارة أخرى كانت نورا من الدعاية الدينية في العصور الوسطى اتخذت شكل ملاحم (١) .

وإذا كانت حالة عدم الاستقرار في بلاد الشام ، قد انعكست انشاها واداء فكرية الصليبيين تؤدي الى تفاعل الثقافتين الاسلامية والملاطينية ، فان الامر لا يخلو من امثلة تدل على انتقال الافكار العلمية والفلسفية العربية الى أوروبا ، من طريق بعض العلماء الذين زاروا بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية . فيقال ان ادلار االباني Adelard of Bath الذي درس على العرب في تلك الهندسة ، قد طاف بمصر وآسيا الصغرى ابان الهندسة الاول من القرن الثاني عشر ؛ ومن الناحية ايضا ان ليوناردو فيبوناتشي Leonardo Fibonacci قد طاف بمصر والشام ، وليوناردو هذا أول عالم مسيحي في العالم يعلم الجبر وكان مناصرا اندريك الثاني (١١٦٨ - ١٢٥٠ م) وابنه قد تم بحثه في الاتحاد العربية (١) .

ومن الناحية اللغوية ، انسابت بعض الكلمات والمصطلحات العربية في اللغات الغربية ، وان كانت هناك صعوبة فيلولوجية في تحقيق نسبة استعارة هذه الالفاظ ، لان بلاد الشام لم تكن وحدها المكان الذي اتصل فيه الغرب الأوروبي بالشرق العربي (١) . ولا زالت الكلمات العربية التي دخلت اللغة الأوروبية حية ، تعطي الدليل القاطع للاهداف الجديدة والافكار التي وردت من الشرق الفرنسي ، وتقابلنا تلك الكلمات في كل مكان ، مثل الكحول alcohol .

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ - ص ٢٤٨ .

(٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٣ .

(٣) سعيد عاشور : النهضة الأوروبية ، ص ٣٢٤ ،

باركر : الحروب الصليبية ، ص ١١١ - ص ١١٢ .

وانفضة alfalfa ، والقلوى alkali ، والجبر algebra ، والسمت azimuth ، والسفوة zenith (١) ، ولا يزال يستعمل في الغرب ايضا اصطلاحات عربية في التجارة مثل : سوق Bazar ، دينار Dinar ، تعريف Tariff ، الترتز zechin ؛ وفي الشئون البحرية مثل : أمير البحر (أمير الماء) admiral ، دار الصناعة arsenal ؛ وفي الشئون الانزلية مثل : مختل مظل (في حديقة) alcove ، الغرافة (ابريق زجاجي) Carafe ، حشية (فراش) mattress ، اريكة sofa ، تميمة (حجاب) amulet ، الاكسير el'xir . الجلاب (شراب منعش معد من بعض الأعشاب العطرية) el'xir . الطلسم Talisman ؛ ولا يزال يستعمل أو قد استعمل فيما مضى بضعة اصطلاحات عربية في الموسيقى مثل : عود lute ، النقارة naker ؛ وأيضا من الكلمات العربية التي استعيرت الى اللغة الانجليزية ، نذكر الكلمات : قافلة Caravan ، دليل السياح (الترجمان) dragoman ، جرة Jar ، شراب Surup ؛ ونكرر القول أنه قبل البت في أن ادخال مثل هذه الاصطلاحات راجع الى الحروب الصليبية ، لابد من الرجوع الى استشارة الفيلولوجية الرومانسية والعربية ، والتدقيق في تعيين المكان الاصلى والزمن الذي تسربت الكلمات من خلاله . أما الكلمات الغربية التي انسابت في اللغة العربية فهو أقل بكثير ، ومما يذكر منها : انبرور inperator ، قسطل Castellum ، برج Burgus ، غرش Grossu (٢) . ورغم أن المسلمين احجموا عن تعلم لغة الصليبيين ، مخالفين في ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من تعلم لغة قوم آمن شرعهم ، فان المؤرخين المسلمين كثيرا ما ترددوا في المصادر الاصطلاح الغربية « ترم » ter ، ومثال ذلك قول ابن شداد : « انقضى الترم الأول . وتحضر الرهائن في ترومكم (فصولكم) (٣) . وأيضا قول العماد الاصفهاني : « وانتهى الترم الاول » (٤) .

وعلى عصر الحروب الصليبية كان الطب واحدا من العلوم التي نبغ فيها المسلمون ، يدل على الفروق الحضارية الواضحة بين المسلمين والصليبيين .

Lamb. op. cit. p. 380

(١)

(٢) باركر : المرجع السابق ، ص ١١١ - ص ١١٢ .

(٣) النواذر السلطانية ، اماكن متفرقة .

نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٩١ - ص ١٩٣ .

(٤) الفتح القسى ، ص ٢٦٨ .

وتكاد تنعدم معلومات الصليبيين عن الطب في ذلك الوقت . شأنهم في ذلك شأن الأوروبيين في الغرب الأوروبي ، وذلك بسبب الجهل وتزمت رجال الدين في العصور الوسطى ، حتى اعتبروا المرض نوعا من الجزاء أو العقاب الالهى لا يصح للانسان ان يعالج أو يبرأ منه ، فإذا حدث ان انتابت أحدهم حمى خرج الى اقرب دير أو كنيسة حيث يختفى على مقربة منها منتظرا حدوث معجزة تشفيه (١) . والثابت ان السادة اللاتين في القرن الثانى عشر فضلوا الاطباء المسلمين أو اليهود على اطباء الغرب الأوروبي (٢) . وما أورده اسامة ابن منقذ من أمثلة عن ممارسة الفرنجة للطب ، تدل على جهلهم بأبسط المبادئ الطبية ، فقد قال : « ومن عجيب طبهم (الفرنج) ان صاحب المنيطرة كتب الى عمى يطلب منه افاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه . فأرسل له طبيبا نصرانيا يقال له ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ، فقال : احضروا عندى فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطب مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجى فقال لهم : احضروا لى فارسا قويا وفأسا قاطعا » فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر . فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : « اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها » فضربه ، وأنا اراه ، ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال : « هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من ماكلهم الثوم والخردل . فزاد بها النشاف . فقال : « الشيطان قد دخل في رأسها » . فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالمح ، فماتت في وقتها . فقلت لهم : « بقى لكم حاجة ؟ » قالوا : « لا » فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه » (٣) . وفي ذلك المجال يروى اسامة أيضا قصة عن عجائب الطب لدى الفرنجة قائلا : « ومن عجيب طبهم ماحدثنا به كليم دبون William of Bures صاحب طبرية وكان مقدما فيهم . واتفق انه رافق الامير

(١) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ١٤٦ .

(٢) Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury. 1er p. ٦

(٣) الاعتبار ، ص ١٣٢ - ص ١٣٣ .

معين الدين ، رحمه الله ، من عكا الى طبرية وأنا معه . فحدثنا في الطريق قال : « وكان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت . فجننا الى قس كبير من قسرينا قلنا : « تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانا ؟ » قال : « نعم » ومشى معنا ونحن نتحقق أنه اذا حط يده عليه عوفى . فلما رآه قال : « اعطوني سمعا » فأحضرنا له قليل شمع ، فلينه وعمله مثل عقد الأصبع . وعمل كل واحدة في جانب أنفه . فمات الفارس فقلنا له : « قد مات » . قال : « نعم » كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح » (١) .

ولم يحاول الاطباء الصليبيون محاولة اطباء جنوب ايطاليا في الاستفادة والتعلم شيئاً من الطب المحلي ، وطريقة التداوى المنظم التي استردت بعض جذورها من الشرق الاسلامي (٢) ، على الرغم من أن ستيفن الانطاكي قام سنة ١٢٢٧ م بترجمة كتاب « كامل الصناعة الطبية » من العربية الى اللاتينية ، الذي ألفه على بن العباس المجوسى (ت ٩٩٤ م) ، وكان الافرنج يضيفون الى اسمه « القديس » ، ولم يعرف كتابا غير هذا الكتاب ، ترجم الى اللاتينية في أيام الحروب الصليبية (٣) . وبطبيعة الحال ، لم يكن الفرنجة بحاجة الى رجال فكر ، مما أدى الى أن تصير كمية الترجمة من العربية الى اللاتينية في فلسطين وسوريا بالغة الضالة بشكل يبعث على الدهشة (٤) . هذا بالإضافة الى أن المركز الرئيسى للترجمة من العربية الى اللاتينية أصبح شبه جزيرة ايبريا ، حيث ازدهرت حضارة العرب ، وكثرت كتبهم في مختلف العلوم والفنون ، ومن ثم اتجه كثير من اعلام النهضة الأوروبية في القرن الثانى عشر الى أسبانيا ، بطلبون الارتواء من فيض الحضارة الاسلامية (٥) ؛

وبسبب الحروب الصليبية ، بلغ الصليبيون شأوا بعيدا في التسامح فالصليبيون - كقاعدة - غلب عليهم الجهل ، فاعتقدوا في الخزعبلات ، وصوروا

(١) الامبار ، ص ١٢٧ - ص ١٢٨ .

(٢) رنديان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨١٩ .

نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٩٩ - ص ٢٠٠ .

(٣) هيايب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٨١ .

(٤) Haskins : Studies in Med. Culture, p. 99

(٥) سعيد عاشور : النهضة الأوروبية ، ص ١٨٠ .

المسلمين في نظرهم كوثنيين ، ولهم العذر في ذلك ، فقد لقنوعهم في الغرب ،
الأوروبي أن المسلمين يعبدون محمدا (صلى الله عليه وسلم) (١) . ولكن
ماتت عام من الاتصال اليومي مع المسلمين والاحتكاك بحضارتهم ، أوجدت
تغييرا ملحوظا في افكار الأوروبيين ، اذ وجدوا المسلمين اصحاب ديانة سماوية
في منأى عن الوثنية ، وان محمدا (صلى الله عليه وسلم) ليس بمعبود ، بل
في حقيقة الأمر من البشر ، وان كثيرا من تعاليم الاسلام مشابهة لتعاليم
المسيحية . واتضح لهم ان المسلمين يؤمنون بعبسى (عليه السلام) كنبي ،
ولسوا في الاسلام عقيدة بسيطة وسهلة ، بعيدة كل البعد عن التعصب مفعمة
بالتسامح لاسيما مع المسيحيين (٢) . ومن أبرز الفئات التي كانت مستعدة
لقبول الصورة المنقحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، زعماء اللاهوت
الذين كانوا يرغبون في امداد أبناء عقيدتهم بامضى سلاح ينازلون به العدو ،
الذي كان تثيره في الفلسفة المدرسية في العصور الوسطى Scholastic
قد أخذ ينتشر انتشارا ذريعا (٣) . ففي عام ١٢٧٣ م كتب
وليم الطرابلسي رسالة عن حالة العرب ومحمد النبي صلى الله عليه وسلم
وشريعتهم وعقيدتهم ، والصورة التي صور بها الرسول الكريم (صلى الله
عليه وسلم) وان كانت أبعد ما تكون عن شخصيته التاريخية ، فان بها من
العناصر الخرافية والمطاعن، قد انزل الى الحد الأدنى الذي لاغنى عنه لدافع
عن المسيحية في العصور الوسطى ، فيقرر وليم أن العرب يعتقدون أن جبريل
(عليه السلام) نقل الارادة الالهية Voluntatem Divinam الى النبي (صلى
الله عليه وسلم) ، ثم صاغ المؤمنون ما كان ينطق به كتابا (٤) .

ويبدو ان محاورات دينية بين المسلمين والصليبيين كانت تحدث
أحيانا ، فقد تحدث ابن شداد في حوادث عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) عن رينا
سيد صيدا والشقيف أرنون ، أنه كان من دهاة الصليبيين ، تردد كثيرا في
خدمة السلطان صلاح الدين ، وقال عنه : « وكان يناظرنا في دينه ونفاظه في

Hulme : The Middle Ages. p. 511.

(١)

Ibid. Loc. cit.

(٢)

(٣) جروينباوم : حضارة الاسلام ، ص ٧١ .

(٤) نفس المكان .

بطلانه ، وكان حسن المحاورة متأدبا في كلامه » (١) . ونكرر القول أن الصليبيين الاوائل عندما اتوا الى الشام ، وضعوا في أذهانهم أنهم أرفع قدرا من المسلمين الذين الصقوا بهم تهمة الوثنية ، وعبروا عنهم بكلمة « الكفار » التي فاضت بها المصادر المعاصرة . وكثيرا ما سخروا من الرسول صلى الله عليه وسلم ، من ذلك أنهم عندما فرضوا الحصار على حلب عام ١١٢٤ م (٥١٨ هـ) ، عمدوا الى قبور المسلمين فنبشوها ، وأخرجوا بعض الجثث التي لم تنقطع اوصالها ، وسلبوا الاكفان ، وربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوها مقابل المسلمين ، وجعل البعض منهم يقول : « هذا نبيكم محمد » ، وآخر يقول : « هذا عليكم » ، كما أخذ البعض مصحفا ، ونادى على أحد المسلمين قائلا : « يا مسلم أبصر كتابكم » ، فثقبه بيده وشده بخيطين ، وعمله ثفرا (السير الذي في مؤخر السرج) لبرذونه ، وظل البرذون يروث عليه ، والفرنجي يضحك عجباً وزهوا (٢) . ولكن الصليبيين لم يلبثوا ان أدركوا أن المسلمين أهل كتاب وحضارة تفوق حضارتهم ، ومن ثم تبدلت مفاهيمهم نحو المسلمين ، وزال التعصب الديني البغيض ، وحل محله الاختلاط زمن السلم . والواقع ان اتصال الفرنجة مع شعوب الشرق اصحاب الديانات العريقة المختلفة ، فتح اعين الغربيين على حقيقة انه من الممكن أن توجد شعوب ذكية ومثقفة ، وحضارة متفوقة على حضارة أوروبا الاقطاعية ، وبذلك تكون الحركة الصليبية قد خلقت حالة فكرية جديدة . ووجد عشرات الالوف من الصليبيين في المسلمين الهدوء والجاذبية ، بعد أن كانوا في حالات عديدة الكفار ، المحتقرين ، المكروهين ، الشريرين ، أبناء الشيطان (٣) . ولم يترك الاسلام في نفوس البعض انطبعا قويا فقط ، بل هداية أيضا ، اذ ظهرت شكوى من « مرتدين » مسيحيين ، تخلوا عن المسيحية ، وآثروا اعتناق الاسلام ، حتى أن أحد رجال الدين وهو مبشر ديني من الفرنسيين كان أرسل الى افريقية ، عاد مسلما ، كما أن التجارة الضخمة المربحة بين المسلم والمسيحي اثرت أيضا تأثيرا بالغ الاهمية في نمو

(١) النوادر السلطانية ، ص ٩٨ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ - ص ٢٢٥ .

Thompson : op. cit. Vol. I p. 433

(٣)

التسامح ، لأن العلاقات التجارية الدولية ، تتطلب التسامح ، والتعصب ضار بالنسبة لانتعاش التجارة (١) .

وأبرز مثل للتسامح الديني بين المسلمين والصليبيين نراه في تصرفات الامبراطور فردريك الثاني (١١٩٨ - ١٢٥٠ م) . فلم يشأ الدخول في حرب ضد المسلمين ببلاد الشام ، ولا نستبعد حدوث ذلك من الامبراطور الذي حرص على تشجيع الحياة الثقافية في مملكة صقلية ، ولا عجب في ذلك فقد كان « محبا للحكمة والانطق والطب مائلا الى المسلمين ، لأن منشأه بجزيرة صقلية ، وغالب أهلها مسلمون (٢) . وقد اجمعت المراجع المعاصرة على أن فردريك الثاني تعلم اللغة العربية على يد معلم عربي في صقلية ، وبذلك أصبح بلاطه مركزا لحركة علمية واسعة ، واجتمع فيه عدد كبير من العلماء الغربيين والبيزنطيين ، فضلا عن اليهود الذين اشتغلوا تحت رعايته بترجمة كتب الفلسفة العربية (٣) . وتصرفاته في بلاد الشام كانت خير دليل على شعوره تجاه الاسلام والمسلمين . فقد حرص خلال وجوده في بيت المقدس على زيارة المشاهد الاسلامية ، وعند دخوله ساحة الحرم الشريف في مارس عام ١٢٢٩ م شاءه رجلا من رجال الدين المسيحي ، بيده الانجيل ، يهيم بدخول المسجد الاقصى للتسول من الحجاج ، فغضب الامبراطور ، وبادر الى طرده في قسوة ، واصدر اوامره الا يجتاز أى قسيس مسيحي عتبة الحرم الشريف دون اذن من المسلمين ، سوف يكون جزاؤه الموت (٤) . وبينما كان يطوف بقبة الصخرة ، رأى العبارة التي نقشها صلاح الدين في الفسيفساء حول القبة وهي : « وقد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين » ، فسأل مبتسما : « ومن هم المشركون ؟ » كذلك عندما لاحظ الامبراطور وجود اسياخ على النوافذ ، أخبره بأنها لم تثبت

(١) Ibid. pp. 433—434

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٤١ .

سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثاني ، ص ١٩٨ .

(٣) سعيد عاشور : النهضة الأوروبية ، ص ٢٣ .

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٥٥ - ص ٦٥٦ .

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١٠١٤ ،

Kantorowicz : Frederic the Second. p. 190

الا لآرد العصافير ، فقال : « قد آتى الله اليكم بالخنازير (١) » ، مستخدما بذلك اللفظ الدارج الذى يطلقه المسلمون على المسيحيين ، وكان بحاشيته جماعة من المسلمين منهم معلمه الذى كان يقرأ له المنطق والفلسفة وهو عربى من صقلية ، لآنه لما دخل وقت الظهر ، وأذن المؤذن ، سارع جميع من معه من المسلمين بأداء الصلاة (٢) . ولما اطل الامبراطور البقاء فى القدس ، وحل موعد صلاة الفجر ، لم يسمع صوت المؤذن ، ولما استفسر عن السبب ، قيل له : أن السلطان الكامل الأيوبى أصدر أوامره الى القاضى شمس الدين قاضى نابلس - مرافق الامبراطور خلال الزيارة - بعدم اقامة الآذان طيلة وجود الامبراطور بالمدينة ، « أعظاما للملك واحتراما له » فرد عليه الامبراطور مستاءا أخطاء فيما فعلت ، والله أنه كان آذرن . رضى أن المذنب بالقدس أن اسمع آذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل (٣) ، ومن الممكن اضافة سبب آخر دفع فردريك الثانى الى التقرب من المسلمين والاسلام ، هو كرهه للبابوية والكنيسة الغربية ، تلك الكنيسة التى ناصبت آباءه وأسلافه العداء ، والتى كرسست جهودها لسحق الامبراطورية فى الغرب (٤) . وقد ظهر هذا الشعور واضحا خال وجوده فى الشام ، عندما ناقش مسألة الخلافة مع القاضى شمس الدين وحقيقة مركز الخليفة عند المسلمين ، فأوضح له شمس الدين أن الخلافة العباسية تنحدر اصلا من العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانما لازالت فى عقبه ، وعندئذ اجاب فردريك بأن هذا النظام راثع ، ويفوق - الى حد بعيد - نظام أولئك الحمقى المسيحيين ، فالمسيحيون يختارون البابا زعيمهم الروحى ، الذى لاتربطه ادنى صلة بالمسيح . وهنا تحدث الامبراطور عن النزاع بينه وبين البابا ، واحقيته فى السيادة على البابا ، اذ أنه كان متحررا من روح الحماس الدينى المتطرف السائد فى عصره من جهة ، ومتبينا عادات المسلمين من جهة أخرى ، ولهذا عنفه البابا ولامه (٥) . ومع أن المسلمين أبجوا اهتماما بالامبراطور فردريك ، الا أنه لم يترك فى نفوسهم عميق الاثر ، اذ أن مظهره خيب ظنهم ، فهو بلونه الأشقر ، وقصر النظر فى عينيه (الحول) لايساوى

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٥٦ .

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٥٦ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(٤) سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثانى ، ص ١٩٩ .

(٥) Kantorowicz : op. cit. pp. 192—193

مأثنتى درهماً في سوق الرقيق ، ولكن سلوكه المهذب ورقته قدرهما المسلمون
حق التقدير (١) .

وإذا كانت الحروب الصليبية قد كشفت الستار عن خيبة الصليبيين ،
وفشلهم في انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين ، ليقيموا دولة مسيحية في
قلب العالم الاسلامي ، فإنها رأت اجتذاب المسلمين الى اعتناق الديانة المسيحية
من طريق التفاهم والاقناع ، وبذلك وضعت الحروب الصليبية مبدا الحركة
التبشيرية المسيحية في الشرق . بيد أن تلك الحروب خلقت من بعدها العداوة
والبغضاء ، وانزلت اخطام ماساة بالصدمات بين المسلمين والنصارى في الشرق
الادنى (٢) . انتهى عام ١١٥٤ م أسس راعب صليبي في الارض المقدسة رهبنة
عزمت فيما بعد بالاربابنة الكرملية نسبة الى جبل الكرمل حيث كانت تقييم
وهن ثم انتشر اتباعها في سوريا ولبنان ، واسسوا مركزا لهم في طرابلس ،
ثم تأسس رهبنتين جديدتين عند مستهل القرن الثالث عشر :
الفرنسيسكان والدومينيكان (٣) . وفي عام ١٢١٩ م زار القديس فرنسيس
الاسيسى St. Francis of Assisi مؤسس جماعة الفرنسيسكان
بلاد الايوبيين في مصر . وأجرى مناقشة دينية عقيمة مع الكامل
الايوبي . ثم بعد ذلك نزل على شاطئ عكا ، وجمع حوله مقرا رسميا للرئيس
الفرنسيسكاني العام في المنطقة ، وبعد مدة قصيرة أسست ارسالية تبشيرية
فرنسيسكانية في مدينة طرابلس ، واسس لهم ديرا في بيروت (٤) . وفي
عام ١٢٣٠ م وصلت الى دمشق ارسالية دومينيكانية ، من اتباع القديس
دومينيك St. Dominic ، لتبشير عقيدة العالم الاسلامي ومن
تم تقدمت الى طرابلس وعكا واماكن أخرى حيث أسست لها اديرة ، وقد
كتب أحد اساقفة الدومينيكان وليم الطرابلسي - وهو راعب دومينيكاني
عاش في عكا - عام ١٢٧٠ م ، افضل كتاب ظهر عن الاسلام في العصور

(١) سعيد عاشور : الامبراطور هردريك الثاني ، ص ١٩٩ .

Kantorowicz : op. cit. pp. 192--193

Kantorowicz : op. cit. p. 191

(٢)

(٣) عمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١١٤ - ص ١١٥ .

(٤) فيليب حتى : لبنان في التاريخ ، ص ٣٩٤ - ص ٣٩٥ .

لأوسطى أسماء مقالة في حالة المسلمين ' Tractus de Saracenorum دافع فيه عن النظرة الجديدة برغبته في إرسال بعثات تبشيرية لا جنود لا سترداد الأرض المقدسة . (١) وقد أعطى القديس لوييس دورا جديدا للجهود التبشيرية ، عندما أرسل عام ١٢٥٢ م الراهب الفرنسييسكاني وليم الروبركوي William of Rubruquis الى خان المغول العظيم في آسيا الصغرى . بأمل أن تعتنق الامبراطورية المغولية الجديدة الديانة المسيحية ومن ثم تلتصق على مؤخرة المسلمين ، ويتم استرجاع فلسطين بطريقة سهلة ، ومثله أيضا البابا انوسنت الرابع Innocent IV الذى كـون عام ١٢٥٣ م أول « مجتمع تبشيري » منذ أن سيطر على الغرب الأوروبي - في معظم الأحوال - الراهبة الفرنسييسكانية والراهبة الدومينيكانية . (٢) غير أن الشكل الرئيسى في تطوير سياسة التبشير الصليبية بطريقة تنم عن الاقتناع كانت على يد ريموند ال Raymond Lull فقد كرس حياته لتنظيم العمل التبشيري ولاقى ميتة شهيد أثناء محاولته تنفيذ مشاريعه . وهو أسباني تعلم اللغة العربية وأجادها ، وفي عام ١٢٩٤ م ظفر بمقابلة من البابا كلستين الخامس ، قدم له خطة للتبشير بين المسلمين . تعتمد على أن تتخذ الكنيسة العلم والمدارس وسيلة للتبشير ودرب رفاقه من الرهبان على العمل كأتباع حقيقيين للمسيح ورساله ، وأن تكون اسلحتهم لغزو الوثنى : « الحب والصلوات وافهمار الدموع » ؛ وبعد عشر سنوات من انجاز الاعداد للتبشير بالطريقة السلمية ، بدأ بفشاش لا يعرف الكلل بين القنثار والأرمق فى الشرق وهسلمى شمال افريقية ، ولم ييأس على الرغم من المعوقات التى اعترضت مجهوداته ، وكان يحث الباباوات واللاوك على أن يوجهوا نشاطهم نحو العمل التبشيري . وبفضل جهوده وافق مجمع فيينا عام ١٣١١ م على تأسيس ستة مدارس للغات الشرقية فى أوروبا ، بيد

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٩٤ - ص ٣٩٥ .

C. Med. H. Vol. V p. 325

C. MedK H. Vol. V p. 325

Ibid. Loc. cit.

(٢)

١١١

أن استشهاده في ذلك العام هو الذى وضع حدا لجهوده ، ومن أجل حث الغرب الأوروبى على استعادة الأماكن المقدسة ، بطريق تحويل الوثنيين (المسلمين) الى الديانة المسيحية (١) .

وهكذا ، فإن النشاط التبشيري الذى بدأ كرد فعل للحركة الصليبية ، واستمر خلال العصور الوسطى ، هذا النشاط احرز نجاحا كبيرا بوجه خاص في آسيا حيث كانت البوذية عدوا أقل نشاطا وعداوة مباشرة للمسيحية من المسلمين . وبمعنى آخر لم يفلح النشاط التبشيري في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية لأن أهلها كانوا مسلحين بعقيدة سماوية تمتاز بالتفوق في مثلها وآفاقها . وليس معنى ذلك أن الجهود التبشيرية قد فُشِلَ كله . فمن الحركة الصليبية ، ومن النشاط التبشيري الذى انبثق منها ، ومن كلاهما تعلمت شعوب أوروبا الكثير عن الحركة الصليبية (٢) .

وإذا كانت الحركة الصليبية التى قام بها الغرب الأوروبى قد فشلت بالفشل في جانبها التبشيري . إلا أن النشاط الصليبي عموما له آثار هامة من ناحية ازدياد المحصول الجغرافى . ولا أدل على ازدياد معرفة الأوروبيين بالعالم الخارجى في عصر الحروب الصليبية من كثرة الكتابات التى وضعت في ذلك العصر والتى حوت كثيرا من المعارف عن الشرق . ومن الطبيعى أن يكون وصف الطرق المتعددة بين بيت المقدس والغرب الأوروبى هو المحور الأول لتلك الكتابات ، وبعد ذلك جاء وصف بلاد الشام وبناتها وجبالها وسهولها وخيراتها ، على أنه بالتساع النشاط الصليبي اتسعت دائرة المعرفة الجغرافية ففرى كاتبها مثل جوفانفيل يكتب عن نهر النيل ومناجعه وخصائس مياهه وفيضانه . صحيح أن تلك الكتابات لا تخلو من خرافات . ومع ذلك فإنها ساهمت في معرفة الغرب الأوروبى بمعلومات

(١) عمر فروخ : التبشيري والاستعمار ، ص ٧٧ .

C. Med. II, Vol. V pp. 397-400 ;

(٢)

كان يجهلها (١) . ومما لاشك فيه ان معرفة تجار المدن الايطالية بجغرافية البحر المتوسط خلال الفترة الصليبية ، وظهور خرائط تفصيلية في القرن الثالث عشر مثل خريطة العالم Mappa Mundi لهيرفورد Hereford التي يرجع تاريخها الى عام ١٢٨٠ م ، تتصف بعدم الوضوح ، حتى ان أوروبا تظهر فيها كمتناهة مبهمة لايسبر غورها (٢) . وببداية الحركة التبشيرية ترتب عليها ازدياد محصول المعلومات الجغرافية في الغرب الاوروى ، ذلك لأن المبشرين ارتادوا اماكن مجهولة للاوروبيين ، من ذلك ما رواه لنا وليم الروبركوى مبعوث لويس التاسع للخان العظيم عام ١٢٥٣ م من مغامرات في آسيا الصغرى ، خلال بعثته التبشيرية التي قام بها (٣) . ومن الجدير بالذكر أن المغول ظهروا بمظهر عدائى للإسلام ، في الوقت الذى لم يبدا منهم قط عدا للامسيحية ، وكانت أوروبا في القرن الثالث عشر تمنى نفسها جديا بأن تحولهم الى المسيحية ، وليس من شك فى أن المبشرين الذين أرسلوا اليهم لم يصادفوا سوى قدرا ضئيلا من النجاح لتحقيق اطماعهم الدينية ، بيد أن الحملات التي عقدها مع أهل البلاد كان لها الفضل فى افتتاح طرق جديدة الى آسيا ، فتسارع الناس الى تلك البلاد الواسعة التي تكاد أن تكون مجهولة (٤) . وفى عام ١٢٧١ م بدا ماركو بولو رحلته الشهيرة فى آسيا ، فمر بابل ووصل وبغداد وخراسان حتى وصل الى بلاط خان المغول ، وهناك بعث

(١) C. Med. H. Vol. V pp. 326—327 & (١)

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٢٧٩ - ص ١٢٨٠

C. Med. H. Vol. V. p. 327 (٢)

Archer : op. cit. p. 442 (٣)

C. Med. H. Vol. V p. 327

(٤) شارل ديل : البندقية ، ص ٦٢ - ص ٦٣ .

كان ماركو بولو أول الاوروبيين الذين توغلوا فى بلاد الصين ولؤلؤه « كتاب العجائب » الذى قص فيه أخبار رحلته التي استغرقت أربعة وعشرين عاما (١٢٧١ - ١٢٩٥ م) عبر آسيا كلها ، وكان لماركو بولو عناية بما يشاهد وروح قوية للملاحظة لا يفوتها تفصيل ما . فسرده فى كتابه جميع الاحوال التي شاهدها وجميع البلاد من شرطاىء آسيا الصغرى الى قلب الصين ، ومن بلاد المغول واليابان الى سيام وكشمير وبنغال و« ديال » بلاد الهند وفارس .

به الخان الى بعض البلدان الآسيوية مثل بورما والصين والهند وغيرها ، وفي النهاية عاد ماركو بولو الى بلده البندقية عن طريق سومطرة والهند وفارس ، فوصل البندقية عام ١٢٩٥ م حيث كتب رحلته التي ضمنها كثيرا من مشاهداته ومغامراته (١) . ومن المؤكد أن كتابات ماركو بولو قد بدأت في الانتشار الواسع في الغرب الأوروبي ابتداء من القرن الرابع عشر ، الامر الذي أثار ادراكا بالغا عند الغربيين بالقارة الآسيوية ، ومهما قيل عن أن المعارف التي أتت بها ماركو بولو ورفاقه ، لا يمكن أخذها بعين الاعتبار كثمرة مباشرة للحركة الصليبية ، لأن الاخوة بولو كانوا تجارا وليسوا صليبيين ، فانها في الحقيقة هي التي أسرت خيال وانتباه أوروبا ، كما ان اتساع دائرة النشاط التجاري في ذلك العصر وحب الاستطلاع كان احدي الثمار المباشرة للحركة الصليبية (٢) . وعلى أية حال فقد قدم لنا ماركو بولو مثالا بديعا لروح الرجل البندقي ، اذ لم يكن بد من شجاعة فائقة ليلقى الانسان بنفسه - كما فعل ماركو بولو - في هذه المغامرة ، مخترقا اقليما واسعا مجهولا ، ولكن ماركو بولو كان مزودا في مغامرته بجميع صفات شعبه الباهرة ، فقد كان ذكيا شجاعا حاذقا وحكيما معا ، جمع الى روحه العلمية الواسعة حاسة مرهفة للملاحظة (٣) .

وعلى أية حال ، فالمعرفة الجغرافية كانت منحة في الغرب الأوروبي منذ أيام بطليموس ، وبالحملة الصليبية الاولى بدأت حقبة جديدة ، فاتسعت معرفة الرجال بالشرق ، والبلاد ، والبحار ؛ ووصلت معرفتهم الى ابعد نقطة في الحدود الشرقية والجنوبية لقارة آسيا ، وأولئك الرحالة اول من جعلوا المعرفة الحقيقية بالشرق الاقصى شائعة في أوروبا ، وبفضلهم بدأت المعرفة الجغرافية في التقدم (٤) .

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٨٠ - ص ١٢٨١ .

(٢) C. Med. H. Vol. V p. 327

(٣) شارل ديبل : البندقية ، ص ٦٢ .

(٤) Archer : op. cit. pp. 440-443

وأخيرا فإن الحروب الصليبية امتدت الغرب الاوروبى بمادة غزيرة للخيال ، فالصليبي بدون شك يعتبر الوجه البطولى لاوروبا العصور الوسطى ؛ وكانت الرحلة الى الاراضى المقدسة فرصة طيبة للشباب الاوروبى أن يرى العالم على حقيقته ، بعيدا عن القيود المصنية فى وطنه من ناحية ، والمجتمع التقليدى الذى عاش فى اساره من ناحية أخرى . كما تعلم الحجاج الصليبيون من الحروب الصليبية درسا كبيرا من رؤية الحياة على حقيقتها فليست الحياة كما كانت تصوره لهم التقاليد الدينية المسيحية ، فضلا عن أنهم أدركوا أن أوروبا والمسيحية ليساهما المحور الذى يدور حوله العالم فقط (١) . لقد وجدوا رجالا نشيطين ، متدينين ، غير وثنيين ، شرفاء ، شجعان ، لا يقلون انسانية عنهم ؛ ومن المستحيل أن يذهب مثل ذلك النوع من الدرس هباء ، اذ انها حولت افكار الرجال فى القرن الثانى عشر الى الانسانية العامة ، والى تصور جديد للجمال والحق (٢) .

* * *

ثانيا - التفاعل الاجتماعي

لم تكن الحروب الصليبية مجرد معارك دموية متصلة كما يتضح لنا من اسمها ، وإنما تخللتها علاقات انسانية عديدة نبقت في أوقات السلم ، وأوقات السلم هذه كانت أطول من فترات الحروب ، وأعطت الفرصة للتدخل والاختلاط الاجتماعي بين الفريقين .

ومن الملاحظ أن الصليبيين بعد انقضاء الجيل الأول منهم ، الذي عاصر بلدوين وجوسلين الأول (ت ١١٣١ م) ، نسوا تعصبهم الديني الأعمى ، ولم يسعوا إلا إلى المحافظة على ما بأيديهم من أراض وأموال . صحيح أن العدواة السياسية ظلت قائمة بين المسلمين والصليبيين ، غير أن العلاقات الودية استمرت أيضا بينهما ؛ ومن المحتمل أن أوربان الثاني كان سيفتاقبه الفزع ، لو علم أنه خلال جيل واحد عقب الاستيلاء على بيت المقدس ، سيتنقل التجار المسلمون في حرية خلال الأياكن الواقعة تحت سيطرة الفرنجة (١) . أما جموع الصليبيين الذين كانوا يفدون من الغرب الأوربي ، فكانوا أشد الناس غلظة ، جفاة ، اتصفوا بالتعصب الديني ؛ وقد فطن أسامة بن منقذ إلى هذه الحقيقة فقال : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الفرنجية أجنى أخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين (٢) » . ودلل أسامة على رايه بقصة طريفة ، فيروى أنه اعتاد أن يصلي في المسجد الأقصى ، وقد صار بيد الداوية بصفتهم أصحابائه ، وانهم كانوا يخلون له المسجد الصغير ليصلي فيه ؛ ولكن حدث ذات يوم أن دخل أسامة المسجد الأقصى للصلاة كعادته ، فلم يكذب يقف ويكبر ، حتى هجم عليه أحد الفرنجة ورد وجهه إلى الشرق وقال له : « كذا صل ! » ولكن بعض الداوية أبعدوا ذلك الفرنجي عن أسامة ، وعاد إلى الصلاة ، وعندما عاود الفرنجي فعلته أخرجه الداوية من المسجد ،

Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 324

(١)

(٢) الاعتبار ، ص ١٢٤ .

٢٤٣

واعتذروا اليه وقالوا له : « هذا غريب وصل من بلاد الفرنج في هذه الأيام ، وما رأى من يصلى الى غير الشرق (١) » .

على أن العلاقات الودية التي ربطت بين المسلمين ، خلقت حياة اجتماعية بين الفريقين ، هي في الواقع مزيجا من الحياتين الشرقية للإسلامية والغربية الصليبية ، تداخلت أحدهما في الأخرى ، وأثرت كل واحدة منهما في الأخرى . فلا غرابة أن يكتسب العديد من الصليبيين الذوق الشرقي في الأطعمة والأشربة والزي الشرقي تشبها بالمسلمين .

والواقع أن النبلاء والأمراء وكبار السادة الاقطاعيين ، كانوا في حياتهم - فيما عدا التجارة والحرب - أميل للدعة والتراخي ، دفعهم الى ذلك جو دافئ ، وفراغ كبير ، وإيثار للراحة ، وتوفير ضرورات الحياة وكمالياتها ؛ ومن ثم سكنوا القصور الفخمة على الطراز السوري ، التي تألفت في العادة من طابقين في وسطها من الداخل نافورة تتدفق فيها المياه ، كسيت نوافذها بالزجاج الملون ، وحليت أرضها بالموزايكو (٢) . وأضحى من وسائل تسلية كبار الصليبيين استخدام الفتيات الراقصات ، والولع بصيد الطيور ؛ حتى في جنازتهم عملوا على استخدام النائحات (الندابات) المحترفات (٣) .

واقبلوا عن لباسهم الأوروبي ، وتعلقوا بالآزياء والملابس الشرقية التي كانت أدعى الى الراحة ، فاذا لم يكن الفارس في عدته وسلاحه ارتدى برنسا من الحرير ، فوق درعه سترزة من الكتان لوقاية الزرد من حرارة الشمس ، كما

(١) الاعتبار ، ص ١٣٤ - ص ١٢٥ .

Small : Crusading Warfare.p . 43 (٢)

Longnon : Les Français d'Outre-Mer en Moyen-Age.
pp. 114—115

حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ١٥٣ - ص ١٥٤ .

Small : op. cit. p. 43 (٣)

لويس شيخو : بيروت تاريخها وأثارها ، ص ٧٠ .

جعل على خوذته كوفية على نحو ما يفعل العرب (١) . واقبل الصليبيون على الاقمشة الموصلية والبغدادية والدمشقية والشرقية والبسط والسجاد ، واخذوا عن العرب اطالة الملابس وتحليتها بالجواهر حسب مكانة المرء في قومه واختلاف المراتب ، واطلق البعض منهم لحاء تشبها بالشرقيين ، واستعمل النعال التي يستعملها المسلمون في بيوتهم ، حتى أن بلـدوين ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨ م) ، استبدل ثيابه الغربية بأخرى شرقية ، وأرسل لحيته ، وتناول طعامه على بساط متربعا على الأرض على الطريقة الشرقية ، وبلغ الامر بتانكرد صاحب انطاكية (ت ١١١٢ م) أن سك النقود وعليها صورته في زى عربى (٢) . كما أن الصعوبات التي احاطت بهنرى دى شامبني ملك بيت المقدس ، جعلته يحرص على كسب ود صلاح الدين ، فأرسل اليه « يستعطفه ويستميله ويطلب منه خلعه » ، وقال له : « أنت تعلم أن لبس القبا والشربوس عندنا عيب ، وأنا البسهما منك محبة » ، وكان أن أرسل اليه صلاح الدين خلبة سنية منها القبا والشربوش ، ففرح بهما الملك الصليبي وارتداهما في عكا (٣) . أما السيدات الصليبيات فاتبعن الزى الشرقي التقليدي ، وارتدت الواحدة منهن قميص مرسل طويل الى القدمين ، وسترة قصيرة أو رداء بكمين ، وكلها موشاة بخيوط الذهب ، وأحيانا الجواهر ، وفي الشتاء ارتدت المرأة الصليبية الفراء مثلما يفعل زوجها ، وضربت الخمار على وجهها ، وإذا خرجت من الدار اتخذت الحجاب ، شأن النساء المسلمات المحتشمات (٤) .

وترتب على طول اقامة الصليبيين بالشام ومجاورتهم للمسلمين اكتسابهم الكثير من الذوق الشرقي والاطعمة والاشربة ، لاسيما مايتعلق بالسكر

(١) رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٠٩ .

(٢) جروينباوم : حضارة الاسلام ، ص ٨٢ .

نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٧٠ - ص ١٧٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٨ هـ .

(٤) رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٠٩ .

نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٧٢ .

والتوابل . ولقد اشرنا من قبل الى أن الفرنجة عرفوا السكر لأول مرة في حياتهم في بلاد الشام ، ليحل محل عسل النحل الذي لم تعرف أوروبا وسيلة غيره لتحلية الطعام وعمل الحلوى . وصارت القهوة العربية شراب الكثيرين . وثمة قصة يرويها أسامة بن منقذ نستشف منها التحول في ذوق الصليبيين في ناحية المأكول والمشرب ، وخالصة تلك القصة أن احد اصحابه ذهب الى مدينة أنطاكية الصليبية ، فنزل في بيت احد الفرسان الصليبيين الاوائل ، الذين أتوا ضمن الافواج الصليبية الأولى ، ثم أعفى من الخدمة العسكرية ، وصار له ملك يتعيش منه . وعندما نزل صديق أسامة ضيفا على الفارس الصليبي ، أحضر له الاخير « مائدة حسنة وطعاما في غاية النظافة والجودة » . ولكن صديق أسامة امتنع عن الأكل ، وعندئذ قال له الفارس الصليبي : « كل طيب النفس ، فأنا ما آكل من طعام الافرنج ، ولى طبابخات مصريات ما آكل الا من طبخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير (١) » .

ويرى البعض أن الفرنجة كان من المحتم عليهم أن يحاولوا المواءمة مع البيئة الجديدة ، فلم يكن بوسعهم ان يتجنبوا الاتصال بجيرانهم ورعاياهم المسلمين ؛ وبالإضافة الى ذلك ينبغي تقدير حالة المناخ ببلاد الشام ، فالشتاء في فلسطين والشام قارس البرودة ، ويكاد يضارع في برودته اللاذعة ما هو مألوف في الغرب الأوروبي ، غير أنه قصير الأمد . أما الصيف ، فقد تميز بالطول وشدة الحرارة ، الأمر الذي يناقض الصيف في أوروبا ، لذلك لم يلبث الفرنجة أن اتخذوا ما هو بعيد عن طباعهم وعاداتهم في الغرب الأوروبي من الملابس والاطعمة والساعات التي يلزمون فيها دورهم (٢) .

ومن العادات التي أعجب بها الفرنجة ببلاد الشام الاستحمام في الحمامات العربية ، فتأثروا بها ، والمعروف أن وظيفة الحمام في مجتمع العصور الوسطى لم تقتصر على الاستحمام ، بل امتدت الى الحلاقة وإزالة الشعر من الجسد ،

(١) الاعتبار ، ص ١٤٠ .

(٢) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٥٠٩ .

وهي العملية التي قام بها الحلاق بالنسبة للرجال والبلانسة بالنسبة للنساء (١) . وقد اتخذت الحمامات أيضا نواد يجتمع فيها المستحمون لتناول المشروبات الساخنة ولتجاذب الاحاديث ، في جو شرقي معبق بالدفء وأنواع الطيب ، بل لانغالى اذا قلنا أن كثيرا من المشكلات والصفقات قد تحل وتبرم في هذه الحمامات (٢) . ولم يلبث أن أدى اعجاب الصليبيين بالحمامات الى ترددهم عليها لنظافة الجسد ، بل ان البعض منهم كان لا يرى غضاضة في الحضر امرأته معه الى الحمام ، وأن يطلب من الحلاق العربي في الحمام ازالة شعرها (٣) . وعندما أتى جوافيل الى الاراضى المقدسة صحبة سيده لويس ، أخبره تابعه أنه تمكن من ايجاد منزل يأوى اليه قريب من الحمامات . حيث يستطيع ازالة ما علق به من الاوساخ ، وما تراكم من العرق أثناء وجوده في الأسر ، ولما أقبل الليل دخل جوافيل الحمام ، ولكن اعتراه هبوط في القلب واغما ، فأخذه في مشقة كبيرة من الحمام وسجوه في فراشه (٤) . والعجيب في أمر الصليبيين ، انهم كانوا ينكرون شد المئزر على الوسط في الحمام ، وبذلك أمكن التمييز بين المسلمين والصليبيين من مرتادى الحمامات ، وثمة قصة طريفة يرويها أسامة بن منقذ ، فحواها أنه كان عندهم رجل حمامى يقال له سالم من أهل المعرة في حمام لوالده ، وقد روى هذا الحمامى لأسامة قائلا : « فتحت حماما في المعرة اتعيش فيها » فدخل اليها فارس (صليبي) منهم ، وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام ، فمد يده فجذب مئزرى من وسطى رماه (٥) » .

ومن النواحي الطريفة التي تمثل الحياة الاجتماعية عند الفرنجة في بلاد

-
- (١) سعيد عاشور : أضواء على الحروب الصليبية ، ص ١٠٨ .
 - (٢) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ١٥٤ .
 - (٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٦ - ص ١٣٧ .
 - (٤) حسن حبشى : القديس لويس (مذكرات جوافيل) ، ص ١٨٦ .
 - (٥) الاعتبار ، ص ١٣٦ .

الشام حفلات الزواج عندهم ، ويدعى اليها المسلمون والمسيحيون على السواء ، ويختلط فيها الرجال بالنساء (١) . وقد حضر ابن جبير (٢) . إحدى هذه الحفلات بمدينة صور ، فترك لنا وصفا دقيقا عنها ، فقد ذكر ان الرجال والنساء قد اصطفوا صفيين عند باب العروس ، وراحت الأبواق والمزامير وجميع آلات اللهو تضرب بين يديها ، حتى خرجت بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، والعروس في أبهى زى وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب ، وعلى رأسها عصابة من ذهب ، قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، ومثلها على لبتها ، وهى رافلة في حليها وحللها ، تمشى مشى الحمامة ، وامامها نجلة من رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم ، ووراءها اكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في انفس الملابس ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهن ، ولاينكرون عليهم ذلك ، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها ، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة . وقد قاذى شعور ابن جبير من رؤية النساء في اختلاط مع الرجال ، واستعاذ بالله من ذلك .

وإذا كان الرحالة ابن جبير قد استنكر اختلاط الرجال مع النساء ، فان الغيورين على الدين الاسلامى استنكروه ايضا ، ورأوا فيه بعدا عن تقاليد المسلمين ، وانحرافا عن الشريعة الاسلامية . ولهذا دهش المسلمون عندما رأوا العادات الصليبية التى خالفت تقاليدهم . من تلك العادات حرية الاختلاط التى رآها اسامة بن منقذ فى اوساطهم ، ورأى فيها فظاعة لم يألها المسلمون ، وصاروا فى نظره « وما فيهم غيره ولا نخوة (٢) » ، وليست لديهم غيره جنسية ولا يشعر الرجل منهم بالغيرة على امراته ، ولا يحرص على الا ينفرد بها سواء ، يكون الرجل منهم (الفرنجة) يمشى هو وامراته يلقاه رجل آخر ، يأخذ

(١) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٦١ .

(٢) الرحلة ، ص ٢٧٨ - ص ٢٧٩ .

(٣) الاعتبار ، ص ١٣٧ .

المرأة ويعتزل بها ، ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث . فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى (١) ، ويروى أسامة بن منقذ قصة أخرى طريفة عن عدم الغيرة عند الرجل الصليبي ، وهي تبعث على الدهشة . وخلاصتها ان احد الصليبيين دخل بيته ، « ووجد رجلا مع امرأته في الفراش ، فقال له : أى شئ أدخلك الى عند امرأتى ؟ » ، قال : «كنت تعبان ودخلت استريح » . قال : « فكيف دخلت الى فراشى ؟ » قال : « وجدت فراشا مفروشا فيه » . قال : « والمرأة نائمة معك ؟ » قال : « الفراش لها » . فهل كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ » . وقال : « وحق دينى ، ان عدت فعلت كذا تخاصمت انا وانت » ، ويعلق أسامة على موقف الزوج قائلا : « فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته (٢) » .

وعلاقات المودة بين المسلمين والصليبيين فى اوقات السلم ، أدت الى نشوء صداقات بين رجال من الفرنجة وآخرين من المسلمين ، فهم فى السلم « اخوة » ، حتى لنرى رجالا من الفريقين ينادى كل منهما صاحبه « يا أخى » ، وذلك لتمكن صلات المودة والمحبة بينهما . ونستدل على ذلك من قصة الصداقة التى قامت بين أسامة بن منقذ واحد الفرسان الصليبيين ، وفى هذا يقول : « كان فى عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم افرنجى ، قد وصل من بلادهم يحج ويعود . فأنس بى وصار ملازمنى يدعونى أخى ، وبيننا المودة والمعاشرة فلما تزم على التوجه فى البحر الى بلاده قال لى : يا أخى انا سائر الى بلادى واريد أن تنفذ معى ابنك ، (وكان ابنى معى وهو ابن اربع عشرة) الى بلادى ببصر الفرسان ، ويتعلم العقل والفروسية (٣) . ولكن أسامة أجاب بلباقة ولطف أن جدته شديدة الكلف به ، فلا يستطيع - لهذا السبب - ان يلبنى طلب صديقه الفارس ؛ ولم يتمالك فى نفسه عن ابداء دهشته من هذا الطلب . اذ كيف يعقل أن يطلب نصرانى مثل هذا الطلب من رجل مسلم (٤) » .

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢٥ .

(٢) الاعتبار ، ص ١٣٦ .

(٣) الاعتبار ، ص ١٣٢ .

(٤) نفس المكان .

ومن المدهش أن علاقات المودة بين الفريقين الاسلامي والصليبي ، لم تتم في اوقات السلم فقط ، ولكنها حدثت في أشد أوقات الصراع الدموي بينهما . فاذا حدث أن وقف الجيشان وجها لوجه مدة طويلة ، ولم تسفر المواجهة عن نتيجة ما ، سئم الرجال القتال وتبادلوا الفكاهة والطرف ، الى أن يعود القتال من جديد . من ذلك ما رواه ابن شداد (١) عندما طال القتال أمام عكا عام ١١٩٠ م « أنس البعض بالبعض بحيث أن كانت الطائفتان (المسلمون والصليبيون) تتحدثان وتتركان القتال ، وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ، ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة » . وفي يوم سئم الفريقان من القتال ، فقالوا : الى كم يتقاتل الكبار ، وليس للصغار حظ ، نريد أن يصطرع صبيان : صبي منا وصبي منكم ، فأخرج صبيان من البلد (المسلمين) الى صبيين من الافرنج ، واشتد الحرب بين الصبيان ، فوثب أحد الصليبيين المسلمين الى أحد الصليبيين الكافرين (الصليبيين) ، فاخطفه وضرب به الأرض وقبضه أسيرا ، واشتد به لياخذه فاشتراه بعض الافرنج بدينارين ، وقالوا : « هذا اسيرك حقا ، فاخذ الدينارين وأطلقه ، وهذه من نوادر القتال (٢) » . وشتان بين تلك الروح التي سادت العلاقات بين المسلمين والصليبيين في نهاية القرن الثاني عشر ، وبين ما كان عليه الوضع عند مجيء الحملة الصليبية الاولى في نهاية القرن الحادي عشر (٣) . ومن الومضات الانسانية التي تخللت القتال بين المسلمين والصليبيين ، ما حدث عندما عسكر السلطان صلاح الدين الأيوبي بجنوده أمام أسوار حصن الكرك في نوفمبر عام ١١٨٣ م ، فقد تصادف الاحتفال بعقد قران داخل الحصن ، وبينما تعرضت أسوار الحصن للقذف بالحجارة ، استمر الاحتفال قائما ، فلم يقطع الرقص والغناء ، بل حدث أن أعدت ام العريس صحونا من طعام العرس ، وبعثته

(١) للنوادر السلطانية ، ص ١٠٨

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٠٨ - ص ١٠٩ .

ابوشامه : الروضتين ، ج ٢ ص ١٤٣ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٥٩ .

بها الى صلاح الدين . وفي مقابل ذلك التصرف ارسل صلاح الدين يسال بأى الابراج ينزل العروسان ، ثم اصدر اوامره بالا يتعرض هذا البرج للقفز من أدوات الحصار ، وفيما عدا ذلك لم يخفف صلاح الدين جهوده الحربية (١) .

وثمة مشروع زواج كان سيعمل على تنويع علاقات التحالف والمودة بين المسلمين والصليبيين ، ذلك المشروع هو زواج الملك العادل سيف الدين أبى بكر الأيوبي أخى صلاح الدين ، بالاميرة الانجليزية جوانا أخت ريتشارد قلب الأسد . ففى الوقت الذى فتح فيه ريتشارد باب المفاوضات مع صلاح الدين ، اناب الاخير اخاه الملك العادل فى مفاوضة ريتشارد ، وقد تعثرت تلك المفاوضات بسبب تمسك ريتشارد على ارجاع مملكة بيت المقدس الى ما كانت عليه قبل موقعة حطين (٢) . وليس ابلغ من اجابة صلاح الدين على ذلك بقوله « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا اعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا تتصور ان ننزل عنه ، ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين (٢) » . ولم يقنط ريتشارد من تمسك صلاح الدين وصلابة راية ، رغم ان فكرة تحقيق السلام بالطرق الدبلوماسية جديدة على العصور الوسطى ، والجديد دائما يتطلب الصبر والحكمة ، ومعالجة الموضوع من زوايا أخرى وبطريقة جديدة ، ويكون عمل العاطفة فيها أقوى من العقل (٤) . فأنفذ ريتشارد رسوله الى الملك العادل يوم الاثنين ٢٠ اكتوبر عام ١١٩١ م (٢٩ رمضان ٥٨٧ هـ) يقترح عليه زواجه من أخت ريتشارد ، أرمل وليم الثانى ملك صقلية ، على شرط ان يكون القدس وما مع المسلمين للعادل ، وعكا وما مع الصليبيين لجوانا . وأيضا على شرط ان يحكم العادل البلاد وتقيم زوجته جوانا فى القدس ، وبصحبتها القسوس والرهبان فقط ، وأن يرضى

(١) رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧١١ - ص ٧١٢

(٢) سعي ، عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٤٤ - ص ٢٤٥ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٨٢ - ص ١٨٣ .

(٤) منظور سعداوى : الحرب والسلام ، ص ٣٨ - ص ٣٩ .

العادل قادة الصليبيين الشرقيين وهيئتي الداوية والاسبتارية ببعض القرى (١) . ومن الطريف أن الملك العادل رحب بذلك الحل ترحيبا كبيرا ، « ورأى في ذلك عين الصواب » ، وشاور أخاه السلطان صلاح الدين ، فوافقه وقبل الفكرة ورحب بها (٢) . ولم تلبث أن ظهرت العقبة الكأداء في سبيل تنفيذ هذا المشروع ، ولكنها لم تأت من جانب صلاح الدين أو ريتشارد قلب الأسد وإنما أتت من جانب الاميرة جوانا التي أثبت أن « تمكن سلما من غشيانها » كذلك طلب ريتشارد من الملك العادل أن يعلن اعتناقه للديانة المسيحية (٣) . ويروى أبو شامة (٤) أن بعض الفرنجة خوفوا أخت ريتشارد من عاقبة الزواج من العادل ، وعنفوها وقالوا لها مامعناه : « هذه فضيحة فظيعة ، وسبة شنيعة ، وقطع على النصرانية وقطيعة ، وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة » ، وعندئذ عرف العادل أنها خديعة وصرف النظر عن الموضوع . ويرى لين بول أنه ليس ثمة شك في أن مشروع زواج العادل من جوانا ، يرجع الى عامل الصداقة الحميمة المتبادلة بين ريتشارد والعادل (٥) . وليس أدل على الصداقة المتبادلة بين العادل وريتشارد ، أنهما كانا يجتمعان ، ويتجاريان حديث الصلح ، وفي إحدى المرات طلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين ، فأحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له ، فاستحسن ذلك (٦) . وعلى أية حال ، فإن فكرة زواج العادل من الاميرة الانجليزية فكرة طريقة وجديرة بالذكر ، فهي توضح مدى تطور العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، وتدل أيضا على التقارب السياسى والحضارى والفكرى بين المسلمين والصليبيين في الشام من جهة ، وروح التسامح التي أخذت تسود في بعض تصرفات الفريقين من جهة أخرى (٧) .

-
- (١) ابن شداد : النوادر ، ص ١٩٥ .
 - ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ .
 - (٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .
 - (٣) ابن شداد : النوادر ، ص ١٩٦ .
 - (٤) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .
 - (٥) Lane-Poole : Saladin. pp. 329—330
 - (٦) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ .
 - (٧) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٥٢ — ص ٢٥٣ .

وقد وجد المسلمون أن أساليب الصليبيين في معاقبة المجرمين والمذنبين بدائية ، وذلك إذا قورنت باقامة الحدود عند المسلمين طبقا للشريعة الاسلامية أو اللجوء الى احكام القضاء ، اذا ظهر نزاع أو خلاف بين اثنين على موضوع ما . من ذلك ان اسامة بن منقذ زار نابلس ، واسترعى نظره محاكمة فرنجية ، كان سببها أن حرامية (١) من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس ، فالقيت التهمة على رجل من الفلاحين ، فما كان منه الا أن لاذ بالفرار ، فأمر الملك فولك (١١٣١ - ١١٤٢ م) بالقبض على أولاده ، فعاد الرجل وقال للملك : « انصفنى أنا أبارز الذى قال عنى انى دللت الحرامية على القرية (٢) » . وعلى ذلك امر الملك صاحب القرية المقطع أن يحضر من يبارز هذا الرجل ، وحرصا من السيد الاقطاعى على فلاحيه خشية أن يقتل منهم واحد مما يؤدى الى خراب فلاحته ، استدعى حدادا شابا قويا ، ليبارز الرجل الآخر وهو شيخ ولكنه قوى النفس ، وتضارب الاثنان ، حتى شعر الشيخ بالاعياء ، فوقع ، فبرك عليه الحداد يداخل اصابعه فى عينيه ، ولا يتمكن من كثرة الدم فى عينيه ، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله . ويعلق أسامة على طريقة المحاكمة قائلا : « وهذا من جملة فقهم وحكمهم » (٣) . واذا كان من عادتهم المبارزة للفصل فى من هو على حق ، فقد كان من عادتهم رمى المتهم فى الماء للفصل فيما اذا كان مذنبا أو بريئا . فيروى اسامة قصة سمعها فى نابلس عن شاب كانت أمه مزوجة لرجل افرنجى ، فقتلته . فاتهموه بالقتل وأجروا له محاكمة . فأتوا ببتية عظيمة وملاوها ماء ، وكتفوا المتهم وربطوا حبلا فى كتفيه ثم رموه فى البتية (٤) وكان فى رأيهم اذا كان المتهم بريئا غاص فى الماء وبذلك يرفعوه بالحبل حتى لا يموت فى الماء ، وان كان مذنبا لا يغوص فى الماء ، ولهذا حرص الشاب على أن يغوص عندما رموه فى الماء ، ولكنه لم يستطع ، ومن ثم ثبتت عليه التهمة . ووجب الحكم عليه ، فكلوه (٥) .

(١) انظر ص ١٧٠ .

(٢) الاعتبار ، ص ١٣٨ .

(٣) الاعتبار ، ص ١٣٨ - ص ١٣٩ .

(٤) الاعتبار ، ص ١٣٩ .

(٥) الاعتبار ، ص ١٣٩ - ص ١٤٠ .

وعلى عصر الحروب الصليبية ، اتضح جلية المواقف البطولية والانسانية والاخلاقية لتصرفات الحكام المسلمين . فاذا كانت الفروسية سواء كانت عربية أو غربية ، تتضمن الشجاعة والاتيان باعمال البطولة والكرم والسماحة والعفو عند المقدرة واحترام المرأة والوفاء بالعهد وحماية الضعفاء ، وهذه كلها صفات خلقية نبيلة ، فثمة فوارق واضحة بين تصرفات حكام المسلمين والحكام الصليبيين .

ويفخر التاريخ العربى والاسلامى بصلاح الدين الايوبى ، بوصفه الشخصية البارزة فى تاريخ الحروب الصليبية ، والبطل الذى لم يتوان فى العمل من أجل تحرير بيت المقدس من ربة الصليبيين ؛ كذلك يفخر الاوروبيون بشخصية ريتشارد قلب الاسد ، ويرسمون هالة حوله ، بصفته البطل الذى اتى من الغرب الاوروبى ليقضى بضع سنوات فى ارض الشام ، اظهر فيها من الجلد والمثابرة فى محاربة المسلمين ما لم يظهره ملك آخر من ملوك الغرب الاوروبى الذين اسهموا فى الحركة الصليبية (١) .

والواقع ان ما قام به ريتشارد قلب الاسد من أعمال فى بلاد الشام ، وما كان بينه وبين صلاح الدين الايوبى من علاقات حربية وعلاقات سلمية ، انما جذبت انظار المعاصرين وغير المعاصرين من المؤرخين . وقد زخرت كتب التاريخ بما تحويه من مقارنة شيقة بين فروسية الشرق ممثلة فى صلاح الدين ، وفروسية الغرب ممثلة فى ريتشارد قلب الاسد (٢) . ويظهر التناقض واضحاً بين تصرفات صلاح الدين وريتشارد ، فى العمل الذى قام به الأخير عندما دخل عكا عام ١٢٩١ م ، فقد نسى شروط الامان التى منحها لحاميتها المسلمة ، ورمى بشروط الاتفاقية التى عقدها مع المسلمين عرض الحائط ، فقبض على من بداخل عكا من المسلمين « وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم » . وساقهم الى تل قريب حيث « قتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف » ، واخوانهم

(١) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٣٩ .

(٢) سعيد عاشور : أضواء على الحروب الصليبية ، ص ٨٣ .

المسلمون عن بعد يشاهدون رقابهم تتساقط ولا يدرون ماذا يفعلون لبعدهم عنهم (١) . وقد وصف جروسيه هذا العمل بالبربرية التي لم يسمع بمثلها ، اذ أن ريتشارد ارتكب ما ارتكبه في رباطة جأش ، وشعور متمالك (٢) . ولا شك أن سلوك ريتشارد يتناقض مع سلوك صلاح الدين عندما سقطت مدينة بيت المقدس في أيدي المسلمين ، فقد أمر صلاح الدين ألا يتعرض دار من الدور للنهب ، ولا يحل مكروه باحد ، وكلف رجاله للطواف بشوارع المدينة لمنع أي اعتداء يقع على المسيحيين (٣) . وفوق ذلك أظهر صلاح الدين من الرحمة والشفقة الزائدة عن الحدود ، وأحسن إلى الفقراء والارامل وأيتام القتلى ، واعتنى بالمرضى والعاجزين من الصليبيين ، أما الذين خرجوا من بيت المقدس من الصليبيين ، فقد اضحوا في حالة يرثى لها من الارهاق والعذاب ، يلتمسون المعونة والمساعدة من الحكام الفرنجة ، ولكن الاخيرين كانوا يطردونهم ، ويوصدون الابواب في وجوههم (٤) .

والتناقض واضح بين ريتشارد وصلاح الدين ، فالاول تميز باخلافه المتقلبة ، وطباعه الحادة ، والشجاعة ، أما صلاح الدين الذي يعتبر علما من اعلام التاريخ الاسلامي ، فقد تميز بالشجاعة والأمانة والعدل والفروسية النبيلة ، وكان ندا مناسبا لخصمه ريتشارد ، خافه الفرنجة واحترموه في نفس الوقت (٥) .

وقد لاحظ ولیم الصوري أنه كلما ازداد صلاح الدين قوة ، اشتدت عدوانته وخصومته للصليبيين ، الامر الذي أدى الى اثاره الرعب بينهم ؛ واذا استشير كان حكيما ، شجاعا في الحروب اذا نهض لها ، بالغ السخاء اذا اعطى (٦) .

-
- (١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .
 Grousset : op. cit. Vol. III p. 61 (٢)
 رنسيان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٥٢ .
 Grant : The History of Europe. Part II p. 534 (٣)
 Thompson : The Middle Ages. p. 582 (٤)
 William of Tyre : History of the Deeds. Vol. 11 (٥)
 pp. 407—408 (٦)

وليس ابلغ من الدرس الذى تعلمه ريتشارد من صلاح الدين ، عندما أوفد الاول رسولا يحمل رسالة الى صلاح الدين يطلب الاجتماع به ، فرد عليه صلاح الدين بقوله : « ان الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ، ولا يحسن فيهم الحرب بعد الاجتماع والمواكلة (١) » . ويبدو ان صلاح الدين رأى أن هدف ريتشارد من الاجتماع هو المراوغة والمماطلة ، والحصول على مكاسب من المسلمين ، أما الاجتماع فى نظر صلاح الدين فمعناه التفاهم بأسلوب واضح صريح من أجل عقد سلام بينهما قائم على الحق والعدل ، بالإضافة الى جمع شمل المسلمين . ولذلك أثر صلاح الدين أن يكون أخيه العادل وسيطا بينهما . ينقل وجهة نظر كل منهما الى الآخر . صلاح الدين بطبعه كان رجل سلام وحضارة ، ولو أنه كان ملكا فى غير تلك العصور ، لكان كامامون وأمثلة ، ولكنه اضطر بحكم عصره أن يجعل حياته للكفاح والفضال (٢) .

ولا أدل على نبل اخلاق صلاح الدين وسعة كرمه فى معاملة خصومه من أنه عندما علم بمرض خصمه ريتشارد قلب الأسد ، وبأنه فى حاجة الى بعض الفاكهة والثلج ، بادر بارسال الكمثرى والخوخ والشراب اليه ، ولم يكسده يسترد صحته حتى يهاود الحرب ضد صلاح الدين (٣) . وما قام به صلاح الدين من صنيع لعدوه ريتشارد ، يدل على انه كان انسانا قبل أن يكون محاربا . غلبت عليه صفة التسامح والكرم ، ورأى أن الواجب الانسانى يحتم عليه مد يد المساعدة اليه .

وعلى اية حال ، فان صلاح الدين الايوبى كان صفحة رائعة فى تاريخ الحروب الصليبية ببلاد الشام ، ويكفى ان الشهرة الاسطورية التى عرفت بها فروسيته تركت انطبعا فى الغرب الاوروبى ، حتى أن العديد من الفرنسيين

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤١٠ - ص ٤١١ .

(٢) محمد فريد أبو حديد : تاريخ صلاح الدين وعصره ، ص ١١٠ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣١ - ص ٢٣٢ .

لم يترددوا في اعطاء اسم صلاح الدين لأطفالهم ، فضلا عن أنه صار احد الاسماء لعائلة فرنسية (١) .

وفاضت المصادر المعاصرة بمروءة صلاح الدين التي عمت الأعداء من الصليبيين ، فيروى المؤرخون في حوادث عام ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) أن مسلما دخل خيام الفرنج ليلا ، واستولى على طفل رضيع ، فلما اكتشفت الأم ضياع ابنها ، طار عقلها ، فنصحها البعض من الصليبيين بالذهاب الى صلاح الدين لما عرف عنه من شفقة ورحمة ، ولما رآها صلاح الدين تبكى في ألم وحرقة ، وتدفق على صدرها ، وتمرغ وجهها في التراب سال « عن قصتها ، فأخبروه ، فرق لها ، ودمعت عينيه ، وامر باحضار الرضيع ، فمضوا ووجدوه قد بيع في السوق ، فأمر بدفع ثمنه الى المشتري ، واخذه منه ، ولم يزل واقفا حتى أحضر الطفل وسلم اليها ، وبكت بكاء شديدا ، وضمته الى صدرها ، والناس ينظرون اليها ويبكون (٢) » ، ويعلق ابن شداد (٣) على هذه القصة قائلا : « فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشرية . اللهم انك خلقتة رحيمًا فارحمه رحمة واسعة من عندك يا ذا الجلال والاکرام » .

وثمة شخصية صليبية ، كانت صورة للفارس اللص على عهد الحروب الصليبية ، ذلك هو رينودى شاتيون Reginald de Chatillon الذي عرف في المصادر العربية باسم أرناط ، ووصف بأنه شره وسافل ومتوحش ومتعصب ديني (٤) . ولم يكن أرناط الذي أضحى حاكما لحصن الكرك الصليبي ، من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ، ويتمسكون بمبادئ الفروسية ، وإنما

(١) Longnon : Les Français d'Outre-Mer en Moyen Age. P. 157

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٢ - ص ١٨٤ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١ .

مجير الدين الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(٣) الذواكر السلطانية ، ص ٣٢ - ص ٣٣ .

King : The Knights Hospitaliers. p. 111

(٤)

كان لا يصلح الا للسلب والنهب وشن الاغارات على الأبرياء والمسلمين (١) .
وقد وصفه المؤرخ أبو شامة (٢) قائلاً أنه « أغدر الفرنجية وأخبثها وأفحصها
عن الردى والرداءة وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة ، والايمان المبرمة ،
وأنكثها وأبختها » . وقد عرف عنه نقضه للعهود ، فكثيرا ما قطع الطريق على
القوافل التجارية المتجهة من مصر وغربى شبه الجزيرة العربية الى الشام ،
وفي عام ١١٨٦ م (٥٨٢ هـ) قطع الطريق على قافلة ضخمة كانت في طريقها
من مصر الى الشام ، فأخذها بأسرها . ولما ناشده أفراد القافلة أن يطلق
سراحهم ، وذكره بعهود الامان والصلح التى بينه وبين المسلمين ، رد عليهم ردا
يقتضى الاستخفاف والسخرية بالرسول صلى الله عليه وسلم وقال : « قولوا
لمحمدكم يخلصكم » ، وبلغ ذلك السلطان ، فحملته الغيرة على الدين الاسلامى
أنه نذر ان ظفر به قتله (٣) .

ولما انتصر صلاح الدين على الصليبيين فى موقعة حطين عام ١١٨٧ م
(٥٨٣ هـ) ، لم يلبث أن سيقنت اليه الأسرى ، فكان من بينهم الملك جاي
كوزجان وأرناط صاحب الكرك ، وجيراردى ريذفورت مقدم الداوية ، فاستقبلهم
صلاح الدين فى مخيمه استقبالا حسنا ، وأجلس الملك الى جانبه ، واخذ يذكر
أرناط بأفعاله التى أضرت المسلمين ، وقال له : « كم تحلف وتحنث ، وتعهد
وتنكث ، وتبرم الميثاق وتنقض ، وتقبل على الوفاق ثم تعرض ، فقال الترجمان
عنه أنه يقول : « قد جرت بذلك عادة الملوك (٤) » . وكان الملك يلهث من شدة
الظما ، وأحس بالرعب ، وعندئذ أمر صلاح الدين بتقديم اناء به ماء مثلوج
للملك جاي ، فشرب منه ، وأعطى ماتبقى لأرناط فشرب ، وهنا غضب السلطان ،
ووجه كلامه للملك قائلاً : « لم تأخذ فى سقيه منى اخنا ، فلا يوجب ذلك له منى

(١) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٦٤ .

(٢) الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٨٩ .

(٣) الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ١٩ - ص ٢٠ .

أما (١) « • ويفسر المؤرخون هذا التصرف من ناحية صلاح الدين أنه « كان من جميل عادة العرب ، وكريم اخلاقهم ، أن الأسير اذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن ، فقصده السلطان بقوله ذلك (٢) • وكان أن التفت صلاح الدين الى أرنط ، وقال له : « ها أنا أنتصر لمحمد معك » ، ثم عرض عليه أن يعتنق الدين الاسلامي فلم يفعل ، وعندئذ استل صلاح الدين سيفه وضربه به ، فأطاح برأسه ، وأخرجت جثته ؛ فلما رأى الملك جاي ، ارتاع وظن أن دوره آت عن قريب ، ولكن صلاح الدين هذا من روعه وقال له : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ! ، أما هذا فقد تجاوز الحد ، وتجراً على الأنبياء (٣) » •

على ان الاخلاق العربية الكريمة لم تظهر في تصرفات حكام المسلمين مثل صلاح الدين فحسب ، بل ظهرت أيضا في تصرفات عامة الناس ، والمعروف أن الاعتراف بالجميل ، ورد المعروف ، من الصفات الاصلية التي يتحلى بها العرب ، فظالما حرصوا على رد الحسنة بأحسن منها (٤) • وثمة قصة طريفة رددتها المراجع الصليبية ، تدل على مدى تقدير العرب للمعروف والاعتراف بالجميل • ذلك انه لم يكذب يتم تتويج بلدوين الأول ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية ، حتى شرع عام ١١٠١ م في الاغارة على البلاد العربية المجاورة ، ففي ربيع ذلك العام هاجم قبيلة عربية كانت تعبر الأردن ، فقتل معظم رجالها وأسرى النساء والأطفال ، وكأنت من جملة الأسرى زوجة أحد شيوخ القبيلة ، وهي حامل على وشك الوضع ، فلما علم بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادماتها وجمالان وقدر من الزاد • ولم تلبث المرأة ان وضعت مولودها في الطريق ، وعادت الى زوجها لتروى له قصتها (٥) • ولم تمض مدة طويلة حتى اتاحت الفرصة

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩ •

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ١٧٦ - ص ١٧٧ •

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨١ •

مجير الدين الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ص ٢٢١ - ص ٢٢٢ •

(٤) سعيد عاشور : اضواء على الحروب الصليبية ، ص ٨٨ •

(٥) William of Tyre : Hist. of the Deeds. Vol. 1

pp. 429—430

سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٨٨ - ص ٨٩ •

لشيخ القبيلة ليعبر عن اعترافه بالجميل للملك الصليبي ، ذلك أن بلدوين خرج من بيت المقدس في ١٧ مايو عام ١١٠٢ م ، قاصدا الرملة ، وكان في استطاعة المسلمين الاستيلاء على الرملة والقبض على بلدوين ، ولكن حلول الظلام حال دون ذلك ، وجعلهم يؤجلون ذلك الى الصباح التالي . وفي منتصف الليل قدم احد الاعراب ، وطلب ان يقابل الملك ، فجرى السماح له بالدخول ، فكشف عن شخصيته بأنه زوج السيدة التي اظهر لها بلدوين المروءة اثناء غارته على بلاد ما وراء نهر الاردن . فأعرب عن امتنانه للملك ، بأن أنذره بأن المصريين سوف يبدؤون الهجوم عند بزوغ الفجر ، فينبغي أن يبادر بالهروب . واستجاب الملك لنصيحته ، فتسالم مع سائسه وثلاثة من أتباعه ، واجتازوا بخيولهم خطوط العدو (١) .

ومع ان النزواج أحد العوامل الرئيسية في الاختلاط والتفاعل الاجتماعي ، فالشاهد أن المسلمين لم يتم بينهم وبين الصليبيين ببلاد الشام عقد أية زيجات الا فيما ندر للغاية . وبالطبع يرجع السبب في ذلك الى اعتزاز المسلمين بدينهم وتراثهم ، وأنهم يشعرون أنهم أرقى ثقافة من الصليبيين . ولكن بعض الدليليين تزوج من الوطنيات السوريات المسيحيات ، كما تزوج بعض السوريين المسيحيين بالفرنجيات ، فنشأ عن ذلك التزاوج جيل جديد مهجن جمع بين الجنس العربي والفرنجي ، وهو ما عرف بالبولاني Poulain (٢) . وهناك بعض الصليبيين المستقرين ، غيرت علاقتهم الاجتماعية بالوطنيين تغييرا جذريا ، الامر الذي أدى الى ربطهم بالكيان القومي العربي . فثمة عائلات لبنانية عديدة تدعى أنها من أصل افرنجي ، وتحفظ باسماء لاتينية ، تدل على أنها

William or Tyre : op. cit. Vol. 1 pp. 430—432 (١)

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٩٦ — ص ٢٩٧ .

(٢) انظر ص ٨٠ — ص ٨٢ .

تحدثت من الصليبيين الذين استقروا في البلاد ، أمثال فرنجية Frankish
 وصلبيبي Crusading ، وبردويل Baldwin والدويهي le Douhal ودريان
 Comte d'Orient ، وطارية Torbey ، وغالب هذه العائلات تنتمي إلى
 الطائفة المارونية (١) .

* * *

(١) شيايب حتى : لبنان في التاريخ ، ص ١٩٠

تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

خاتمة

وبعد ، ليس الغرض من هذه الكلمة الختامية أن تكون تلخيصا لما انتهى إليه الكتاب من نتائج ، والا صار الأمر تكرارا لامبرر له . وإنما أردت بهذه الكلمة أن أعبر عن النتائج التي انتهيت إليها والتي أعتقد أنني ان لم أكن توصلت إليها فقد أكدتها .

والفكرة الأولى التي أردت توكيدها في الفصل الأول ، هي أن بلاد الشام خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، عاش منها مزيج عجيب من الناس ، مكونا بذلك مجتمعين أساسيين هما المجتمع الاسلامي والمجتمع الصليبي . والمجتمع الاسلامي تألف من جنسيات عرقية وطوائف دينية عديدة ، منها القبائل العربية التي ترجع في أصولها الى القحطانيين ، والعدنانيين ، والأكراد ، والتركمان ، والأتراك . وثمة طائفة لعبت دورا خطيرا في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين ، تلك الطائفة المعروفة بالاسماعيلية أو الباطنية ، التي استطعت أن تحدد أهدافها وخصائصها . ومن الطوائف التي أقيمت الضوء عليها : الدروز ، والنصيرية . وقد حرصت على رسم الاطار العام لكل من هذين المجتمعين وبيان حدوده وأبعاده .

وبمجيء الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام ، واستيلائها على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، كان ولا بد أن يأخذ العنصر اللاتيني مكانه بين عناصر السكان الموجودة . فالمجتمع الصليبي الذي استعرضته - في الفصل الثاني - ساهم في وجوده العديد من الجنسيات التي وفدت من جميع أنحاء الغرب الأوروبي مثل الفرنسيين ، والألمان ، والنورمان ، والأسبان ، والبيازنة ، والجنوية ، والبنادقة ، والانجليز ، وغيرهم . وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا أحد العناصر التي سيطرت على بلاد الشام ابان الحروب الصليبية ، الا أنها وضعت بصماتها الواضحة على احداث تلك الحروب ، في اللغة والنظم الاقتصادية والفن .

وفي ذلك الفصل أيضا ابرزت الدور الذي قامت به المدن الإيطالية : بيزة وجنوة والبندقية ، وبذلك صارت بلاد الشام مجتمعا عالميا ، فريدا في نوعه .

أما عن الأقليات الدينية التي عاشت مع المسلمين جنبا الى جنب قبل مجيء الصليبيين ، وهم طبقة المسيحيين الشرقيين المحليين ، والبيزنطيين (الغريق) ، والسريان ، واليعاقبة ، والأرمن ، والوارنة ، والاقباط ، واليهود ، والسامرة ، والنساطرة ، فقد اوضحت ميول وظروف كل منها خلال فترة الحروب الصليبية .

فغير أن بلاد الشام شهدت ابتكارا فذا ، أوجده نجاح الحملة الصليبية الأولى ، ويتمثل ذلك في الدواوين الدينية الحربية التي جمعت بين حياة الرهبنة والفروسية في رباط واحد . واهم تلك الطوائف ، طائفتا الاستتار والدواية ، واقلها شأنا طوائف الفرسان التيوتون ، وسانت لازاروس ، وسانت توماس وغيرهم . وقد اوضحت الدور التي لعبته تلك الطوائف في الدفاع عن مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكيف صارت على درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ ونمو الثروات الضخمة .

ولا يستطيع المرء ، التحدث عن المجتمع الصليبي ببلاد الشام دون اغفال الطبقات التي تألف منها وهي : الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء ، والفرسان ، التي كانت العمود الفقري للمجتمع الصليبي ، وطبقة الجولانيين وهم الأبناء المنحدرين من الزيجات المختلفة بين الفرنجة والمسيحيين الوطنيين ، وطبقة الأحرار أو البورجوازية ، وطبقة الرقيق أو الاقنان . ومن الثابت ان البناء الاجتماعي للكيان الصليبي بالشام تألف من طبقات مختلفة ، غير متجانسة ، ظلت متميزة بالفوارق الواضحة .

ومع اعترافنا بوجود دواعث عديدة للحركة الصليبية ، فان العامل الاقتصادي كان بالغ الأهمية ، إذ أن الصليبيين سعوا وراء تحقيق مكاسب اقتصادية في الشرق العربي . والمتتبع لدور الصليبيين في تجارة الشام . ينتضح

له انهم لم يجنوا من ورائها الا ارباحا ضئيلة • واعتقد أننى استطعت فى الفصل الثالث ان القى المزيد من الضوء على النشاط التجارى للمدن الايطالية ، فلاريب أنها كانت - أول الأمر - بالغة الحذر ازاء الحركة الصليبية ، وبالغة الميل الى التمهل فى بذل ما وعدت به من مساعدة ، ولكنها غيرت رأيها بعد أن أدركت أن الحروب الصليبية الاولى تبشر بالنجاح ، ومن ثم بادرت الى ارسال أساطيلها الى الشرق الأدنى لمساعدة الصليبيين ، مقابل امتيازات فى كل مدينة أسهموا فى الاستيلاء عليها • وعالجت فى ذلك الفصل طرق التجارة البرية والبحرية المؤدية الى الشام ، وأهم المراكز التجارية وما ارتبط بها من ازدهار على عصر الصليبيين • وكشف النقاب عن أهم السلع التى كانت محور النشاط التجارى ببلاد الشام ، فقد أولع الغرب الأوروبى بالسلع الشرقية واشتد اقباله عليها ، خاصة التوابل التى حازت المكانة الأولى بين تلك السلع حتى نهاية العصور الوسطى • وانتقلت بعد ذلك الى النظم والمعاملات التجارية المختلفة ، التى خدمت النشاط التجارى ببلاد الشام •

أما الفصل الرابع ، فقد كان مجاله الحديث عن الفنون الحربية على زمن الحروب الصليبية • ومن الواضح أن المسلمين والصليبيين كان لكل منهم خصائصه الاستراتيجية فى الهجوم والدفاع والتكتيك والأسلحة • ولما كانت اللياقة البدنية ضرورية للجند فى كل عصر ، بوصفها تكسب الجسم المرونة والرشاقة والنشاط ، فقد حرصت على أبرازها • وكان لابد أن نلم بالتربية الاجتماعية فى المعسكر الإسلامى ، بالإضافة الى الروح المعنوية التى لاغنى عنها لاحتراز النصر ، فبفضلها أمكن انقاذ موقف المسلمين المتهالك ، وانتزاع النصر من براثن الهزيمة •

وقد أدى النقص فى القوة البشرية الى جعل الصليبيين يبنون القلاع الهائلة • ولكى يحتفظوا بتثبيت أقدامهم على الشاطئ كان عليهم أن يحتفظوا بالسيادة على صلتهم بالبحر ، ولهذا شيّدوا سلسلة من الأبراج والقلاع والحصون من أجل تأمين العمليات الحربية • وقد استفاد الصليبيون من

أساليب العمارة الحربية للبيزنطيين والعرب • على أنهم لم يوقفوا عند حد الافادة والاقتباس ، بل أضافوا من عندهم اضافات جديدة بالاهتمام • وعلى الرغم من القلاع والحصون الضخمة التى بناها الفرنجة ببلاد الشام ، إلا انها فى النهاية سقطت فى ايدى المسلمين • ويرجع السبب فى ذلك النقص فى القوة البشرية الفرنجية ، والجهد النفسى ، والمعاناة ، اذ ظل الصليبيون - كقوة محاربة - فى حالة من اليقظة المستمرة والرقابة والخوف • ومن المشاهد تطور أساليب الحصار واسلحته فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فضلا عن تجهيز القلاع بالمؤن والامدادات التى تكفى حصارا طويلا • وعندما وقع عبء الدفاع عن مملكة بيت المقدس الصليبية على كاهل الطوائف الدينية العسكرية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، نتيجة ضغط القوات الاسلامية ، صار لتلك الطوائف قلاعها وحصونها التى تميزت بالضخامة والمناعة والقوة ، فضلا عن انها ارتبطت بنظام صارم • وعلى أية حال ، فان بلاد الشام خلال فترة الحروب الصليبية ، كانت تمثل بيئة غنية من التحصينات الحربية من الطراز الاول ، لم تتوفر فى أى بقعة أخرى من العالم •

ومن المؤكد أن الحروب الصليبية التى اتخذت من بلاد الشام مسرحا لأحداثها مدة تقرب من قرنين من الزمان ، أدت الى وجود احتكاك حضارى بين المسلمين والصليبيين ، الامر الذى أدى الى انتقال بعض التأثيرات الحضارية الاسلامية الى الغرب الأوروبى • وقد كان من الصعب فى عصر الحروب الصليبية - كما أوضحت فى الفصل الخامس - ، ايجاد تفاعل فكري بين الفرنجة والمسلمين ، لأن ذلك التفاعل لا يتم الا فى ظل استقرار كامل • هذا بالاضافة الى أن مجتمع الجنود والتجار لم يهيئ فى الواقع مناخا صالحا لاقامة مستوى فكري رفيع • وقد أوضحت فى ذلك الفصل الانتاج العقلى للفرنجة ببلاد الشام ، والفوارق الحضارية فى الناحية الفكرية بينهم وبين المسلمين •

وبسبب الدروس المستفادة من الحروب الصليبية ، بلغ الصليبيون شأوا بعيدا فى التسامح الدينى ، بعد أن وقفوا على صورة أوضح واضبط عن الاسلام

٢٦٥

والمسلمين ، وهم الذين كانوا في نظر الغرب الأوروبي « كفارا » وثنبيين • وأبرزت في الفصل الخامس أيضا أن الحروب الصليبية كشفت الستار عن خبيثة الصليبيين ، وفشلهم في انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين ، ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الاسلامي ، ولهذا رأوا ضرورة التفكير في اجتذاب المسلمين الى اعتناق الديانة المسيحية عن طريق التفاهم والاقناع وهو تحول أرسى قواعد الحركة التبشيرية المسيحية •

أما عن التداخل والاختلاط والتفاعل الاجتماعي بين المسلمين والصليبيين ، فالواقع أن الحروب الصليبية ببلاد الشام أتاحت فرصة طيبة لذلك ، لأن انقضاء الجيل الأول من الصليبيين ، جعلهم يفسوا تعصبهم الديني الأعمى ، وربطت بينهم وبين المسلمين العلاقات الودية من جراء طول المعاشرة ، وقد اختلفت عنهم جموع الصليبيين الذين كانوا يفدون من الغرب الأوروبي ، وقلوبهم مفعمة بالغلظة والجفاء •

وقد وضح في ذلك الفصل كيف أن كبار السادة الاقطاعيين الصليبيين ، قد تبنوا عادات المسلمين وتقاليدهم في الأزياء والاطعمة والأشربة والحمامات الشرقية • وثمة عادات سار عليها الصليبيون ، لكن المسلمين استنكروها ورأوا فيها خروجاً على مبادئ الشريعة الاسلامية ، وجهلاً بأبسط القواعد الانسانية ، مثل أساليب معاقبة المجرمين والمذنبين • وهنا لابد من عقد مقارنة بين فروسية الشرق ممثلة في صلاح الدين الأيوبي ، وفروسية الغرب الأوروبي ممثلة في ريتشارد قلب الأسد • وقد ظهر التناقض واضحاً بين تصرفات الاثنين ، فالاول غلب عليه الرحمة والمروءة والانسانية ، أما الأخير فقد غلب عليه تقلب المزاج والغدر ، بشهادة المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين •

ومهما كان الأمر ، فإن الحركة الصليبية ببلاد الشام بالنسبة للغرب الاوروبي ، كانت مغامرة فاشلة كلفتها الكثير من التضحيات في الأرواح والأموال •

ولكنها بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب ، كانت لقاء حضاريا ، مكن الغرب الأوروبي من النهوض من سباته الطويل • وبمعنى آخر ، إذا كانت الحركة الصليبية فشلت كمحاولة مبكرة قصد بها استعمار الشرق الأدنى ، إلا أنه لما فتحت الغرب الأوروبي على آفاق جديدة ، وساهمت في أحداث الثورات والأفكار الجديدة التي خرجت به من عزلة •

* * *

المصادر والمراجع

١ - المصادر العربية :

ابن الأثير :

- (على بن أحمد بن أبي الكرم ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) :
- الكامل في التاريخ ، ٩ أجزاء ، ط . القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ .
- التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ، نشره وحققه د . عبد القادر طليمات ، ط . القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

ابن أبياس :

- (أبو البركات محمد بن أحمد ، ت ٩٣٣ هـ / ١٥٢٤ م) :
- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط . القاهرة سنة ١٣١١ هـ .

ابن أبيك الدواداري :

- (أبو بكر بن عبد الله ، ت بعد ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م) :
- كنز الدور وجامع الغرر ، الجزء السابع وعنوانه : الدر المطلوب في أخبار بني أيوب ، تحقيق د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، ط . القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

ابن بهادر :

- (محمد بن محمد بن محمد ، ت ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م) :
- فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر ، جزءان ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦١٦٦ .

ابن جسيبر :

- (أبو الحسين محمد بن أحمد الكفاني الأندلسي ، ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) :
- الرحلة ، ط . بيروت سنة ١٩٦٤ م .

ابن الجوزى :

(أبو المظفر بن قيزوغلى ، ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) :

— مرآة الزمان ، الجزء الثامن ط • حيدر آباد سنة ١٩٥١ م •

ابن حبيب :

(الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ، ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) :

— درة الأسلاك في حولة الأتراك ، جزءان ، مخطوط مصور بمكتبة

جامعة القاهرة رقم ٢٢٩٦١ •

ابن حوقل :

(أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي ، ت بعد ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) :

— المسالك والممالك ، ط • ليدن ١٨٧٢ م •

ابن خلدون :

(عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) :

— العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط • بيروت بدون تاريخ •

ابن خلكان :

(شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم ، ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) :

— وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد

الحميد ، ٦ أجزاء ، ط • القاهرة ١٩٤٨ م •

ابن شاهنشاه الأيوبي :

(محمد بن تقي الدين بن عمر ، ت ٦١٧ هـ / ١٢٣٠ م) :

— مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق د • حسن حبشي ، ط •

القاهرة سنة ١٩٦٨ م •

ابن الشحنة :

(أبو الفضل محمد ، ت في حدود سنة ٨٠٠ هـ) :

— الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ط . بيروت سنة ١٩٠٩ م .

ابن شداد :

(بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع ، ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) :

— النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق د . جمال الدين الشيبال ، ط . القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

ابن العديم :

(كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي ، ت ٦٦٠ هـ / ١٦٧٨ م) :

— زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، تحقيق د . سامي الدهان ، ط . دمشق سنة ١٩٤٥ - ١٩٥١ م .

ابن العماد الحنبلي :

(أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد ، ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) :

— شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، ط . القاهرة سنة ١٣٥١ هـ .

ابن الفرات :

(محمد بن عبد الرحيم ، ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) :

— تاريخ ابن الفرات ، جزء ٧ ، ٨ ، تحقيق د . قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، ط . بيروت سنة ١٩٣٩ - ١٩٤٨ م .

ابن فضل الله العمري :

(شهاب الدين أحمد بن فضل الله ، ت ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م) :

— التعريف بالمصطلح الشريف ، ط . القاهرة سنة ١٣١٢ م .

ابن القلانيس :

- (أبو يعلى حمزه ، ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) :
 — ذيل تاريخ دمشق ، نشره أمدرود ، ط . بيروت سنة ١٩٠٨ م .

ابن كثير :

- (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر الحافظ ، ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) :
 — البداية والنهاية ، ١٢ جزءا ، ط . بيروت ١٩٦٦ م .

ابن منكلى :

- (محمد بن منكلى الداعى ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) :
 — التدبيرات السلطانية فى سياسة الصناعة الحربية ، مخطوط مصور
 بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٣٣٧ .

ابن ميسر :

- (محمد بن على بن يوسف ، ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) :
 — تاريخ مصر ، نشر هنرى ماسيه ، ط . القاهرة سنة ١٩١٩ م .

ابن واصل :

- (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) :
 — مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب ، ج ١ - ٣ تحقيق د . جمال
 الدين الشيال ط . القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠ م . ج ٤ تحقيق
 د . حسنين ربيع ، ط . القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

ابن السوردي :

- (أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر ، ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) :
 — تنمة المختصر أو تاريخ ابن الوردى ، ط . القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ .
 — خريدة العجايب وفريدة الغرائب ، ط . القاهرة سنة ١٢٨٠ م .

٢٧١

أبو شامة :

(عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان ، ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٨ م) :
 — الروضتين في أخبار الدولتين الفورية والصلاحية ، جزآن ، ط .
 القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ .

أبو الفدا :

(اسماعيل بن عماد الدين صاحب حماه ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) :
 — المختصر في أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، ط . القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

أبو الحسن :

(جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) :
 — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٤ جزء ، ط . القاهرة
 سنة ١٩٢٩ - ١٩٧١ م .

أسامه بن منقذ :

(أبو المظفر بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر ، ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) :
 — كتاب الاعتبار ، نشره وحققه فيليب حتى ، ط . برنستون سنة
 ١٩٣٠ م .

— كتاب العصا ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط . القاهرة سنة
 ١٩٥١ م .

الاصطخري :

(أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارس المعروف بالكرخي ، المتوفى في
 النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) :
 . المسالك والممالك ، تحقيق د . محمد جابر عبد العال الحيني ، ط .
 القاهرة سنة ١٩٦١ م .

٢٠٧٢

البلاذرى :

(احمد بن يحيى بن جابر ، ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) :
— فتوح البلدان ، ط . بيروت سنة ١٩٥٧ م .

بكتوت الرماح :

(بدر الدين بكتوت الرماح المظاهري ، ت حوالى ٧١٦ هـ / ١٣١١ م) :
— علم الفروسية وعلاج الدابة ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة
رقم ٢٦٣٣٩ .

الحسن بن عبد الله :

(ت ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م) :
— آثار الأول في ترتيب الدول ، ط . القاهرة سنة ١٢٩٥ هـ .

الحسينى :

(صدر الدين بن حسن بن ناصر بن على) :
— أخبار الدولة السلجوقية ، نشره محمد اقبال ، ط . لاهور سنة
١٩٣٣ م .

الحنبلنى :

(احمد بن ابراهيم ، عاش في القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر
اليلادى) :
— شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة
القاهرة رقم ٢٤٠٣١ .

الخالدى :

(بهاء الدين محمد بن لطف الله العمرى ، ت ٩٢٧ هـ / ١٥٣١ م) :
— المقصد الرزيع المنشأ الهادى لديوان الانشا . مخطوط مصور
بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٤٥ .

صالح بن يحيى :

(ت ٨٣٩ - ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م) :

— تاريخ بيروت ، نشره لويس شيخو ، ط . بيروت سنة ١٩٢٧ م .

عبد اللطيف البغدادي :

(موفق الدين عبد اللطيف ، ت ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) :

— الافادة والاعتبار ، نشره وعلق عليه دى ساسى ، ط . القاهرة ،
بدون تاريخ .**عهاد الدين الاصفهاني :**

(أبو عبد الله محمد ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) :

— الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ط . القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .
— تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الشيخ الفتح بن على بن محمد
البندارى ، ط . القاهرة سنة ١٣١٨ هـ .**القلقشندى :**

(شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على ، ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) :

— صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزءا ، ط . القاهرة سنة
١٩١٣ م .**مجير الدين الحنبلى :**

(قاضى القضاة أبو اليمىن ، عاش فى القرن العاشر الهجرى / الخامس

عشر الميلادى) :

— الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط . القاهرة سنة ١٢٨٣ هـ .

السعودى :

(أبو الحسن على بن الحسين بن على ، ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) :

— التنبيه والاشراف ، ط . ليدن سنة ١٨٩٣ م .

— مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
٤ أجزاء ، ط . القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

المقدسى :

(أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري ، توفي حوالى عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م)
— أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط . ليدن سنة ١٩٠٦ م .

القريزى :

(تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ - ١٤٤٢ م) :
— السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ - ٢ (٦ أقسام) تحقيق د . محمد
مصطفى زيادة ، ج ٣ - ٤ (٦ أقسام) تحقيق د . سعيد عبد الفتاح
عاشور ، ط . القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٣ م .

ناصر خسرو :

(ت ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) :
— سفر نامه ، نقله الى العربية د . يحيى الخشاب ، ط . القاهرة
سنة ١٩٤٥ م .

النعيمى :

(عبد القادر بن محمد ، ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م) :
— الدارس فى تاريخ المدارس ، جزآن ، ط . دمشق سنة ١٩٥١ م .

ياقوت الحموى :

(شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى ، ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٩ م) :
— معجم البلدان ، ١٠ أجزاء ، ط . القاهرة سنة ١٩٠٦ م .

٢٧٥

٢ - المراجع العربية والمترجمة :

ابراهيم طرخسان :

النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى .

(القاهرة ١٩٦٨ م)

احمد احمد بدوى :

الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية .

(القاهرة بدون تاريخ)

احمد امين :

الصعلكة والفتوة في الاسلام .

(القاهرة ١٩٥٢ م)

ظهر الاسلام .

(القاهرة ١٩٤٥ م)

جزء ١

احمد عارف الزين :

تاريخ صيدا

(صيدا ١٩١٣ م)

احمد كمال زكي :

اسامه بن منقذ .

(القاهرة ١٩٦٨ م)

ارشيبالد كوين :

القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ٥٠٠ - ١١٠٠ م .

ترجمة احمد محمد عيسى .

(القاهرة ١٩٦٠ م)

٢٧٦.

أرنست باركر :

- الحروب الصليبية
 - نقله الى العربية د • السيد الباز العرينى
- (القاهرة ١٩٦٠ م)

اسطفان الدويهي :

- تاريخ الطائفة المارونية
- (بيروت ١٨٩٠ م)

برجرز :

- (مارتين)
 - تراث الاسلام
- (القاهرة ١٩٣٦ م)

برنارد لوييس :

- العرب في التاريخ
 - تعريب نبيه امين فارس ومحمود يوسف زايد
- (بيروت ١٨٨٠ م)

توفيق اسسكندر :

- بحوث في التاريخ الاقتصادى
 - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
- (القاهرة ١٩٦١ م)

جاك هيرز :

- « جنوه • مثل مدن البحر المتوسط في العصور الوسطى »
- ترجمة د • على رأفت (مقالته بمجلة ديوجبين التي تصدرها هيئة اليونيسكو ، العدد ١٧ ، السنة السادسة ١٩٧٢ م)

٢٧٧

جروينباوم :

- (جوستاف)
- حضارة الاسلام
- ترجمة عبد العزيز جاويد

(القاهرة ١٩٥٦ م)

جمال الدين سرور :

- النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق

(القاهرة ١٩٦٤ م)

- الدولة الفاطمية في مصر

(القاهرة ١٩٦٥)

جوانفيل :

(جان سيردي)

القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام ، مذكرات جان

- سيردي جوانفيل

ترجمة وتعليق د • حسن حبشي

(القاهرة ١٩٦٨ م)

جورجي زيدان :

تاريخ التمدن الاسلامي

(القاهرة ١٩٤٧ م)

جزء ٤

جورجي يني :

- تاريخ سوريا

(بيروت ١٨٨١ م)

٢٧٨

جوستاف لوبون :

حضارة العرب •

نقله الى العربية محمد عادل زهير

(القاهرة ١٩٤٥ م)

نحامد زيسان :

حلب في العصر الزنكي

رسالة ماجستير لم تطبع ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ م

حسن ابراهيم حسن :

تاريخ الاسلام السياسي

(القاهرة ١٩٥٥ م)

٣ اجزاء

حسن حبشي :

الحرب الصليبية الاولى

(القاهرة ١٩٤٧ م)

نور الدين والصليبيون

(القاهرة ١٩٤٨ م)

حنّا ابي راشد :

جبل الدروز مع صحيفة اعمال زعيمهم الحريمى سلطان باسا الاطرش •

(القاهرة ١٩٢٥ م)

خليل سركيس :

تاريخ اروشليم

(بيروت ١٨٧٤ م)

٢٧٩٠

وفسيهان :

- (ستفن)
- تاريخ الحروب الصليبية
- ترجمة د • السيد الباز العرينى
- ٣ أجزاء
- (بيروت ١٩٦٧ - ١٩٦٩ م)

زكى محمد حسن :

- فنون الاسلام
- (القاهرة ١٩٤٨ م)

سامى سلطان سعد :

- الاسبتارية فى رود س ١٣١٠ - ١٥٢٢ م
- رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، لم تطبع ، عام ١٩٧٥ م

سعيد عبد الفتاح عاشور :

- — أوروبا العصور الوسطى
- أجزاء
- (القاهرة ١٩٥٨ م)
- — النهضة الأوروبية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة
- (القاهرة ١٩٦٠ م)
- — الظاهر بيبرس
- (القاهرة ١٩٦٣ م)
- — العصر المملوكى فى مصر والشام
- (القاهرة ١٩٦٥ م)
- — الحركة الصليبية
- أجزاء
- (القاهرة ١٩٧١ م)
- — « الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى »
- مجلة النجيلة المصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ١١ لسنة ١٩٦٣ م

- « شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية » .
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ١٦ لسنة ١٩٦٩ م .
- المدنية الاسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية .
(القاهرة ١٩٦٣ م)
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك .
(القاهرة ١٩٦٢ م)
- أضواء جديدة على الحروب الصليبية .
(القاهرة ١٩٦٤ م)

السيد الباز العرينى :

- غوطبة النبلاء الاقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثالث عشر الميلادي ، فصل من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ٢٠ ، العدد الثاني ديسمبر ١٩٥٨ م .
- الشرق الأوسط والحروب الصليبية .
(القاهرة ١٩٦٣ م)
- مؤرخو الحروب الصليبية .
(القاهرة ١٩٦٢ م)
- الاقطاع الحربى عند الصليبيين بمملكة بيت المقدس في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادى .
(القاهرة ١٩٥٩ م)
- الاقطاع في الشرق الاوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادى . فصل من حوليات كلية الآداب ، العدد الرابع ، يناير ١٩٥٧ م .

شارل ديبل :

- البندقية جمهورية أرستقراطية .
- تعريب د . احمد عزت عبد الكريم ، وثوفيق اسكندر .
(القاهرة ١٩٤٨ م)

٢٨٩

عبد الرحمن زكى :

« القلاع فى الحروب الصليبية »
المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٥ لسنة ١٩٦٩ م

عبد اللطيف حمزة :

الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .
(القاهرة بدون تاريخ)

عبد اللطيف حمزة :

أدب الحروب الصليبية .
(القاهرة ١٩٤٨ م)

عبد النعيم حسنين :

سلاجقة ايران والعراق
(القاهرة ١٩٥٩ م)

عمر فسروخ :

التبشير والاستعمار فى البلاد العربية .
(بيروت ١٩٧٣ م)

على بن حسين السليمان :

النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى .
١٢٥٠ - ١٥١٧ م
رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، لم تطبع ، عام ١٩٧٤ م

عمر كمال توفيق :

مقدمات العدوان الصليبي .
(الاسكندرية ١٩٦٦ م)

فيليب حنسى :

- لبنان فى التاريخ
- ترجمة د • أنيس فريحه ، مراجعة د • نقولا زيادة •
- (بيروت ١٩٥٩ م)

- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين
- ترجمة د • كمال اليازجى •
- جزءان
- (بيروت ١٩٥٩ م)

فويس شيخو :

- بيروت ، تاريخها وآثارها •
- (بيروت ١٩٢٥ م)

مجهول المؤلف :

- تاريخ الدروز وأصلهم •
- (طبعة بدون تاريخ)

محمد أحمد حسين :

- أسامه بن منقذ
- (القاهرة ١٩٤٦ م)

محمد أمين زكى :

- خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن
- ترجمه الى العربية محمد على عوني •
- (القاهرة ١٩٣٦ م)

محمد خلف الله أحمد :

- الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة •
- (القاهرة ١٩٥٥ م)

محمد فريد أبو حديد :

• صلاح الدين الأيوبي وعصره .

(القاهرة ١٩٢٧ م)

محمد كامل حسين :

• طائفة الدروز ، تاريخها وعقائدها .

(القاهرة ١٩٦٨ م)

محمد كرد علي :

خطط الشام

٦ أجزاء

(دمشق ١٩٢٥ - ١٩٢٨ م)

الاسلام والحضارة العربية

(القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٦ م)

محمد محمد الشيخ :

الامارات العربية في بلاد الشام

• رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٧١ م .

محمود محمد الجويري :

• أسوان في العصور الوسطى

رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، (لم تطبع) عام ١٩٧٢م

منظير حسان سعداوى :

• ثلاثة من مؤرخي الحروب الصليبية

(القاهرة ١٩٥٧ م)

الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي

(القاهرة ١٩٦١ م)

جيش مصر فى أيام صلاح الدين

(القاهرة ١٩٥٦ م)

التاريخ الحزبى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى

(القاهرة ١٩٥٧ م)

هاو :

(سونيا ،ى •)

فى طلب التوابل •

ترجمة محمد عزيز رفعت ، مراجعة محمود النحاس

(القاهرة ١٩٥٧ م)

هنرى لامنس :

(الأب •)

تسريح الأبصار فيما يحتوى لبنان من الآثار •

(بيروت ١٩١٤ م)

يوسف الدبى :

الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة الموصل •

(بيروت ١٩٠٥ م)

يوسف دريان :

نبذة تاريخية فى أصل الطائفة المارونية واستقلالها بجبل لبنان من قديم

الدهر حتى الآن •

(القاهرة ١٩١٦ م)

* * *

٣ - المصادر والمراجع الأجنبية :

Archer (T.A.) & Kingsford (C.L.) :

The Crusades.

(London, 1919)

Boissonade (P.) :

Life and Work in Mediaeval Europe.

(London, 1937).

Cahen (Claude) :

La Syrie du Nord à l'époque des Croisades.

(Paris, 1940).

Cambridge Mediaeval History. Vol. IV, V.

Chalandon (F.) :

Histoire de la Première Croisade jusqu'à l'élection
de Godefroi de Bouillon.

(Paris, 1962).

Cheyney (Edward P.) :

The Waning of the Middle Ages.

(London, 1962).

Day (Clive) :

A History of Commerce.

(London, 1940).

Delaville Le Roulex (J.) :

Les Hospitaliers en Terre — Sainte et à Chypre.

(Paris, 1904).

Deschamps (P.):

Le Crac des Chevaliers.

(Paris, 1938).

Duggan (Alfred) :

The Story of the Crusades,

(London, 1963)

Dussaud (R.), Deschamps (P.) and Seyring (H.) :

La Syrie Antique et Médiévale illustrée.

(Paris, 1931).

Emerton (Ephraim) :

Medieval Europe.

(London, 1894).

Encyclopaedia of Religion and Ethics. edited by James Hastings.

Encyc. Britt.

Articles, Castle, Crusades, Knighthood,
Chivalry and Orders.

Enlart (Camille) :

Les Monuments des Croisés dans Le Royaume
de Jérusalem. 2 Vols.

(Paris, 1925—1928).

Fedden (Robin) :

The Journal of a Voyage through the more
unfrequented regions of mons libanus

(Cairo, 1945).

Fedden (Robin) :

Crusades Castles

(London, 1950).

Etchell (W.J.) :

Jews in the Economic and Political Life of
the Medieval Islam.

(London, 1958)

NAV

Gibb (H.A.R.) :

The Caliphate and the Arab States.

Gerard de Nerval :

Voyage en Orient. T.2.

(Paris, 1869)

Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum :

Edited by Rosalind Hill.

(London, 1962)

Grant (A.J.) :

A History of Europe. Part II.

Grousset (R.) :

Histoire des Croisades et du Royaume Franc
de Jérusalem.

3 Vols. (Paris, 1943—46)

L'Empire du Levant.

(Paris, 1946).

Guides Bleus Les :

Syrie — Palestine.

(Paris, 1932).

Haskins (C.H.) :

Studies in Mediaeval Culture.

(Oxford, 1929)

Hayes (F.H.), Baldwin (M.W.) :

History of Europe. Vol. I.

(New York, 1959).

۲۸۸

Hearnshaw (F.J.C.) :

Chivalry and its place in History.
Edited by E. Prestage.

(London, 1928).

Heyd (W.) :

Histoire des Commerce du Levant.

2 Vols. (Paris, 1936).

Hitti (P.K.) :

The Origins of the Druze People and Religion.

(New York, 1928).

Hitti (P.K.):

History of the Arabs.

(London, 1972).

Huizinga (J.) :

The Waning of the Middle Ages.

(London, 1948).

Hulme (E.M.) :

The Middle Ages.

(U.S.A., 1938).

Iorgu (N.) :

Histoire des Croisades.

(Paris, 1924).

Iorgu (N.) :

L'Arménie Cilicienne.

(Paris, 1930).

٢٨٩

Kantorowicz (E.) :

Frederick the Second.

(London, 1931).

King (E.J.) :

The Knights Hospitallers in the Holy Land.

(London, 1931)..

Lamb (H.) :

The Crusades (the flame of Islam).

(London, 1931).

La Monte (J.) :

Feudal Monarchy in the Latin Kingdom.

(Cambridge, 1932)..

Lammens (H.) :

La Syrie précis Historique.

Vols. (Beyrouth, 1921)..

Lane Poole (Stanly) :

Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem.

(London, 1893)..

The History of Egypt in the Middle Ages.

(London, 1901).

Lethaby (W.R.) :

Medieval Art.

(London, 1949).

Longnon (J.) :

Les Français d'Outre-Mer au Moyen-Age.

(Paris, 1929).

223

Loti (Pierre) :

Jerusalem.

(Paris, No date of Printing).

Marco Polo :

The Travels. Translated into English from the text
of L.F. Benedetto.

(London, 1903).

Miller (W.) :

The Latin in the Levant.

(London, 1908).

Nau (François) :

Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de
Syrie du VIIe au VIII Siècle.

(Paris, 1933).

Oman (C.W.) :

A History of the Art of War in the Middle Ages.

2 Vols. (London, 1924).

Orton (Previté) :

Outlines of Medieval History.

(London, 1924).

Parry (J.H.) :

The Age of Reconnaissance.

(London, 1963).

Pierenne (H.) :

Medieval Cities.

(Princeton, 1934).

291

Pirenne (H.) :

Economic and Social History of Medieval Europe.

(London, 1936.).

Rappoport (A.S.) :

Histoire de la Palestine.

(Paris, 1932.).

Recueil des Historiens des Croisades Publ.

Académie des Inscriptions et Belles Lettres

(Historiens Occidentaux).-

Reinaud (M.) :

Notice sur la Vie de Saladin.

(Paris, MDCCCXXIV).

Revusky (Abraham) :

Les Juifs en Palestine.

(Paris, 1906.).

Schlunberger (G.) :

Campagnes du Roi Amaury de Jerusalem en Egypte.

(Paris, 1906.).

Small (R.C.) :

Crusading Warfare. (1097 — 1193).

(London, 1956).

Stephenson (Carl) :

Mediaeval History.

(U.S.A., 1943.).

Stubbs (William) :

Seven Lectures of the Study on Mediaeval and
Modern History.

(Oxford, 1900).

— Select Charters and other illustrations of English
Constitutional History from the earliest times to the
reign of Edward the first.

(Oxford, 1921).

Thompson (J.W.) :

Economic and Social History of the Middle Ages.

(2 Vols. (London, 1959).

— The Middle Ages. 300 — 1500.

(London, 1931).

Ziadeh (Nicola) :

Urban Life in Syria under the Early Mamluks.

(Beirut, 1953).

قـمـر

الصفحة

المقدمة : ٥ - ١٢

الفصل الأول : « المجتمع الاسلامى » ١٣ - ١٤

(أولا) العناصر السكانية :

١ - القبائل العربية ١٦ - ٢٥

٢ - الاتراك ٢٥ - ٢٦

٣ - التركمان ٢٦ - ٢٨

٤ - الأكراد ٢٨ - ٣٠

(ثانيا) الطوائف المذهبية :

١ - الاسماعيلية ٣٠ - ٣٧

٢ - الدرّوز ٣٧ - ٤١

٣ - النصيرية ٤١ - ٤٦

الفصل الثانى : « المجتمع المسيحى »

(أولا) الجنسيات الأوروبية التى استقرت فى بلاد الشام

على زمن الحروب الصليبية وأثرت فى بنيانها

الاجتماعى ٤٩ - ٥٤

(ثانيا) الهيئات الدينية الحربية

١ - هيئة الاسبتارية ٥٦ - ٦٥

٢ - هيئة الداوية ٦٥ - ٦٩

٣ - هيئة فرسان التيوتون ٦٩ - ٧٢

الصفحة

٧٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٤ - هيئة مونتجوى
٧٣ - ٧٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٥ - هيئة القديس توما
٧٣	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٦ - هيئة القديس لازاروس

(ثالثا) طبقات المجتمع الصليبي .

٨٠ - ٧٥	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١ - الارستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان
٨٢ - ٨٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٢ - طبقة البولانيين
٨٤ - ٨٣	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٣ - طبقة الأحرار البورجوازية
٨٧ - ٨٥	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٤ - طبقة الرقيق والأقنان

(رابعا) المسيحيون الشرقيون .

٩٢ - ٨٨	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١ - الموارد
٩٥ - ٩٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٢ - الأرمن
١٠١ - ٩٥	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٣ - الأقليات الدينية

الفصل الثالث : « النشاط الاقتصادي »

١١١ - ١٠٤	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	(أولا) دور الحروب الصليبية
١٢١ - ١١٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	(ثانيا) النشاط التجارى للمدن الإيطالية بالشام
١٢٧ - ١٢١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	(ثالثا) طرق التجارة البرية والبحرية المؤدية الى الشام
١٣١ - ١٢٧	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	(رابعا) أهم المراكز التجارية
	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	(خامسا) أهم السلع التى كانت محور النشاط
١٣٧ - ١٣٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	التجارى
١٤٦ - ١٣٧	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	(سادسا) النظم والمعاملات التجارية

٢٩٥

الفصل الرابع : « الفنون الحربية »

- (أولا) النظم الحربية ١٤٩ - ١٨١
- (ثانيا) العمارة الحربية ١٨٢ - ٢١٣

الفصل الخامس : النشاط الفكرى والتفاعل الاجتماعى بين

- المسلمين والصليبيين ٢١٧ - ٢٤١
- المسلمين والصليبيين .

- (أولا) النشاط الفكرى ٢١٧ - ٢٤١

- (ثانيا) التفاعل الاجتماعى ٢٤٢ - ٢٦٠

- خاتمة ٢٦١ - ٢٦٦

- المصادر والمراجع ٢٦٧ - ٢٩٣

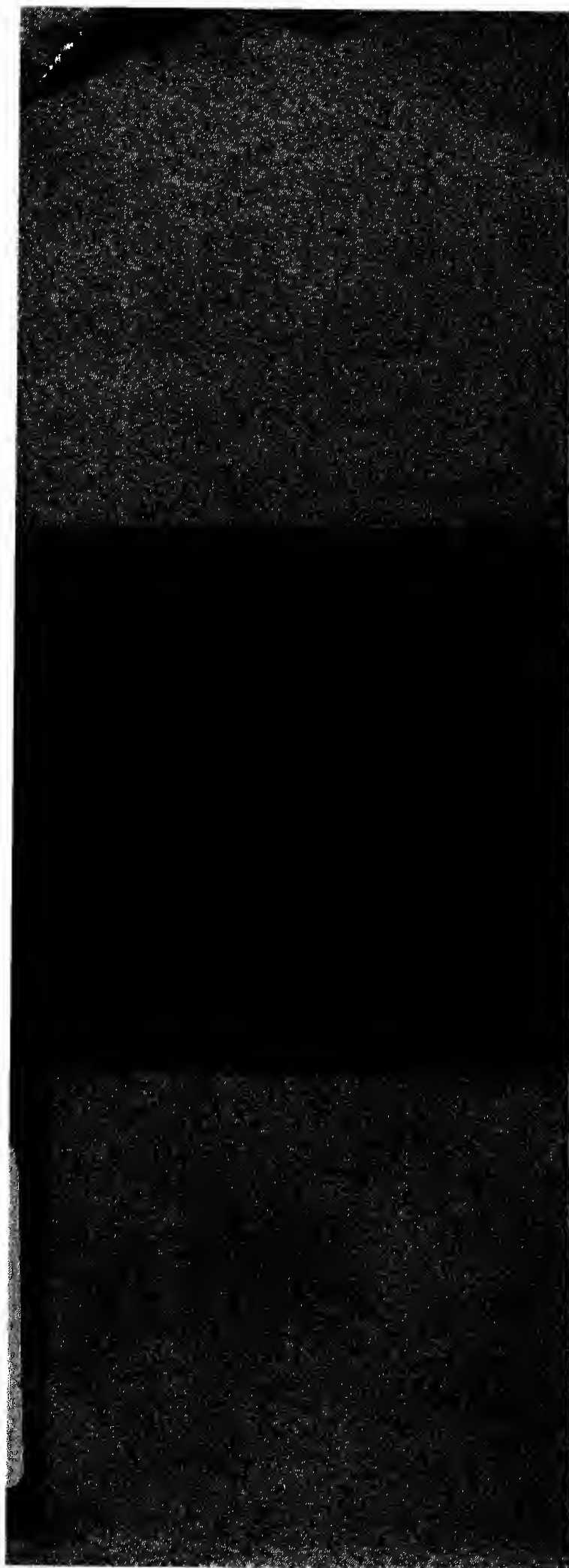
رقم الايداع ٧٩/٥٠٥٥

الترقيم الدولي - ٩ - ٨٦٠ - ٢٤٧ - ٩٧٧

مطبعة التضامن

٢٢ شارع سامي ميدان لاطوغي

ت : ٣٠٥٥٦



۱۰/۵۱۳۱۱

فرش جنیه
۵۵۰

